THOMAS F WILLIAMSON

دراسات



توماس فريدريك وليمسون

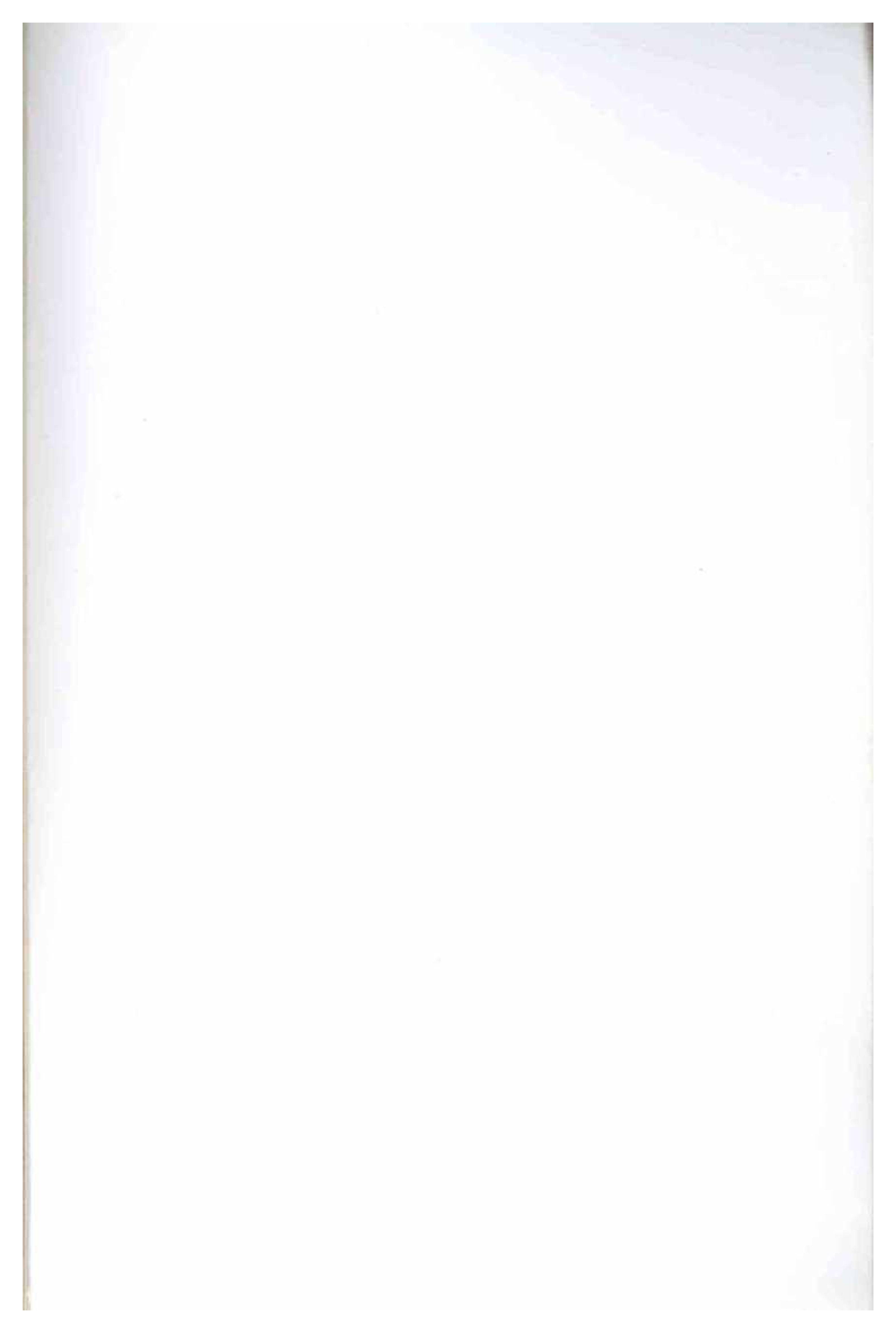
التاريخ السياسيّ لشمّر الجربا

قبيلة من الجزيرة (1800 - 1958)

ترجمة: د. جوزيف نادر بولص

تقديم وتعليق: د. ثائر حامد محمّد صوفي خضر





التاريخ السياسي لشمر الجربا
قبيلة من الجزيرة (1800 - 1958)



الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo
الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، بجوار مطعم القدس - بناية 12
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب : 7855 عمّان 11118 ، الأردنّ
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ،
بجانب البنك المركزيّ الأردنيّ ، مكتب القاصة - بناية رقم 34
مكتب بيروت
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

◆

التاريخ السياسيّ لشمّر الجربا
قبيلة من الجزيرة (١٨٠٠-١٩٥٨م)
توماس فريدريك وليامسون / مؤلّف من الولايات المتّحدة الأمريكيّة
ترجمة النصّ الكامل للأطروحة : د. جوزيف نادر بولص / مصر
تقديم وتعليق : د. ثائر حامد محمّد صوفي خضر / العراق

الطبعة العربيّة الأولى ، 2010

◆

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب** 95297109 7 00962 ، الأردنّ
®
الصفّ الضوئي : **إيمان زكريّا خطّاب ، عمّان ، هاتف** 079/5349156
خطوط الغلاف : **زهير أبو شايب**

دراسات

توماس فريدريك وليمسون

التاريخ السياسيّ لشمّر الجربا

قبيلة من الجزيرة (1800 - 1958)

ترجمة: د. جوزيف نادر بولس

تقديم وتعليق: د. ثائر حامد محمّد صوفي خضر



إهداء المؤلف

لم يكن هذا العمل ليرى النور لولا عطف وكرم العديد من الأشخاص، وأولهم «تشارلس» و«باربارا الترز»، اللذان ساعداني وشجعاني على الرغم من أنني لست تلميذهما. كما أتقدم بالشكر إلى البروفيسور «برادفورد مارتن» لمساهماته الفاعلة في البحث، والى «فيكتور دانر» الذي دفعني إلى دراسة اللغة العربية وكان ضمن لجنة، و«وادي جوايدة» الذي جعل تخرجي تجربة لا تُنسى، وهو الذي أغنى الجميع بمعلوماته القيمة ومعرفته بالتاريخ والأدب والدين والطبيعة الجغرافية للعالم العربي، فشكرا لك.

وأخص بالشكر أيضا زوجتي «جاين»، لصبرها وتفهمها وتقديم الدعم المالي والمعنوي وتشجيعها لي. كما أود أن أتقدم بالشكر أيضا إلى جامعة «إنديانا» لتقديمها الدعم ولإتاحتها الفرصة لي. فجامعة «إنديانا» هي من المؤسسات النادرة حيث تتبلور وتُصقل المواهب الشابة.

أتبع في هذا البحث نُظم الترجمة التابعة لمكتبة الكونغرس والمجلس الأمريكي للجغرافية باستثناء بعض الأمثلة.

تقديم

لقد كان لي مع أطروحة الباحث الأميركي توماس فردريك وليمسن معايشة طويلة منذ أن عثرت على (مايكرو فلم) لها في المكتبة المركزية لجامعة الموصل وأنا في بداية البحث والكتابة عن التاريخ السياسي والنسبي للتجمع القبلي شمر وأسرة القيادة فيها آل محمد الجربا عام ١٩٨٨م.وقمت على الفور وبعد الحصول على نص ورقي لها بتقديمها إلى صديقي الدكتور جوزيف نادر بولص الأستاذ المصري الذي كان يعمل في جامعة الموصل، فقام بترجمتها ترجمة كاملة دون أي تغير لنصوصها، فأصبحت هذه الترجمة عونا لي للقيام بتأليف كتاب عن تجمع شمر القبلي وبيت المشيخة فيها آل محمد الجربا والذي خرج إلى القراء بطبعة لست راضيا عنها عام ٢٠٠٢م عن الدار العربية للموسوعات ببيروت.

بقيت ترجمة الدكتور جوزيف لأطروحة الدكتوراه في جامعة إنديانا لوليمسن التي أنجزها عام ١٩٧٤م باقية في أدراج المكتبة الخاصة بي، مع أني كنت قد قدمت النص الانكليزي من الأطروحة إلى احد أحفاد الشيخ عجيل الياور الذي بدوره قد أرسلها إلى عمه الشيخ محسن عجيل الياور المقيم في لندن منذ نهاية الثمانينات والى الوقت الحاضر، وقد قام الشيخ محسن بتقديم الأطروحة إلى الأديب اليهودي العراقي الراحل مير

شاوول آل عزرا البصري الذي كان مقيما في لندن فقام بترجمتها ونشرها عبر دار الحكمة بلندن عام ٢٠٠٠م.

وعند اطلاعي على ترجمة مير بصري للأطروحة أذهلني كثرة ما فيها من الأخطاء في قراءة النص ولفظ الأسماء مع حذف لنصوص كاملة منها بتعمد، فجاءت ترجمة بصري ناقصة مشوهة لكثرة ما فيها من أخطاء مطبعية وإبقاء الأخطاء التي كان الباحث قد وقع فيها دون تعمد منه ولكن حكمته النصوص وعدم معرفته الكاملة للتسلسل الأسري لأبناء أسرة الجربا شيوخ شمر، كما أن الصراعات داخل أسرة الجربا التي سيراها القارئ في النص الذي بين يديه وقع فيه مير بصري عندما حذف نصا يتعلق بالشيخ مشعان الفيصل من نص الأطروحة ولم يترجمه وكذلك حذف النص المتعلق بمقتل الشيخ نجرس في مضيف الشيخ صفوك.

وضمن الصراع الأسري على القيادة في أسرة آل محمد الجربا والذي تحول في عصرنا الراهن ثقافيا في بعض جوانبه فقد قام أبناء الشيخ مشعان الفيصل بإعادة طبع ترجمة مير بصري من خلال الدار العربية للموسوعات في بيروت دون الحصول على الموافقة من دار النشر التي نشرتها أول مرة مع الإبقاء على الأخطاء المطبعية والتاريخية واللفظية في ترجمة مير بصري على حالها، و إضافة نصوص كتابية عن الشيخ مشعان الفيصل وابنه الشيخ ضاري وصور للشيخ مشعان الفيصل ليست موجودة في صلب النص الانكليزي لوليمسن أو النشرة الأولى لترجمة بصري.

كما كان مير بصري قد وقع بأخطاء تاريخية وكأنه لم بقراء النص الذي ترجمه عندما يروي في مقدمته للأطروحة أن الشيخ عجيل الياور قد اخذ المشيخة عن أبيه عبد العزيز الذي كان على مشيخة شمر قبله، وهي مجاملة

غير موفقة من قبل مير بصري للشيخ محسن العجيل لأن من الثابت تاريخيا أن الشيخ عبد العزيز الجربا لم يكن على رأس المشيخة لشمر، بل أن الشيخ عجيل قد أصبح على مشيخة شمر بجهوده الذاتية كما أشار وليمسن وبمساندة من بعض أعمامه المقربين منه كما أشار إلى ذلك الخبر التاريخي.

ولسنين طويلة ترددت في إخراج هذا النص كاملا للقارئ الكريم ولكن في النهاية قررت أن أظهره مع توضيح للعديد من نصوصه التي كان من واجبي أن اشرحها ا وان أبين الأخطاء التاريخية التي فيها لكي يكون القارئ الكريم قد حصل على النص الصحيح لهذا العمل مع التصويبات التي كان لا بد من ذكرها، وقد أشار إليها المقدم بعلامة (*) حتى يتم تفريقها عن الهوامش الأصلية للمؤلف، كما قام المقدم بوضع عدد من الصور التي تخص قسما من الشخصيات التي أشار إليها المؤلف في أطروحته مع بعض الخرائط التوضيحية.

هذا مع تقديم خالص الشكر ولامتنان إلى كل من ساهم بإخراج هذا العمل للقارئ الكريم مذ أن كان لقطات صورية إلى أن أصبح كتابا ورقيا بين يدي القارئ الكريم، ومن الله المنة والعون.

المقدم

د. ثائر حامد محمد صوفي خضر

مُقَدِّمَة

عرض المسألة:

تعرض الشرق الأوسط، خلال القرن والنصف الماضين، لفترة من المتغيرات الملحوظة أدت إلى تغيرات عميقة في المجتمعات التقليدية الموجودة في المنطقة. وعلى الرغم من أن بعض أجزاء المنطقة تعرضت إلى بدايات هذا التغيير قبل غيرها، إلا أن الحقيقة هي أن كل جوانب الحياة تأثرت بعوامل مثل سيطرة أكبر من قبل الحكومة المركزية، اتصالات أسرع، بضائع استهلاكية جديدة، علاج طبي أحسن، وبزوغ القومية. وقد اثر هذا التغيير على المجتمع الشرق أوسطى على كافة المستويات، و تأثرت بذلك الحكومة المركزية والمدن والقرى، والقبائل الرحل.

وفي السنوات الأخيرة درس المؤرخون وعلماء الاجتماع الآخرون التغيرات التي طرأت على الإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وعلى الرغم من أن معظم الكتاب لا يتفقون بالضرورة على المصطلحات الفنية التي تصف بشكل مناسب التغيرات التي حدثت داخل الإمبراطورية العثمانية، إلا أنهم يتفقون بالتأكيد على أن تحولاً كبيراً بدأ يحدث في المجتمع العثماني بحلول العام ١٨٤١ م. ومن الصعب أن نجد مصطلحاً واحداً يصف بشكل ملائم هذا الاتجاه. إن

مصطلحات مثل التغريب (Westernization) والأوربة (Europeanization)، وعدم التطور والتخلف والمحرومة ثقافياً، التي تظهر في الدراسات العلمية خلقت جدلاً شديدا بسبب مردافاتها حول العرق. وفي هذا العمل فان عملية التغير السريع هذه، والتي حدثت في أجزاء كبيرة من العالم خلال القرن الماضي، سوف يشار إليها بمصطلح التحديث. وبالتحديد نعنى عملية تكيف مجتمع تقليدي معين نحو ثقافة القرن العشرين الأخيرة مع التأكيد على القومية، والاتصالات السريعة والعلاج الطبي، واقتصاد عالمي تزداد باضطرار وحدته، ونسبة مرتفعة من التعليم.

لقد اتخذ التحديث داخل الإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر مساراً غير متواز، أدى إلى تغيير قطاعات معينة من المجتمع بشكل كبير بينما أهملت الأخرى فعلياً. وحتى الآن فان مؤرخي الشرق الأدنى الذين يدرسون هذه الظاهرة، ركزوا انتباههم على تحليل التغيرات التي كانت تحدث في العاصمة العثمانية الأستانة. وتمدنا هذه الدراسات المتنوعة بنظرة عامة عن التغيرات البيروقراطية، والخاصة بالمؤسسات الإدارية والثقافية التي حدثت في الإمبراطورية، ولكنهم عموماً فشلوا في تناول الظروف في الأقاليم[1]. وهناك أعمال قليلة نسبياً تصف كيف أثرت

(١) أنظر الأعمال التالية عن تاريخ الإمبراطورية العثمانية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين: برنارد لويس، نشأة تركيا الحديثة (لندن ١٩٦١م)؛ نيازي بركيز: نحو العلمانية في تركيا الحديثة (مونتريال ١٩٦٤م)؛ ستانفورد شو: بين القديم والجديد: الإمبراطورية العثمانية في ظل سليم الثالث (كمبردج ١٩٧١م)؛ رودريك هـ. ريفدسون: الاصطلاح في الإمبراطورية العثمانية ١٨٥٦-١٨٧٦م (برنستون ١٩٦٣م)؛ شريف ماردين: أصول الفكر العثماني الناشىء (برنستون ١٩٦٢م)؛ =

إصلاحات الحكومة المركزية على الأقاليم بشكل عام، أو على مستوى أكثر تحديداً، وكيف أثرت على جماعات فردية في مناطق محلية[١]. وبخلاف دراسة أو دراستان عن الإصلاحات الإقليمية، فان تاريخ التغيرات الإقليمية في الولايات العثمانية لا يزال في حاجة لأن يكتب.

لقد أهملت منطقة بغداد، وهي منطقة من الممكن أن تكون مزدهرة، كموضع خلفي منعزل طوال القرن التاسع عشر. إن الحكم المركزي المتزايد لم يكن له تأثير في ولاية بغداد حتى منتصف القرن. ومنذ أن قررت الحكومة العثمانية أن توطد سيطرتها على مماليك بغداد، بدأ التغيير يصل تدريجيا إلى هذه المنطقة النائية نسبيا. ولا يزال هناك حاجة إلى تحليل متكامل تفصيلي لتاريخ العراق في القرن التاسع عشر. وللأسف، فلقد اتخذت بدايات غير متطورة تماماً لدراسة هذا الجانب المحدود من الاصطلاح الإقليمي[٢] ونظرا للنقص في الدراسات الأساسية لفهم عملية التغير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والخاص بالمؤسسات في العراق فان أية دراسة سوف توضح وتبين عملياً تاريخ المنطقة.

= روبرت ديفيرية: الفترة الدستورية العثمانية الأولى (بالتيمور ١٩٦٣م)؛ (رنست رامسون (الابن): الأتراك الشبان (برنستون ١٩٥٧م).

(١) أنظر الدراسة الممتازة لموشى ماعوز: الاصطلاح العثماني في سوريا وفلسطين ١٨٤٠-١٨٦١م (اكسفورد ١٩٦٨م)، وأيضا هربرت بودمان (الابن): التكتلات السياسية في حلب ١٧٦٠-١٨٢٦م (تشايل هيل ١٩٦٣م).

(٢) يظل كتاب ستفين لونكريك: العراق الحديث في أربعة قرون (أكسفورد ١٩٢٥م)، منذ ظهوره لأول مرة منذ حوالي خمسين سنة تقريبا، أهم دراسة باللغة الإنكليزية عن تاريخ العراق الحديث.

ويتناول العمل الحالي التاريخ السياسي لقبيلة شمر جربا في الجزيرة (الشمال الغربي من العراق) منذ عام ١٨٠٠ إلى ١٩٥٨م[1]. إن تتبع تاريخ شمر طوال القرن والنصف الماضيين يخدم عدة أهداف رئيسية. ويبدأ هذا العمل بتحليل تأثيرات هجرة شمر جربا على النظام السياسي الطبيعي المستقر نسبياً في الجزيرة. ويمدنا توازن القوى الجديد الذي تحقق بين شمر والحكومة المركزية والسكان المحليين بفرصة ممتازة لدراسة الأحوال في قسم واسع نسبيا من الإمبراطورية العثمانية.

عندما بدأت الأستانة تعيد فرض سيطرتها على الجزيرة وواجهت قبيلة شمر الثائرة في إحدى أقوى تحدياتها وأكثرها إصرارا ضد السلطة العثمانية واستغرق الأمر حوالي قرن من الصراع ليس فقط من جانب الحكومة العثمانية بل أيضا من الحكومات البريطانية والعراقية بعد الحرب العالمية الأولى من اجل إخضاع شمر تماماً. وهكذا، فان هذه الدراسة تصف أيضا العمليات التي قامت بها حكومات مركزية متعددة ونجحت من خلالها في السيطرة نهائيا على قبائل رحل مثل شمر.

إن عملية تغير المجتمعات في الشرق الأوسط لا تبدو أكثر وضوحا منها في حالة التغييرات التي خضعت لها حياة قبائل البدو خلال القرن

---

(١) تناولت أعمال قليلة فقط، وعلى مر السنين جوانب معينة من تاريخ شمر جربا. وللأسف لا تتناول أية دراسة منها، بشكل واف، تاريخ شمر جربا في الجزيرة. وفيما يلي بعض الأعمال المهمة ولكنها تناقش بشكل محدود شمر جربا: ماكس فرايهر فون او بنهايم: البدو: الفروع البدوية في بلاد الرافدين وسوريا، المجلد الأول (ليبزك ١٩٣٩م)، عباس العزاوي: عشائر العراق، المجلد الأول (بغداد ١٩٥٧م)، وروبرت مونتاني: «قصص شعرية بدوية (مختارات لدى أهل شمر الجزيرة)»، مجلة الدراسات الشرقية، العدد الخامس (١٩٣٥م) ص٣٣-١١٩.

الماضي (القرن التاسع عشر) وعندما يفحص المرء دور قبائل البدو في العراق وسوريا في الوقت الراهن، فان التغييرات العنيفة التي حدثت منذ عام ١٨٠٠م تبدو واضحة تماما. إن هذه الدراسة لا ترسم بدقة المراحل الأهم للتغير القبلي فحسب، بل وتحلل كيفية تأثير هذه العملية بالتحديد على شمر جربا. وقد تم بتفصيل تام دراسة الطبيعة المتغيرة للقيادة البدوية، ونشاطها الاقتصادي والثقافي.

ولأن هذا العمل يقوم بالمسح الشامل لعلاقات قبيلة شمر مع القبائل المجاورة لها ومع الحكومة المركزية والمجتمع المتطور بسرعة، فانه من المهم للغاية أن يتفهم المرء نقطتين أساسيتين:

١- جغرافية منطقة الجزيرة، موطن شمر من النواحي الطبيعية والاقتصادية والديموغرافية.

٢- طبيعة الحياة البدوية التقليدية.

جغرافية الجزيرة: مذكرة تاريخية:

في نهاية القرن الثامن عشر، هاجرت قبيلة شمر جربا من إقليم نجد في شمال السعودية(*) وأقامت في منطقة من بلاد الرافدين تعرف بالجزيرة وكلمة الجزيرة في اللغة العربية تعني الأرض التي يحيط بها الماء من كل جوانبها وهذا الصوف يلائم تماماً الإقليم ويرجع تعبير الجزيرة إلى القرن

(*) أي من منطقة جبل شمر شمال شرق شبه الجزيرة العربية والمملكة العربية السعودية حاليا (المقدم).

السابع الميلادي، ويشير إلى منطقة في العراق وسوريا تمتد بين نهري دجلة والفرات[١].

وتتمتع الجزيرة، كإقليم جغرافي، بأهمية إستراتيجية عظيمة لأنه يعتبر مفترق طرق جغرافي التقت عنده انهار عديدة وطرق تجارة وإمبراطوريات[٢]. وقد ازدهرت هناك الحضارة الأشورية القديمة التي تمركزت في نينوى. وتمتع هذا الإقليم، في ظل الإمبراطوريات العربية في القرون الوسطى، برخاء عظيم من خلال زراعته المنتجة، وحرفه اليدوية المشهورة، وقوافل التجارة المزدهرة وأثناء الحروب الصليبية (أو حروب الفرنجة) قدم هذا الإقليم المؤن والجنود خلال قيام الأيوبيين بإعادة فتح الأراضي المقدسة. وللأسف، حطم الغزو المغولي، في منتصف القرن الثالث عشر، الكثير من إنتاجياته الزراعية. وكان هذا الإقليم أيضا، في وقت سابق للغزو المغولي، يمد عدداً كبيراً من السكان بالمؤن. وعلى الرغم من ذلك، فان انخفاض السكان، فيما بين القرون الثالث عشر والثامن عشر، أحال أجزاء كبيرة من الجزيرة إلى أرض خراب[٣]. وقد لعبت هجرة القبائل الرحل دوراً رئيسياً في هذه العملية.

---

(١) كاى لسترنج: اراضي الخلافة الشرقية (نيويورك ١٩٠٥م)، ص ٨٦-١١٤.

(٢) م. كنارد: «الجزيرة»، في دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني، الطبعة الثانية (لايدن ١٩٥٧م)، ص ٥٢٣-٥٢٤.

(٣) البيرت حوارني: رؤية تاريخية: الشرق الأدنى ومقالات أخرى، (بيروت ١٩٦١)، ص٤٠-٤٢.

الجغرافية الطبيعية:

إن الإقليم كله سهل واسع ينحدر برفق ومغطى أساساً بالصخور القديمة المتبلورة ويشكل جزءاً من سلسلة الجبال العربية التي يزيد امتدادها على ألف ميل إلى الجنوب. ويغطي هذا الأساس المتبلور حجر جيري من العصر الطباشيرى والعصر الثلاثي والعصور اللاحقة له، تتخلله طبقات من النتوءات الملحية والجصية. ويبدأ من مرتفع يبلغ حوالي ١٥٠٠ قدم، جنوب الجرف الكردي في الشمال، ثم ينحدر تدريجيا إلى الجنوب إلى مرتفع يصل إلى ٢٥٠ قدم تقريبا عن سطح البحر في جنوب العراق[١].

وتشمل الحدود الجغرافية للجزيرة، والمتفق عليها عموما، إقليماً أوسع من ديرة (وهي المنطقة الجغرافية التي تعيش فيها قبيلة ما) شمر جربا[٢]. ولذلك، ومن اجل تجنب أي خلط، فان تعبير «الجزيرة» كما هو مستعمل في هذه الدراسة والمحدد لديرة شمر الضيقة، إذ يقع خط الحدود الملائم شمالا بجبل سنجار وجبل عبد العزيز. وتمثل رأس الدلتا لدجلة والفرات، والتي تمتد لعدة أميال قليلة جنوب بغداد، الحدود الجنوبية. وتحد الناحية الغربية بنهر الفرات وفرعه نهر الخابور. وكمثيله في الغرب، فان نهر دجلة يقدم حدا شرقيا مناسبا[٣].

---

(١) وليام برايس: جنوب غرب آسيا: جغرافية عامة، (لندن ١٩٦٦م)، ص٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

وعندما يتعمق المرء في الشكل الطبيعي للجزيرة يلفته الامتداد الكبير للسهل الذي يمتد إلى أميال دون أي تغيير ملحوظ. وتتخذ المنطقة شكل مثلث أبعاده كما يلي: ٣٠٠ ميل من الشمال، ٤٠٠ في الشرق، وحوالي ٥٠٠ ميل على امتداد ضلعه الشمالي الغربي-الجنوبي الغربي. وهناك نتوءان عاليان من التلال يرقمان الجزء الشمالي من السهل على امتداد محور شرقي-غربي[١].

وتغطى هذه المنطقة المسطحة نسبيا تربة بنية حمراء وبنية صفراء وإلى الشمال من هذه التلال وإلى جنوبها مباشرة تصل التربة البنية الحمراء إلى عمق يمتد من ٢٤ إلى ١٠٠ بوصة. وإذا اتجهنا ابعد من ذلك جنوباً، يظهر شريط اقل سمكا من التربة البنية الحمراء. وتغطى بقية السهل تربة رمادية صفراء نتكون من مواد جبسية متنوعة. وهذه المنطقة قاحلة نسبيا حيث أن هذه التربة تصل فقط إلى عمق حوالي ١٠ بوصات وتمتلك مادة عضوية قليلة. وعلاوة على ذلك، تظهر كثبان رملية من ٨ إلى ١٠ بوصة فوق القاعدة الجصية من هذا الإقليم الجنوبي، خاصة قرب وادي الثرثار[٢].

وكما ذكر آنفا، هناك سلسلتان من التلال المرتفعة تشطر السهل الذي يقع غرب الموصل ويصل ارتفاع السلسلة الغربية، والمعروفة بجبل عبد العزيز، إلى ٢٦٢٥ قدم. وتقع هذه السلسلة بين نهري البليخ والخابور. وتشتمل سلسلة جبل سنجار، التي تقع على مسافة ٧٠ ميلا غرب الموصل على أعلى الجبال في الجزيرة. وهذه الجبال، التي كانت لفترة طويلة ملاذا

---

(١) ولسيم. فيشر: الشرق الأوسط: جغرافية طبيعية واجتماعية وإقليمية، الطبعة السادسة، (لندن ١٩٧١م)، ص ٣٥٢-٣٥٣.

(٢) ي. بورينغ، أنواع الترب وحالة التربة في العراق، (بغداد ١٩٦٠ م)، ص٧٨ و ص ٢١١.

ضد الغزاة الخارجين، يصل ارتفاعها إلى ٤٧٨١ قدم وهي موطن قبائل اليزيدية[1].

ويعتمد مستوى الإنتاجية الزراعية والسكني البشرية في الجزيرة على توفر المياه. ويعاني هذا الإقليم، عموما من أن سقوط المطر السنوي فيه اقل من المناسب. وبسبب نمط سقوط الأمطار الدوري، متناوباً بين فصل ممطر وأخر جاف، سبب صعوبات جمة للمزارعين والرعاة. ويقع الفصل الممطر بين تشرين الثاني وأيار، بينما يبدأ الفصل الجاف في وقت مبكر من حزيران ويمتد حتى تشرين الأول. ويبلغ متوسط سقوط الأمطار سنويا ما بين ٣ و١٠ بوصات لأغلب الإقليم، ويصل إلى حوالي ٢٠ بوصة في الشمال، وحول الموصل و حوضي نهري الزاب، يتراوح المتوسط بين ١٥ و ٣٠ بوصة في السنة. وكما يختلف سقوط الأمطار السنوي في الإقليم كله، تختلف كذلك درجة الحرارة. وخلال شهور الصيف تزيد درجة الحرارة غالبا عن ١٠٠ فهرنهايت في الصحراء، وتصل إلى مستوي ٩٠ درجة فهرنهايت في الموصل[2].

وبالإضافة إلى مياه الأمطار الضئيلة، فان نهري دجلة والفرات يوفران مياه إضافية للري الزراعي وبدونها لا يمكن الاستمرار في الزراعة سوى في مناطق قليلة تسقط فيها الأمطار سنويا بشكل مناسب. أن المياه الرئيسية لنهر دجلة تبدأ من جبال طوروس في جنوب شرق الأناضول بالقرب من ديار بكر. وينساب دجلة من بحيرة كولتشك، ويتجه جنوبا مارا بالموصل نحو تكريت وبغداد. وفي الجنوب يمر النهر بعدد من

---

(١) برايس: جنوب-غرب آسيا، ص ٢٢٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٩-٢٣٠.

المستنقعات قبل التقائه بالفرات ليكونا. شط العرب الذي يصب في الخليج وإلى الجنوب من الموصل يلتقي، بدجلة رافدا الزاب الأكبر والأصغر [١].

ويقع مصب نهر الفرات أيضا في جبال طوروس، شمال شرق موقع المياه الرئيسية لدجلة ويتشكل الفرات من التقاء مجريان للمياه، وهما قرة سو ومراد سو، ويجرى خلال بادية الشام، ويصل أخيرا إلى الخليج العربي. ويصب نهرا البليخ والخابور في الفرات، وقد ساعدت وديان النهرين، تاريخيا على الزراعة المزدهرة[٢].

وتساعد المياه الغزيرة لهذين النهرين المزارعين على طول شواطئهما، ولكنها لا تصل إلى داخل الجزيرة. وبدلا من ذلك يضطر رجال قبائل الصحراء إلى الاعتماد على عدة وديان كبيرة للحصول على المياه. والوادي هو مجري نهر جاف. وخلال الفصل الممطر يصبح الوادي شلالا هادراً يصل عمقه إلى عدة أقدام. وعلى العكس، ففي أثناء الصيف قد ينكمش الوادي ويجف فيصبح مجرد ارض ندية. وهناك واديان رئيسيان يخدمان الجزيرة: وادي عجيج ووادي الثرثار. ويبدأ أكبرهما، وهو وادي الثرثار، إلى الجنوب من جبل سنجار وبموازاة نهر دجلة في انسيابه جنوبا، قبل أن ينتهي في منطقة مستنقعات تعرف بأم رحل شمالي الرمادي. وإلى الغرب شمال البو كمال قليلا، يبدأ أيضا وادي عجيج عند سفح جبل سنجار

(١) جورج ب. كريس، مفترقات طرق: الأرض والحياة في جنوب غرب آسيا، (شيكاغو ١٩٦٠ م)، ص ١٤١-١٤٨.

(٢) المصدر السابق.

وينتهي، مثل وادي الثرثار، في بحيرة ملح تسمى رودا. و هذان الواديان خدما شمر كمناطق ري خلال الفصل الجاف[١].

وهناك منطقتان نباتيتان في ديار شمر. ففي الجنوب من جبل سنجار، هناك إقليم سهب جاف يفصل السهب الشمالي الممطر عن الصحراء. وفي هذه المنطقة، توفر الشجيرات الشوكية والحشائش مساحات للرعي جيدة نوعا ما وتكون معظم المنطقة المتبقية من الجزيرة أرضا صحراوية. وخلال الربيع فان الأزهار البرية الصحراوية، مثل الخشخاش الأحمر والشعير البري والخنشار، تشكل بساطا مورقا من النباتات الملونة. ومع ذلك ومع تقدم الفصل الجاف، فان هذه الأزهار تموت وتترك التشكيلة المعتادة من الأغصان الصحراوية المقطوعة والقصعين والشجيرات الصغيرة ويساعد كلا النوعين من الأغطية على رعى الماشية، ولكن توفر نباتات السهب الجافة هي المنطقة الأفضل لرعي قطعان الأغنام[٢].

السكان:

تحكم الماء، العامل ذو الأهمية الأساس في نمو وتركز السكان وتجمعاتهم في الجزيرة ومن المفيد تصور الإقليم كمثلث عند مناقشة ديموغرافيته. امتلك كمية من الماء كافية لإعالة السكان المستوطنين وعلاوة على ذلك فان داخل المثلث منطقة جافة لإعالة عدد محدود من السكان فقط. وبهذا المخطط الذهني، يمكن للمرء أن يدرك بسهولة الأنماط الديموغرافية للجزيرة.

---

(١) سلسلة الكتب الجغرافية، العراق والخليج الفارسي (أكسفورد ١٩٤٤م)، ص٧٧-٧٩ و ص ٨١.

(٢) المصدر السابق، ص٧٥-٨١.

سكنت قبائل البدو جزءا كبيرا من الإقليم خلال القرن التاسع عشر. أن طريقة حياتهم الرعوية استغلت على نحو أمثل مصادر الصحراء المحدودة. وقد سكن الجزيرة نمطين مختلفين من البدو العرب الرحل الذين احتلوا مساحات واسعة من الصحراء السورية ومناطق السهب الجافة الأخرى، و شكلوا جماعة واحدة[١]. وشكل الأكراد الرحل عند سفوح الجزيرة الشمالية جماعة أخرى[٢].

وأقامت القبائل الزراعية المستوطنة على امتداد انهار دجلة والفرات والخابور والبليخ. وعموما كانت هذه القبائل ينقصها القوة العسكرية المناسبة لتقاوم غارات النهب من جيرانها البدو. وقد عامل العرب البدو رجال قبائل النهرين هؤلاء باحتقار شديد لأنهم عاشوا في منازل دائمة واشتغلوا بعمل يدوي. ومن الناحية التاريخية، كانت بعض القبائل الزراعية المستوطنة بدوا في الأصل. ومع ذلك، ولأسباب متنوعة، امتهنت في النهاية الزراعة المستقرة.

واحتفظت بعض القبائل بقطعان من الغنم لزيادة دخلها الزراعي. وكما ذكرنا من قبل، فان هذه القبائل أقامت بالقرب من أنهار الجزيرة ومن الشمال إلى الجنوب وعلى امتداد دجلة، كانت القبائل الزراعية الرئيسية المستوطنة هي الجبور والبو حمد والبو بدران بالقرب من الموصل. وبشكل مشابه، أقامت قبائل البو عباس وبني تميم والجحيش على امتداد النهر بين

---

(١) قون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص ٢٢-٣٦.

(٢) روبرت مونتاني: بعض الجوانب عن سكان الجزيرة العليا، مجلة الدراسات الشرقية، المجلد الثامن (١٩٣٢م)، ص٥٥-٥٦.

سامراء وبغـداد. وإلى الغـرب وعـلى امتـداد وادي الفـرات، كـان الـدليم والجبور والجنابيون القبائل الزراعية الرئيسية[١].

وإضافة إلى هذين النهرين الرئيسيين وفـرت أنهـار البليـخ والخـابور موطنا لعدة قبائل زراعية متوطنة. وقدم إقليم جبل سنجار بأمطاره السنوية المناسبة بشكل معقول منطقـة أخـرى للسكان المستوطنين. وزرع رجـال القبائـل اليزيديـة وديـان هـذه المنطقـة الجبليـة[٢]. ومثـل القبائـل النهريـة المستوطنة، عاش اليزيديون تقليديا في خوف من غارات النهب مـن قبائـل البدو المجاورة. ومع ذلك فان قربهم من الملاجئ الجبلية حماهم مـن وطـأة التدمير البدوي.

كانت حلب وبغـداد والموصـل أعظـم المـدن في الجزيـرة وانطلقت الحكومة العثمانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في أول محاولاتها من اجل المركزية والسيطرة الإدارية من هذه المـدن التجاريـة وقـد ربطـت طرق القوافل التجارية بين هذه المراكز التجارية لقرون[٣]. وحققـت مـدن أخرى أصغر في الجزيرة فعاليات مشابهة، ولكن على نطـاق أصـغر. وعـلى امتداد نهر الفرات كانت مدن صغيرة، مثل هيت وعانة ودير الزور والرقـة، نقاط توقف عـلى طريـق بغـداد - حلـب للقوافـل التجاريـة. وقـد هـيمن السكان العرب على أغلب مدن الجزيرة.

---

(١) العراق والخليج، الصفحات ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٣.

(٢) د.س مـاركوليوث: « اليزيـدي » دائـرة المعـارف الإسـلامية، المجلـد الرابـع، ص ١١٦٣-١١٧٠.

(٣) س. ب. غرانت: البادية السورية: القوافـل-السـفر-الاستكشافات، (نيويـورك ١٩٨٣ م)، ص ١٥٣.

قبيلة البدو:

لما كان هذا العمل يدرس قبيلة شمر جربا فان التحليل العام لحياة البدو والتنظيم القبلي سيقدم خلفية ضرورية لفهم تاريخ القبيلة والمناقشة التالية تتناول قبائل البدو عامة. ومن خلال الدراسة سنقدم معلومات محددة توضح جوانب متنوعة لحياة شمر القبلية.

أولا: ما هي قبيلة البدو ؟

ثانيا: لماذا تتبع نموذجا معينا من التنظيم الاجتماعي ؟

إن الاعتبار الرئيسي في الإجابة على هذه الأسئلة المهمة يتركز حول حقيقة أن البدو كانوا رعويين. وفي محاولة البقاء في ظروف صعبة ذات حرارة شديدة ونقص في المياه يكاد يكون كاملا وتضاريس طبيعية غير مستقرة، طور البدو نظاما كفوا لتحويل مصادر الصحراء الضئيلة إلى منتجات تبقي على حياتهم وفي استنباط نمط حياتهم، حل البدو مشكلة تحديد مكان المياه، سواء في الوديان أو الآبار أو في البرك الراكدة، من خلال معرفة ثاقبة بتضاريس الصحراء[1].

وكان الطعام العامل الحيوي الثاني في وجودهم. وقد حل البدو القح في البوادي العربية والسورية مشكلة الغذاء بالاحتفاظ بقطعان من الجمال المستأنسة وان قيمة وأهمية الجمل بالنسبة للبدو يعبر عنها بإيجاز بارع الاقتباس التالي:

---

(١) جون غلوب: «بدو شمال العراق»، من مجلة الجمعية الآسيوية المركزية الملكية، المجلد ١٢، الجزء الأول (١٩٣٥م)، ص١٥.

[كمصدر للطعام والوبر(*) والجلود ومنتجات أخرى، وكوسيلة شحن وانتقال شخصي، فان الجمل، من صنف ما، يوفر كل هذه الأشياء للبدوي على نطاق لا يمكن أن ينافسه فيه أي حيوان أليف آخر أو مجموعة من الحيوانات] [١].

وبسبب الحاجة الدائمة للجمل إلى المراعى الجديدة، عاش البدو حياة ترحال. وفي بادية الشام و الجزيرة، اتبعت شمر جربا، مثل أغلب قبائل البدو نمطا ثابتا في هجرتهم السنوية ففي بداية الربيع، يقيم البدو عادة في إقليم السهب المتاخمة للصحراء. ومع ارتفاع حرارة الصيف، التي تقضى على النباتات الزراعية الضرورية، تتجه القبائل شمالا نحو التلال والوديان المتعددة حيث توجد عادة مراعي مناسبة. وأثناء شهور الصيف الحارة يقيم البدو معسكرات بالقرب من الينابيع أو الآبار. وعندما يبدأ سقوط المطر، يزور رجال القبائل مراكز حضرية مختلفة حيث يقايضون المنتجات الحيوانية مقابل الحبوب والتمر والأقمشة القطنية والآلات المعدنية. وفي النهاية، وكمرحلة أخيرة في دورة ترحالها، تعود القبائل إلى البوادي الجنوبية عندما يحل الشتاء البارد في شمال الجزيرة. وعندما يعود البدو مرة أخرى إلى الجنوب، يجدون علفا بكميات تناسب قطعانهم [٢].

(*) يسمي المؤلف وبر الجمل بالصوف (المقدم).

(١) لويز سويت: «غارات الجمال لبدو شمال الجزيرة العربية: آلية التكيف البيئي»، مجلة الإنثروبولوجي الأمريكي، المجلد ٦٧ (١٩٦٥م).

(٢) هنرى فيلد، إنثرويولوجيا العراق، المجلد الأول، (شيكاغو ١٩٤٠م)، ص ١٤.

التنظيم القبلي:

تقدم علاقات القربى (صلة الدم) الأساس المنطقي لكل الوحدات الاجتماعية القبلية. وتشكل العائلة الأبوية الواسعة أساس مجتمع شمر الوراثي الأبوي. وتنظم العائلة تبعا لطريقة السلالة الأبوية، وتحتوى على الأب وأولاده، ويسكن جميعهم متجاورين ويشتركون في ملكية قطيع العائلة ومن سلم التنظيم الاجتماعي تأتي الفرقة بعد ذلك. وتتكون هذه الوحدة من بين ١٠٠ و ٣٠٠ عائلة ينحدرون من سلف مشترك منذ خمسة إلى سبعة أجيال. وترجع ملكية الآبار وأراضي المراعي إلى الفرقة وبطريقة مماثلة تسافر هذه الوحدة وتعسكر معا. وتحل قضايا الثأر والدية أيضا من قبل هذه الجماعة[١].

ويشكل الفخذ المستوى الأعلى التالي من التنظيم الاجتماعي لقبائل شمر. ويتحد عدد من الأفخاذ ليشكلوا العشيرة، وهي اكبر تكتل معيشي للبدو. وتربط هذه الجماعة الكبيرة علاقة دم مشتركة. ومع ذلك فان عمل العشيرة كقوة سياسية يوفر أيضا أساس وحدتها. وتقوم العشيرة فقط بتنفيذ مسائل مثل حماية اللاجئين والنظر في العلاقات السياسية فيما بين القبائل. وتوفر هذه الجماعة أيضا القوة العسكرية لحماية الوحدات الأصغر ضد أعدائها[٢].

---

(١) لوثر شتاين: شمر جريا: البدو بين الفترة الرعوية والاستيطان، (برلين ١٩٦٧م) ص١٤٢-١٤٥. ومن أجل أمثلة أخرى عن التنظيم القبلي أنظر غابريل باير: السكان والمجتمع في الشرق العربي ترجمة عن العبرية حنة مزوكي)، (لندن ١٩٦٠م)، ص١٢٢-١٢٧.

(٢) شتاين: شمر جربا، ص١٤٢-١٤٥.

وتختار كل عشيرة واحداً من أعضائها شيخا للقبيلة. وفي الفترات العصبية تتحد عدة عشائر لتشكل اتحادا أوسع يعرف بالقبيلة. ويختار من بين عدة شيوخ زعيما أكبر أو شيخ المشايخ ليقود الاتحاد في الحرب. وعلى الرغم من حجمها الكبير أي أنها تقيم وحدتها على أساس سلف مشترك[(١)].

وتمثل المنافسة بين القبائل عاملاً أخر له أهمية مركزية من فهم المجتمع البدوي فكل قبيلة بدوية لها تقليديا علاقات عداء مع قبائل أخرى. ومنذ ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، لعبت المنافسة بين القبائل دوراً خطيراً في التاريخ العربي، فمثلا المنافسة بين قبائل من شمال الجزيرة العربية وأخرى من جنوبها أسهمت إلى حد كبير في سقوط الدولة الأموية في القرن الثامن. وعلى الرغم من أن مغزى هذه المنافسة القديمة اضمحل إلى حد بعيد خلال الألف سنة الأخيرة، إلا أن ظاهرة المنافسة القبلية لا يزال لها تأثيرها على قبائل الجزيرة. وبشكل محدد، حاربت شمر أعداءها التقليديين عنزة طوال القرن التاسع عشر وأثناء النصف الأول من القرن العشرين[(٢)].

التقسيمات الاجتماعية:

إن التقسيم الهرمي بين القبائل المختلفة يشكل جانبا هاما أخر في المجتمع البدوي. فقد صنف بعض البدو كقبائل ذات منزلة نبيلة بينما اعتبر آخرون كقبائل تابعة ونتج هذا التمايز في الأغلب عن القوة العسكرية والنفوذ السياسي. وقد حدث هذا بالذات لأن المجتمع البدوي يقيم تقييماً

---

(١) المصدر السابق، فون اوبنهايم، البدو، المجلد الأول، ص ٣٠.

(٢) رفائيل بتاى: من النهر الذهبي إلى الطريق الذهبي: المجتمع، الثقافة، التغير في الشرق الأوسط (فيلادلفيا ١٩٦٢م)، ص ٢٠٧-٢٠٨.

عاليا للشجاعة والجرأة. أن الأهمية المركزية لهذه الفضائل في تحديد مواقع القيادة والاحترام سوف يتم توضيحها بأمثلة من تاريخ شمر[(١)].

علاوة على ذلك، اعتبر البدو حياتهم البدوية أسلوب الحياة الوحيد التي تستحق الوجود. وهم عموما يحتقرون سكان المدن ويعاملونهم بازدراء. ومع ذلك، فالبدو يحتقرون أيضا القبائل العربية الأخرى التي تعمل بالزراعة المستقرة أو شبه المستقرة. وتمثل شمر كقبيلة ذات منزلة نبيلة، القيم والفضائل السالفة.

وتقسم المرتبة الاجتماعية داخل القبيلة البدوية تماما، مثل شمر جربا، إلى عدة مستويات متميزة، فأولئك الرجال الذين تمتعوا بشهرة كمحاربين شجعان احتلوا مكانة بارزة. أما الرعاة الذين اشرفوا على الثروة الحيوانية للقبيلة فقد احتلوا الدرجة الثانية من السلم الاجتماعي القبلي. ومثل المهاجرون واللاجئون من قبائل مجاورة أيضا مجموعة خاصة داخل القبيلة. وشكل العبيد السود، الذين خدموا شيوخ القبيلة كحراس خصوصيين وكخدم، مجموعة اجتماعية أخرى وربما ضمت أدنى جماعة اجتماعية داخل إطار القبيلة الحدادين والحرفيين الآخرين[(٢)].

شيخ القبيلة:

كانت مشيخة القبيلة غالبا حقا تقليديا لعائلة معينة أظهرت صفات الشجاعة والقيادة والجاذبية الروحية والحصافة على مر السنين. ولم يكن

---

(١) روبرت مونتاني: حضارة الصحراء: القبائل الرحل في الشرق وفي أفريقيا، (باريس ١٩٤٧م) ص٥٠-٥٥.

(٢) آن بلنت: قبائل بدو الفرات (نيويورك ١٨٧٩م)، ص٤١١-٤١٣. فون اوبنهايم، البدو، المجلد الأول، ص٣٢-٣٣.

هناك نمط ثابت في تولي مشيخة القبيلة، مثل خلافة الابن لأبيه، حيث أنها غالبا ما كان يتولاها ابن عم أو عم أو اخو الشيخ المتوفى، والذي أبرز نفسه داخل القبيلة. وكان كبار السن من رجال القبيلة هم الذين ينتخبون الشيخ الجديد. ونتيجة لذلك لم يكن للشيخ سلطة قسر أو القليل منها، على رجال قبيلته. وكانت سلطته والولاء له في قدرته المعنوية، فالشيخ كان يكتسب الاحترام من خلال شجاعته وفطنته السياسية وكرمه وذكائه وبلاغته في اللغة العربية. ولقد طرأ القليل من التغيير على هذه الفضائل منذ الأسياد المشهورين في فترة ما قبل الإسلام، ومن أمثال الأحنف بن قيس وعامر بن الطفيل[١].

وكانت وظيفة الشيخ تحمل التزامات بالنسبة لشؤون القبيلة. وبحكم موقعه، كان الشيخ يقرر كل الأمور بما في ذلك إعلان الحرب ضد القبائل الأخرى، وتنظيم جماعات الإغارة، وجمع الخاوة من القبائل الأضعف. وكان الشيخ أيضا يستضيف الزوار، ويصرف شؤون القبيلة[٢]. وعلاوة

---

(١) عن حياة السيدين اللذين عاشا قبل الإسلام أنظر: شارل يلات «الأحنف بن قيس» دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، ص ٣٠٣-٣٠٤. كاسكل: «عمرو ابن طفيل»، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، ص ٤٤٢. وأيضا بالنسبة لصفات الأسياد قبل الإسلام أنظر: عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، المجلد الأول، القاهرة (١٩٦٨م)، ص ٩٤، والمجلد الثاني، ص ٨٩ و ١٦٠، والمجلد الثالث، ص ٢١٠ و ٣٣٥-٣٣٦. كتاب الحيوان، المجلد الثاني (مصر ١٩٦٥م)، ص٩٤-٩٦، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي: كتاب الأمالي، المجلد الثالث، (بيروت ١٩٦٥م)، ص١١٨. ابن قتيبة: كتاب عيون الأخبار، المجلد الأول، (القاهرة ١٩٢٥م)، ص٢٢٧.

(٢) آن بلنت، قبائل الفرات، ص ٤١١.

على ذلك، فان مسائل إعلان الهدنة مع جار محارب أو إقامة تحالفات جديدة كانت محل اهتمام الشيخ[١].

وضمن إطار قبيلته كان الشيخ يقرر متى يهاجروا وإلى أين. وكان أيضا يختار الأرض المناسبة للتخييم في الصيف. وكان ينتج عن قرار خاطئ موت أتباعه من العطش أو فقدان حيواناتهم. وكان الشيخ كثيرا ما يفصل كقاضي في النزاعات بين رجال قبيلته[٢]. وكذلك العلاقات بين قبيلته والحكومة المركزية وخصوصا تحصيل الضرائب وتأمين الأمن في ديار القبيلة ينفذها الشيخ. وكانت رفاهية القبيلة تستند مباشرة على قدرة شيخها وكان مصير شمر يتأرجح تبعا لنوعية شيوخها العديدين، كما سيتضح من خلال هذه الدراسة.

ونتيجة لتحمله مسؤوليات عديدة، كانت مكافأة الشيخ ضئيلة نسبيا مقابل مساعيه. وربما كان مصدر رضائه الرئيسي يكمن في الاحترام والتقدير اللذين كان يلقاهما من قبيلته. ففي المجتمع البدوي، ليس هناك بالنسبة لرجل تقدير أعظم من اعتباره أكثر أفراد قبيلته حكمة وشجاعة ومكراً. ولم تختلف حياة الشيخ إلا قليلا عن حياة رجال قبيلته، باستثناء احتمال أن يكون له زوجة أخرى أو خليلة وقليل من العبيد في خدمته. وكانت ملابسه عادة من نوعية أحسن وغالبا ما كان يمتلك أفضل الخيول أما فيما يتعلق بالثروة الشخصية أو الغنى المالي، فان معظم الشيوخ كانوا

---

(١) فيليب حي: تاريخ العرب: من العصور المبكرة إلى الوقت الحاضر، الطبعة التاسعة، (نيويورك ١٩٦٧م)، ص٢٨.

(٢) بلنت: قبائل الفرات، ص٤١١.

نسبياً فقراء. وكان الشيخ يقيم في اكبر خيمة، ولكن هذا كان يرجع بالدرجة الأولى إلى انه كان يستقبل ضيوفه فيها[١].

وبخلاف وظيفة الشيخ، لم يكن هناك إلا القليل نسبيا من المؤسسات في القبيلة البدوية. إذ كان هناك مجلس من كبار رجال القبيلة يجتمع مع الشيخ ويقدم له النصيحة بالنسبة لشئون القبيلة. وكانت الجماعة تقوم بوظيفة استشارية أكثر من كونها هيئة لاتخاذ القرارات. وكان هناك قاضى للقبيلة ينظر في الشئون القانونية وذلك بتفسير نظام القانون القبلي المحدد بوضوح والذي غطى عمليا كل ما يحيط بحياة البدو. وكان هناك وظيفة أخرى هي وظيفة الكاتب أو السكرتير وحيث إن معظم الشيوخ كانوا غير متعلمين، فقد احتل هذا الفرد مكانة قوية لأنه هو الذي كان يقوم بتنفيذ أعمال القبيلة التجارية إضافة إلى مسك دفاتر الحسابات وكتابة الرسائل[٢][*].

عادات البدو وقيمهم:

بسبب طبيعة المجتمع البدوي، اعتمد الفرد على جماعته في أمور الحماية والمساندة والرفاقية. ولم تسمح الحقائق القاسية لحياة الصحراء بأي بديل غير تضامن الجماعة. فلم يكن بمقدور الفرد أن يحارب الطقس أو الحكومة أو قبيلة معادية. وتطور القانون القبلي (العرف) إلى نظام مسئولية

---

(١) قون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص٢٩-٣٠.

(٢) المصدر السابق، ص٣٠-٣١. إ. أ. بيلايف: العرب والإسلام والخلافة العربية، ترجمة غن الروسية أدولف غورفينش، (نيويورك ١٩٦٩م)، ص٦١-٦٢.

(*) في كثير من الأحيان كان الملا إذا وجد في القبيلة أو العشيرة يقوم بهذه المهام (المقدم).

الجماعة لحسم الجرائم المعروفة بالثأر للدم. فإذا أساء عضو جماعة إلى عضو جماعة أخرى، توجب على الجماعة المتضررة الحصول على تعويض. وأصبح حماية شرف العائلة نقطة مركزية في حياة البدو(١).

وكما ذكرنا آنفا، اعتبر المجتمع البدوي أعلى القيم الاجتماعية لديه الشجاعة والبراعة في القتال والدهاء الشخصي. ولأنه أعطى أهمية كبيرة لهذه الصفات أوجد المجتمع البدوي نظاما لشن الغارات فيما بين القبائل تعرف بالغزو حيث يمكن الرجل فيها أن يظهر مدى استعداده. وكانت القبائل تخطط بعناية للغزو ضد أعدائها، محاولة الاستيلاء على ماشيتها ومعسكراتها. ورغم أن هذه الغارات كانت تنفذ طبقاً لقواعد محددة إلا أنها غالبا ما كانت تحمل طابع اللهو. وقد حيكت القصص الكثيرة التي تصف دهاء وجرأة قبيلة ما أو فرداً ما، وكانت قلة من الناس تقتل أو تجرح. وعلى المدى الطويل كانت القبيلة غالبا ما تخسر بقدر ما تكسب بسبب الغارات المتبادلة(٢).

وقد دعمت قبائل البدو القوية أيضا في هيبتها وكذلك زادت من دخلها بجمع الخاوة (تقود الأخوة) من القبائل الأضعف. فكانت القبيلة القوية تعد بعدم الهجوم على قرية معينة أو على قبيلة أضعف وكذلك بحمايتها ضد غارات القبائل الأخرى مقابل مبلغ سنوي محدد. وكانت القبائل أيضا تحصل على الخاوة من تجار القوافل الذين يمرون من ديارهم.

---

(١) ماكس فريهر فون اوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج عبر حوران والصحراء وبلاد الرافدين، (بالألمانية) المجلد الأول، (برلين ١٨٩٣-١٩٠٠م)، ص ٩٠.

(٢) سويت: «غارات الجمال»، في مجلة الانتروبولوجي الأمريكي، العدد ٦٧ (١٩٦٥م)، ص ١١٣٢-١١٥٠.

ومن الواضح أن نقود الخاوة لم تكن سوى أقل قليلا من الابتزاز لأن القبيلة كانت نادراً ما تقدم حماية فعالة[1].

الجغرافية السياسية للجزيرة:

بعد استعراض الجوانب المختلفة للحياة في الجزيرة فان تحليلا لكيفية تفاعل هذه القوى مع بعضها البعض سيوفر لنا فهما أفضل للتوازن الاجتماعي بالمنطقة. ففي نهاية القرن الثامن عشر، ضم مجتمع الجزيرة ثلاث فئات عريضة من السكان. فكانت المراكز الحضرية مثل الموصل وحلب وبغداد وكذلك المدن الريفية الأصغر تمثل قطاعا واحدا. وقد وجدت هذه المدن كجزر منعزلة نسبياً عن ما يمكن اعتباره بصحراء واسعة وبحر من السهب. وكثيرا ما سيطرت قبائل البدو على هذا البحر. ومثلت هذه المدن (أو الجزر) مناطق إدارية حكومية منعزلة وكانت لكل منها قواتها العسكرية الخاصة وحاولت أن توفر الأمن الدائم لإقليمها الإداري.

وكانت الأقاليم التي تحيط بالجزر الإدارية الحضرية تقسم بين الرعاة الرحل والمزارعين وبسبب ظروف متعددة، مثل القيود التي فرضها الري وعدم الأمان العام من غارات البدو، احتل المزارعون مواقع تحف بها الأخطار على امتداد الأنهار والقنوات. وقد سيطر البدو، بسبب قدرتهم العسكرية المتفوقة، على مناطق واسعة من الصحراء والسهب. وفي عام ١٨٠٠م قام توازن عام بين مختلف قطاعات المجتمع شريطة ألا يتعدى إحداها كثيرا على امتيازات الآخرين.

---

(١) جون بركهارت: ملاحظات عن البدو والوهابيين، (لندن ١٨٣٧م)، ص٢٢٧.

ولاية بغداد في عام ١٨٠٠م:

تمتعت ولاية بغداد، ككثير من الأقاليم الأخرى في الإمبراطورية، وبسبب مسافتها البعيدة عن الأستانة باستقلال نسبي في بداية القرن التاسع عشر. فقد توقفت السيطرة الإدارية العثمانية المباشرة في عام ١٧٤٩م عندما تولى الحكم أول مملوك جركسي وهو سليمان باشا (أبو ليلة)(*). وحكم بغداد حكام مماليك لمدة تزيد عن ثمانين عاما دون أي تدخل لا مبرر له من الأستانة. وأقام باشوات المماليك بلاطاً ونظاماً حكوميا في بغداد يشبه كثيرا نظام السلطان العثماني(١).

وعادة ما كان يحيط بالباشا الحاكم بلاطا يضم مسئولين عديدين. وكانت بغداد تعين حكام المناطق الإقليمية في البصرة وكركوك وماردين. وكان مسئول كبيرا، مثل الوزير الأعظم للسلطان، يخدم الباشا كمساعده ويعرف بالكهية. وكان الديوان الذي ينصح الباشا، يتكون من مسئولين إداريين آخرين مثل رئيس جباية الضرائب (الدفتر دار) وصاحب البلاط (رئيس التشريفات للبلاط) وباب العرب (وهو مسئول عن شؤون القبائل)(٢).

وكان عدد من الوحدات المختلفة تتولى الشؤون العسكرية في الأقاليم. وتكون الحرس الشخصي للباشا من العبيد الجورجيين [من القفقاس]. وقدمت فصائل المماليك القوات العاملة المستخدمة في الحملات الإقليمية ضد الأمراء الصغار والقبائل العربية المتمردة. وكانت

(*) (المقدم).

(١) لونكريك: أربعة قرون، ص١٦٣-٢٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٠-٢٥١.

فصائل المماليك تدعم بمرتزقة من قبيلة عقيل حاربوا في معارك عديدة ضد رجال القبائل المنشقة[١]. وفضلا عن قبيلة عقيل، كثيرا ما تم تجنيد قوات إضافية من بين القبائل الرحل وشبه المستقرة الصديقة[٢].

وحتى في إطار ولاية بغداد شبه المستقلة، سيطر العديد من الأمراء على مناطق صغيرة في استقلال عن الحكم المملوكي. ففي الموصل، على سبيل المثال، تولت عائلة الجليلي مركز الباشا لما يزيد عن قرن. وعلى الرغم من أن سيطرتهم أحيانا كانت تمتد فقط إلى ما وراء بوابات المدينة، كان الجليليون أقوياء لدرجة استعصى معها علي باشا بغداد أن يخضعهم[٣] وشبيه ذلك، أنه وحول البصرة، في جنوب العراق كانت قبيلة المنتفك القوية التي حكمتها عائلة السعدون، تمثل قوة مستقلة. وطوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كثيرا ما كانت القبيلة تتحدى سيطرة الحكومة[٤]. وإلى الشمال والشمال الشرقي من بغداد حكم قادة القبائل الكردية ولايات صغيرة.

وكانت عائلة آل بابان تمثل أهم الأسر الكردية الحاكمة في العراق. وقد سيطر هؤلاء الأمراء الصغار، الذين يمكن نتبع أصولهم إلى القرن السابع عشر، على المناطق الجبلية التي تحيط بعاصمتهم السليمانية. وكانت مساحة المنطقة التي تحت نفوذ بابان، تتغير تبعا لقوة الحاكم وفي فترات

(١) خلال القرن الثامن عشر أقامت قبيلة عقيل خارج بوابات بغداد وبدأت في تنظيم قوافل التجارة. وفي النهاية انتقلت القبيلة إلى داخل المدينة وخدمت باشوات المماليك الأخيرين كقوات مرتزقة.

(٢) لونكريك: أربعة قرون، ص٢٥١.

(٣) سليمان صائغ: تاريخ الموصل (القاهرة ١٩٢٣م)، ص٣٠٢-٣٠٩.

(٤) لونكريك: أربعة قرون، أنظر الفهرست تحت منتفك [Muntafiq]

مختلفة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، امتد نفوذ آل بابان شرقا بامتداد نهر الزاب الصغير إلى نهر ديالى. وقد تردد باشوات بغداد الذين كانوا دائما حذرين إلى حد ما من البابانيين في علاقاتهم مع جيرانهم. وعند منعطفات مهمة عديدة في تاريخ العراق خلال القرن الثامن عشر، أنقذت قوات بابان مدينة بغداد من الدمار. وعلى الرغم من أن المماليك أحيانا تصرفوا بخشونة تجاه اليابانيين إلا انه مع ذلك كان لديهم سبب مقنع كي يعاملوا هؤلاء المحاربين الأكراد باحترام لائق[1].

وحكمت عائلة باهدينان ولاية كردية أخرى تقع شمال شرق الموصل. وقد سيطر الباهدينانيون، من عاصمتهم في العمادية، على منطقة تمتد من نهر الزاب الأكبر في الشرق إلى دهوك وأحيانا زاخو في الغرب. وامتد نفوذهم إلى الولايات الكردية المجاورة وهي بوتان وهوكاري في الشمال وسوران في الجنوب. وفيما بين الأعوام ١٧٢٦ و ١٧٦٧م كان للبهدينانيون نفوذ قوى أثناء حكم بهرام باشا. وخلال الحقب التالية أضعفت المنافسات بين أبناء الأسرة الحاكمة من قوة هذه الولاية التي تم ضمها في النهاية إلى سنجق الموصل في عام ١٨٣٨ م[2].

ومثل العرب البدو في بادية الشام والجزيرة عاملا أخر في ميزان القوى دائم التغير في ولاية بغداد. وكان البدو ينقصهم عسكريا قوة النيران

---

(١) ستيفن هـ. لونكريك: «بابان»، في دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، ص٨٤٥. ف مينورسكي: «الكردي»، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني، ص١١٤٧.

(٢) ستيفن هـ. لونكريك: « باهدينان»، دائرة المعارف الإسلامية ٢، المجلد الثاني، ص٩٢٠.

المركزة لقوات المماليك التي كانت مزودة بالمدافع. ومع ذلك فكثيرا ما هزم رجال قبائل البدو قوات الحكومة المسلحة تسليحا أفضل بتكتيكاتها المتفوقة وقدرتها على سرعة الانتقال وروح التضامن فيما بينها. وفي عام ١٨٠٠م كانت القبائل العربية القوية ضمن إطار ولاية بغداد هي المنتفك في الجنوب، الخزاعل في وسط العراق، وعنزة في غرب الفرات، وعبيد التي سيطرت على معظم الجزيرة. وكانت هذه القبائل وأخرى أقل قوة منها دائمة التهديد للسلام والأمن[١].

وكانت القبائل العربية، إضافة إلى قتالها مع القوات الحكومية، تسبب الفوضى في الإقليم بعدة طرق أخرى. فكانت طرق المواصلات الداخلية، مثل طرق قوافل التجارة في البادية، والطرق والأنهار صيدا سهلا لجماعات البدو المغيرة. وغالبا ما كانت قبائل البدو تعطل طرق التجارة الطويلة لعدة شهور وذلك بهجومها المستمر وسرقتها للقوافل التجارية وكان نهب وحرق القرى الزراعية والحقول المحيطة بها من بين التكتيكات الأخرى المفضلة عند البدو. وطوال القرن التاسع عشر كانت التقارير تتحدث عن حالة الفوضى والخراب في الريف العراقي[٢].

ومن أجل إيجاد مظهر للأمن في العراق، كان على باشا بغداد أن يصل إلى تسوية مع البدو المتمردين. وغالبا ما حاول الباشوات، كما سيتم شرح ذلك بإسهاب اكبر فيما يلي، السيطرة على القبائل العربية بتقديم امتيازات لقبائل معينة، مسببين بذلك الخلافات بين القبائل والاعتراف بزعيم

---

(١) العزاوي: عشائر العراق، المجلد الأول، ص١٢٠-١٢٥.

(٢) مكي الجميل: البداوة والبدو، (١٩٦٢م)، ص٤٠-٤١.

منافس داخل قبيلة ما. ويبدو أن قوات المماليك كانت ترسل ضد القبائل المتمردة، فقط في حالة فشل كل سبل السيطرة الأخرى ونتج هذا التردد في استخدام القوات الحكومية عن حقيقة أنها كثيرا ما فشلت في إخضاع قبائل البدو الأكثر قوة.

الفصل الأول

وصول شمر جربا إلى الجزيرة

ظاهرة الغزو البدوي:

في مختلف عصور التاريخ كانت الصحراء العربية ترسل أمواجا من رجال القبائل الذين هاجروا إلى البلاد المحيطة بهم. وبعد وصولهم كان هؤلاء البدو يغيرون من التوازن السياسي والاجتماعي والاقتصادي في أوطانهم الجديدة. وأثرت هذه الهجرات، التي حدثت على فترات متفاوتة، تأثيرا قويا بشكل خاص على تاريخ بلاد الرافدين. فقد انطلق الانفجار البدوي الأول من الجزيرة العربية أثناء الألف الثالث قبل الميلاد نحو الحضارة السومرية[1]. وعند وفاة النبي محمد (ﷺ) مؤسس الإسلام في عام ٦٣٢ م ميلادية، حدثت هجرة أخرى مهمة أخذت شكل الفتوحات الإسلامية[*] في القرن السابع الميلادي[2]. ومنذ ذلك الوقت حدثت هجرات بدوية أخرى، ولكن لم يكن لها نتائج كبيرة مثل الهجرات السابقة.

---

(١) حتي: تاريخ العرب، ص١١ ؛ ديفيد أوتسي: دراسات في التاريخ القديم لشمال العراق، (لندن ١٩٦٨م)، ص١-١٨.

(*) ترد في النص الغزوات الإسلامية (المقدم).

(٢) فرانسسكو غابريلي: محمد وغزوة الإسلام، ترجمتاه عن الإيطالية فيرجينية لالنك وروزامند لينل (نيويورك ١٩٦٨م)، ص١١٨-١٨٨. حتي: تاريخ العرب، ص١٤٣-١٤٦.

فبدلا من تغيير حضارات عظيمة أو نشر دين جديد، أحلت فقط مجموعة من الرعاة الصرف محل مجموعة من الرعاة نصف المستوطنين.

وبشكل أكثر تحديدا، استمرت القبائل البدوية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر في الهجرة من شمال الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين[١]. وبسبب ثقافتها البدوية ظلت هذه القبائل عموما في أقاليم بلاد الرافدين الصحراوية أثناء حركتها تجاه الشمال. وأدى بها مسار سفرها في البداية إلى بادية الشام. ومع مرور الزمن بقيت القبائل أما في بادية الشام غرب نهر الفرات، أو عبرت النهر واتجهت شرقا إلى المنطقة المعروفة بالجزيرة. وقد ظل عدد كبير من القبائل التي اتجهت من الجزيرة العربية في اتجاه الشمال، في البادية السورية. ويقع تاريخ هذه القبائل خارج إطار هذه الدراسة. وستعطى الأفضلية في العمل الراهن لدراسة تاريخ قبيلة شمر جربا التي عبرت نهر الفرات وجعلت من الجزيرة موطنا جديدا بها[٢].

وقد قدم المؤرخون، خلال القرن الأخير، تفسيرات عديدة لأسباب حدوث هذه الهجرات المختلفة وطبقا لبعض الدارسين، فان زيادة السكان الدورية في شبه الجزيرة العربية سبب الهجرات. وترى جماعة أخرى أن التغيرات المناخية، مثل الفترات الطويلة من الجفاف أو من الطقس شديد الحرارة ربما تكون قد أجبرت البدو للبحث عن مراع أكثر خصوبة خارج الجزيرة العربية. وفي حالة الغزوات الإسلامية فان الحماس الديني يفسر جزئيا حركة البدو[٣]. ومع ذلك يوجد تفسير أخر لهجرة البدو وذلك من

(١) حوراني: رؤية تاريخية، ص٤٠-٤٢.

(٢) بالنسبة لأخر الهجرات، انظر بلنت: قبائل البدو، ص ٣٧٢-٣٧٤.

(٣) غابريلي: غزوات الإسلام، ص١٠٣-١١٦ و ص٢٤٥-٢٤٨.

مثال الحركة الوهابية في نهاية القرن الثامن عشر فقد فرضت هذه الحركة الدينية السياسية القوية والمتحدة على القبائل الأضعف أما ان تخضع لها او تبحث لها عن ملجأ في أراضي أخرى. وهكذا فان عدد من العوامل المؤثرة أدت إلى الهجرة[1].

هجرة شمر: المرحلة الأولى:

١٦٩٠-١٧٦٠م

بدأت الهجرة الأخيرة للبدو العرب على نطاق واسع إلى بادية الشام والجزيرة في أواخر القرن السابع عشر ويمكن التمييز بين مرحلتين لهذه الهجرة[2]. بدأت المرحلة الأولى في النصف الثاني من القرن السابع عشر عندما اتجهت قبائل شمر وعنزة من نجد إلى الشمال بحثا عن مراع أفضل. وتحركت القبائل في مجموعات صغيرة ووصلت في النهاية إلى الشاطئ الجنوبي لنهر الفرات حيث ظلت هناك فترة من السنة وبسبب أعدادها الصغيرة فإنها لم تسبب إلا القليل نسبيا من النزاع بين القبائل الأكبر المستوطنة في المنطقة. ومع ذلك ففي عام ١٦٩٦ م عبرت شمر نهر الفرات عند الفلوجة، وشنت غارات عديدة في منطقة ولاية بغداد[3].

وردا على غارات شمر الأولى في هذا الإقليم، أرسل باشا بغداد قواتا ضد القبيلة مما اضطرها إلى العودة عبر النهر. وخلال نصف القرن التالي،

---

(١) من أجل وصف عام للحركة الوهابية في القرن الثامن عشر انظر ج. ب. فيلبي: الجزيرة العربية، (لندن ١٩٣٠م)، ص٨-١٠٢.

(٢) إ. كراف: «عنزة»، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول (لندن ١٩٦٠م)، ص٤٨٢-٤٨٣.

(٣) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٣٣.

استمرت شمر في الإغارة على شمال الفرات وكانت قوية صعبة المراس خاصة عندما غزا نادر شاه العراق في عام ١٧٣٣م [١]. وحتى في ظل الحكم القوي لسليمان أبو ليلى، الباشا المملوكي الشهير (١٧٤٩-١٧٦٢ م)، وصل المغيرون من شمر إلى الشمال حتى بغداد [٢].

وقد شاهد الرحالة الدانيماركي ألشهير كرستين نيبور، أثناء سفره على طول الفرات في عام ١٧٦٥م، كثيرين من شمر بين هيت وكربلاء في وسط العراق. وفي ذلك الوقت كانت القبيلة تعرف بـ « شمر العراقية» وضمت عشائر الزكاريط واسلم. وكان لهذه المرحلة الأولى من هجرة شمر تأثير قليل نسبيا على الثقافة المتوطنة في جنوب العراق [٣].

الغزو الشمري: المرحلة الثانية

١٧٩٠-١٨٤٠م

في نهاية القرن الثامن عشر، كان أغلب اتحاد شمر القوى-الذي تكون من عشائر مثل عبدة واسلم وسنجارة والتومان، لا يزال يقيم في إقليم نجد شمال الجزيرة العربية. وبدأت مرحلة ثانية من هجرة شمر في حوالي عام ١٧٩٠ م عندما تعرضت القبيلة لضغط عسكري متزايد من الحركة الوهابية [٤]. والمناقشة التفصيلية التالية لنشاطات الوهابيين في

---

(١) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد الخامس، ص٢٤٤-٢٤٥، وعن نشاطات شمر الأخرى في العراق، أنظر ص١٦٩-١٧٠، (١٧٠٦م)، و ص١٧٧ (١٧٠٨م)، و ص٢١٥-٢١٦ (١٧٢٥م).

(٢) لونكريك: أربعة قرون، ص١٧٢.

(٣) كارستن نيبور: وصف الجزيرة العربية، (كوبنهاكن ١٧٧٢م)، ص٣٩٢.

(٤) مونتي: قصص شعرية بدوية، مجلة الدراسات الشرقية، المجلد الخامس (١٩٣٥م)، ص٤١.

جنوب العراق وشمال الجزيرة العربية خلال التسعينات من القرن الثامن عشر أظهرت بوضوح الظروف التي اضطرت شمر جربا للهجرة إلى العراق.

يرجع أصل الحركة الوهابية إلى الخمسينات من القرن الثامن عشر عندما بدأ محمد بن عبد الوهاب الدعوة إلى معتقدات إصلاحية إسلامية. وكان محمد بن عبد الوهاب قد التزم بالمذهب الحنبلي الذي يعد (مدرسة من مدارس الفقه) كما فسره ابن تيمية، ويعتبر كل إصلاح ادخل بعد القرن الثالث الهجري بدعة[١].

وفي دعوتهم إلى توحيد صارم، هاجم الوهابيون الاحترام وتقديس الأولياء الزائد من قبل فرق الصوفية. ونتيجة لأفكاره الرادبكالية، اضطر ابن عبد الوهاب إلى الهرب من موطنه ولجأ إلى مدينة الدرعية في حماية زعيمها محمد بن سعود. وبينما كان في الدرعية، جمع محمد بن عبد الوهاب بين حماسه الديني والقوة العسكرية السعودية وخلق قوة توسعية سيطرت على معظم شبه الجزيرة العربية[٢].

وبعد وفاة محمد بن عبد الوهاب في عام ١٧٩٢ م، هزمت قوات الوهابيين التي تحركت شمالا نحو بلاد الرافدين قبيلة بني خالد في الأحساء. وأيضا وصلت مجموعات الوهابيين المغيرة إلى ديار المنتفك على امتداد الفرات في جنوب العراق في عام ١٧٩٠ م. وقد تزايد تهديد هذه

---

(١) ر. بيلي ويندر: السعودية العربية في القرن التاسع عشر، (نيويورك ١٩٦٥م)، ص٨-١٥.

(٢) مارغوليوت: «الوهابية»، في دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الرابع، ص١٠٨٦-١٠٨٧.

الغارات الصغيرة الأولى بالنسبة لقبائل نجد وجنوب بلاد الرافدين [١]. وخلال الثمانينات من القرن الثامن عشر، كثيرا ما انضمت شمر إلى بني خالد والمنتفك وشريف مكة في الهجوم على عدوهم المشترك [٢]. ومع ذلك، ففي عام ١٧٩١م فرض ابن سعود الجزية على شمر من خلال معركتين حاسمتين بالقرب من آبار عدوة (تقريبا ٧٠ ميل إلى الجنوب الشرقي من حائل) [٣].

في معركة أولية، فاجأت قوات ابن سعود شمر بينما كانت تعسكر قرب أبار عدوة وعلى الرغم من الدفاع الشجاع، إلا أن شمر انكسرت واضطرت للانسحاب نحو الصحراء بعد أن فقدت قائدها حصان إبليس [*]. ومع انتشار خبر هذا الانتصار الوهابي، قررت القبائل المجاورة أن تنتقم لهزيمة شمر القاسية. وفي نفس العام اشتبكت فرقة بدوية كبيرة، ضمت عدداً أكبر من مقاتلي شمر، مع الوهابيين مرة أخرى وأنزلت بها هزيمة ثانية [٤]. وأدت وفاة مسلط بن مطلق الجربا في هذه المعركة إلى هجرة أبيه المنكوب مطلق بن محمد الجربا مع شمر التي كانت معه إلى أماكن أكثر أمنا في جنوب بلاد الرافدين. وهكذا بدأ تاريخ شمر الجربا في بلاد الرافدين في عام ١٧٩١م [٥].

---

(١) صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية، المجلد الأول (بيروت ١٩٥٧م)، ص٥٢-٥٤.

(٢) فون اوبنهايم، البدو، المجلد الأول، ص١٣٤.

(٣) حسين بن غنام: تاريخ نجد، (مصر ١٩٦١م)، ص١٧١-١٧٩.

(*) حصان إبليس من فرسان مطير وليس من فرسان شمر أو من قادتها (المقدم).

(٤) نفس المصدر.

(٥) فون اوبنهايم، المجلد الأول، ص١٣٤.

وكثرت أعمال السلب الوهابي في جنوب بلاد الرافدين بعد عام ١٧٩٢ م. وبدا من عام ١٧٩٥ م، أخذ الباب العالي يحث باشا بغداد على ان يقوم بعمل ضد المحاربين المتحمسين من الجزيرة العربية. ومع ذلك فقد تجاهل الباشا العجوز هذه النداءات الإمبراطورية ولبى ثويني الأمر مكانه، وقام الشيخ ثويني، الزعيم الأكبر لقبيلة المنتفك القوية، بتنظيم القوات والمؤن من أجل الهجوم على الوهابيين في ربيع عام ١٧٩٧ م. وغادر الشيخ ثويني قاعدته في الجهرا متجهاً إلى الأحساء، وكان في رفقته مرتزقة من عقيل وقوات من الكويت والبحرين ومضى في تقدمه حتى أصبح يهدد بشكل خطير سيطرة الوهابين على الأحساء وهي جزء من إمبراطوريتهم، ولكن الحملة انتهت بشكل غير متوقع في ليلة الأول من تموز ١٧٩٧ م عند الشباك حينما اغتال عبد اسود(*) الشيخ ثويني، وفي حالة من الهلع اختفى الجيش الكبير بسرعة و بدأت كل فرقة تبحث عن خلاصها(١).

ومرة أخرى اندلع القتال بين شمر جربا والوهابيين في ربيع ١٧٩٨م، عندما عادت قوات ابن سعود إلى سلب ونهب وادي نهر الفرات شمال سوق الشيوخ. وفي أعقاب حملة المنتفك التي أجهضت، اشتبك ابن سعود مع عدة قبائل بدوية، من ضمنها شمر، قرب السماوة وقد قتل الشيخ مطلق

(*) المسمى (طعيس) وهو من عبيد بني خالد، وكان مرسلا من قبل الوهابيين (المقدم).

(١) لونكريك: أربعة قرون، ص٢١٣-٢١٥.

ابن محمد الجربا في هذه المعركة الحامية(*) وخلفه أخوه الأصغر فارس كزعيم شمر الأكبر (١).

وخلال الأعوام الثلاثة التالية انضمت القبيلة إلى حملات حكومية عديدة ضد الوهابيين وغادرت أكبر هذه الحملات بغداد تحت قيادة الكهية علي باشا في صيف عام ١٧٩٨ م. ووصل الجيش الذي ضم خمسة آلاف من الانكشارية وفرقاً من قبائل عقيل وعبيد وشمر، إلى البصرة في كانون الأول. وفي البصرة وصل عدد القوات العربية الإضافية إلى ما يزيد عن عشرة آلاف وذلك بانضمام محاربين من قبائل الضفير والمنتفك وبني خالد. وغادر على باشا الزبير في حملة بلا نتائج استمرت سنة وأدت إلى ما يزيد قليلا عن هدنة ضعيفة بين المجموعات المتحاربة(٢). وبعد أقل من سنة استؤنف القتال عندما تقابلت قوات قبائلية تحت قيادة محمد اشلوي وفارس الجربا مع الوهابيين في معركة غير حاسمة قرب كربلاء(٣)(*).

(*) غدرا على يد أحد فرسان السهول (خزيم بن لحيان) بعد أن كان الشيخ مطلق قد أسقطه أرضا فأستنجد به خزيم فكبا الشيخ مطلق ليحمله فطعنه خزيم بخنجر كان معه وقتله (المقدم).

(١) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد السادس، ص١٢٥-١٢٦.

(٢) لونكريك: أربعة قرون، ص٢١٥-٢١٦.

(٣) رسول الكوكوكلي: دوحة لوزراء، ترجمة من التركية موسى كاظم نورس (بيروت ١٩٦٣م)، ص٢١٤.

(*) كانت الغلبة فيها لشمر (المقدم).

شمر جربا في الجزيرة:

١٨٠٠-١٨١٨م

لجأت شمر جربا، بعد أن أجلاها الوهابيون من موطنهم في نجد، تحت قيادة الشيخ فارس إلى ولاية بغداد. وبعد أن وجدت القبيلة ملجأ مؤقتا في جنوب العراق، عبرت في النهاية نهر الفرات وهاجرت إلى الشمال في اتجاه جبل سنجار الذي يبدو أنها وصلته في شتاء الأعوام ١٨٠٢-١٨٠٣م[1]. وقد اكتشفت شمر بلا شك أن ولاية بغداد تختلف كثيرا عن موطنها الصحراوي السابق في شمال الجزيرة العربية. فبعد أن تخلت شمر عن موقعها كقوة بارزة في نجد، وجدت أن ولاية بغداد يحتلها عدد من القبائل الرئيسية. وللمرة الأولى أيضا بدأت القبيلة العيش في ظل حكومة مركزية قادرة على ممارسة سيطرة إدارية وعسكرية قوية. وهكذا انهمك فارس الجربا خلال السنوات الثمانية عشر لزعامته بتحقيق مهمة ثلاثية للحصول على ديرة للقبيلة، وإعادة تأسيس سيطرة شمر بين قبائل البدو الأخرى، والعيش في ظل حكومة مركزية مملوكية.

اعتمدت مصائر شمر من عام ١٨٠٠ إلى ١٨١٨م بشكل كبير على مساعدة الباشوات المماليك، لأنه كان ينقصها قوة وهيبة القبائل القوية مثل المنتفك والخزاعل وعبيد وبعد أن ترك الشيخ فارس، وعن جداره، انطباعا قويا عند سليمان باشا بسبب معرفته المباشرة بشؤون الوهابيين ودفاع قبيلته الشجاع عن جنوب العراق، تمتع بنفوذ سياسي قوى عندما انحسر ضغط الوهابيين عن جنوب العراق في العام ١٨٠١م[2]. وعن هذه النقطة من

---

(١) المصدر السابق، ص٢٢٣-٢٢٥.

(٢) فون اوبنهايم، البدو، المجلد الأول، ص١٤٥.

التاريخ، يبدو أن شمر احتفظت عمليا بعلاقات متسامحة مع كل القبائل العراقية. وحاربت في مناسبات عديدة مع المنتفك وعبيد والخزاعل والضفير وزبيد ضد قوات ابن سعود[1].

بعد وفاة سليمان باشا الكبير في عام ١٨٠٢ م بعد حكم دام ٢٢ سنة ساد لاضطراب الشؤون الإقليمية مؤقتا بسبب صراع عنيف على خلافته. وخرج علي باشا، الذي كان كهية في ظل الباشا المتوفى، منتصرا في أعقاب صراع واسع بين عدد من المتنافسين على الولاية، وبدأ ولايته كحاكم لبغداد استمرت خمس سنوات[2]. وفي أواخر نفس العام، صحب فارس الجربا وقبيلة العبيد تحت قيادة محمد بك الشاوي الحاكم الجديد في حملة ناجحة ضد يزيدية جبل سنجار[3] وبينما كان الجيش المنتصر يعسكر في تلعفر في

(١) العزاوي، تاريخ العراق، المجلد السادس، ص١٢٥-١٢٨.

(٢) جون غوردن لوريمر: المعجم الجغرافي للخليج وعمان ووسط الجزيرة العربية، المجلد الأول، الجزء الأول بـ(لندن ١٩١٣م)، ص ١٢٩٨-١٢٩٩.

(٣) كان التفوق السياسي والعسكري لقبيلة عبيد في الجزيرة يرجع لحوالي مائة سنة. ففي بداية القرن السابع عشر، دعمت القبيلة من مركز قوتها بان فرضت سيطرتها على القبائل العربية الأصغر مثل الجبور وطي. وفيما بعد خدمت عائلة الشاوي، التي جاء منها شيوخ قبيلة العبيد، باشوات بغداد كجنود وكأصدقاء سياسيين حميمين. وكثيرا ما أدى هذا التداخل الشديد في شؤون الدولة بعائلة الشاوي وبرجال قبيلة العبيد إلى الجانب الخاسر في صراعات القصر على السلطة. فقد اضطهدت القبيلة بشدة مرتين خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر من قبل أعدائها السياسيين. وفي عام ١٨٠٠ م كان محمد بك الشاوي يشغل المنصب المهم (باب العرب) في ظل سليمان باشا. وجعل منه هذا المنصب في بلاط الباشا «مندوب شيوخ كل القبائل الموجودة بالولاية»: (لوريمر، المعجم الجغرافي، المجلد الأول، الجزء الأول ب، ص١٢٩٨). ومن أجل معلومات أخرى أنظر: فون اوبنهايم، البدو، المجلد الأول، ص١٨٩-١٩٥.

طريق عودته إلى بغداد، قبض علي باشا على الزعيم الأكبر لقبيلة عبيد، محمد بك الشاوي، وعلى أخيه الأصغر الحاج عبد العزيز بك، وأعدمهما في الحال[١]. وقد فسر احد المؤلفين هذا الحدث قائلا:

يرجع موت محمد بك، أعظم الرعايا العرب في الولاية، إلى الحسد والخوف وإلى ذكرى خيانة كان يشك فيها عندما تراسل مع العدو في حملة نجد عام ١٧٩٩م[٢].

وخوفا على حياته هرب جاسم بك، ابن محمد بك، مع رجال قبيلته العبيد في اتجاه نهر الخابور. وانضمت شمر إلى علي باشا في حملتين غير ناجحتين ضد المتمردين من عبيد عام ١٨٠٣م[٣]. وبعد سنتين، أي في العام ١٨٠٥ م، أنزلت قوة حكومية كبيرة، ضمت محاربين من شمر تحت قيادة فارس الجربا، هزيمة حاسمة بقبيلة عبيد عند التقاء نهرى الخابور والفرات[٤]. وبعد أن ضعفت عسكرياً وفقدت نفوذها السياسي السابق، عبرت قبيلة العبيد، التي كانت قوية في وقت ما، نهر دجلة واستقرت فيما بين نهر الزاب الصغير ونهر ديالى[٥].

وفي أعقاب انتهاء قوة قبيلة العبيد، لم تصبح شمر فقط القبيلة المهيمنة على الجزيرة بل وأيضا حصلت على درجة جديدة من النفوذ السياسي في

---

(١) الكركوكلي: دوحة، ص٢٢٣-٢٢٥.
(٢) لونكريك: أربعة قرون، ص٢٢٣.
(٣) الكركوكلي: دوحة، ص٢٢٤-٢٢٥.
(٤) المصدر السابق، ص٢٣٠.
(٥) فون أوبنهايم، البدو، المجلد الأول، ص١٨١-١٩١.

بغداد[١]. وساعد الشيخ فارس علي باشا عدة مرات في حملات إقليمية حتى اغتيال الأخير في آب من عام ١٨٠٧م[٢].

وفي ربيع عام ١٨٠٨م خلف سليمان باشا، المعروف بكوجك (أي الصغير)، عمه المتوفى كحاكم لبغداد. وبالرغم من دهائه وذكائه وشجاعته الكافية إلا أن سليمان كوجك، في سن الثانية والعشرين، كانت تنقصه الخبرة العملية وبالتالي سمح لفارس الجربا أن يكون له السطوة في شؤون الحكومة[٣].

وفي عام ١٨٠٩ م، اقنع شيخ شمر الباشا الصغير بالشروع في حملة عسكرية باهظة التكاليف تضمن لشمر السيطرة على الجزيرة العليا من جبل سنجار إلى نهر البليخ. وأثناء محاولة شمر توسيع سيطرتها في اتجاه الغرب إلى ما وراء نهر الخابور، قوبلت بتحد قوي من قبائل الضفير والدريعي من (عنزة)[٤]. واقنع فارس سليمان باشا بالقيام بهجوم حكومي ضد ما زعم بأنها قبائل مغيرة[٥]. وفي آذار من عام ١٨٠٩ م غادر الباشا الشاب بغداد

---

(١) المصدر السابق، ص١٩١.

(٢) لوريمر، المعجم الجغرافي، المجلد الأول، الجزء الأول، ص١٣٠٠.

(٣) لونكريك: أربعة قرون، ص٢٢٤-٢٢٥.

(٤) اضطرت ضغوط الوهابيين أقسام عديدة من قبيلة عنزة القوية بالهجرة من نجد في اتجاه بادية الشام في نهاية القرن الثامن عشر. وعند وصولها إلى البادية الشامية، حلت عنزة بسرعة محل الموالي كقبيلة البدو الرئيسية. ومنذ ذلك الوقت سكنت أقسام الفدعان والسبعة والعمارات في البادية الشامية، حيث استمرت في منافستها التقليدية مع شمر. عن عنزة أنظر كراف: «عنزة»، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، ص٤٨٢-٤٨٣.

(٥) الكركوكلي: دوحة، ص٢٤٥.

على رأس جيش كبير، وانضمت إليه قوات من أربيل ومندلي وتكريت، والتحق به أيضا محاربون عرب من قبائل بني حمدان وطي. وسار سليمان باشا من تكريت في اتجاه جبل سنجار عن طريق الحضر. وبعد أن اخضع القرى اليزيدية المتمردة حول جبل سنجار، استأنف الجيش مسيره نحو الضفير المثيرة للفتن قرب نهر خابور[١].

وعندما علمت الضفير بان القوات الحكومية تسير في اتجاهها فرت على الفور ولجأت إلى ما وراء نهر البليخ، بعيدا إلى الغرب. وعند هذا، أرسل سليمان باشا شمر والأكراد المليين مع فرقة من القوات التركية لمطاردة البدو، بينما تقدم الجيش الرئيسي نحو رأس العين. وفي النهاية هزمت قوات شمر هزيمة حاسمة بالقرب من نهر البليخ من قبل قوة متحدة من بدو الضفير وولا والدريعي[٢]. و برغم من هذه الهزيمة احتفظ الشيخ فارس الجربا بنفوذه السياسي في بغداد حتى العام ١٨١٣م[٣].

في تلك السنة وجد عبد الله باشا، الذي حل محل سليمان باشا كوجك، كحاكم لبغداد في العام ١٨١٠ م، أن مكانته مهددة من قبل سعيد باشا، ابن سليمان الكبير (حاكم بغداد من ١٧٨٠ إلى ١٨٠٢م)، والبالغ من العمر تسعة عشر سنة. وقد بدأ التهديد عندما ترك سعيد باشا بغداد وانضم إلى قبيلة المنتفك بقيادة حمود الثامر. فغادر عبد الله باشا بغداد مستصحبا معه جيشا كبيرا لإخضاع منافسه المدعوم من قبل المنتفك،

---

(١) العزاوي، تاريخ العراق، المجلد السادس، ص١٨٩-١٩٠.

(٢) المصدر السابق، ص١٩٠.

(٣) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٤٦.

ولكن الباشا وجد نفسه عمليا وحيدا بعد وقوع حالة فرار عام بين قواته وانضمامها إلى جانب المنتفك. وبعد ذلك بقليل قتل عبد الله باشا مع جماعته بعد أن قبل عرضا بالأمان من الشيخ حمود الثامر[١].

وفي ١٦ آذار من عام ١٨١٣ م، دخل سعيد باشا بغداد، وفي صحبته حمود الثامر، كي يتسلم منصب الحاكم. وخلال حكمه الذي دام أربع سنوات، كان داوود أفندي، الذي جمع في البداية بين وظيفتي الكهية والدفتردار (المسؤول عن جباية الضرائب)، يوجه الحاكم الشاب ببراعة[٢]. وقد نشأ عن بروز قبيلة المنتفك تحت قيادة الشيخ حمود الثامر، كقبيلة مهيمنة على الشؤون الإقليمية، تعديل رئيس في سياسة المماليك بالنسبة للتحالفات القبلية. وبدأ هذا التغير واضحا عندما وجدت قبيلة شمر والخزاعل، وكان لهما علاقات ودية مع علي باشا وسليمان باشا وعبد الله باشا، من عام ١٨٠٢ إلى عام ١٨١٢م أنهما قد أصبحا مغضوبا عليهما[٣].

وازداد التوتر بين الحكومة وشمر في العام ١٨١٣ م عندما رفض سعيد باشا أن يمنح فارس الاحترام والامتيازات التي كان عادة يتمتع بها. وفي مواجهة رفض الحكومة لهذا الأمر، شنت شمر غارات ضد مدن عراقية عدة في ربيع عام ١٨١٤م[٤]. وفي العام التالي، تدهورت العلاقات الحكومية-القبلية إلى حد كبير حتى أن القبائل الكبيرة في غرب العراق الخزاعل وزبيد وشمر شكلت اتحادا ضد سعيد باشا[٥].

---

(١) لونكريك: أربعة قرون، ص٢٣٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الكركوكلي: دوحة، ص٢٦٣.

(٤) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد السادس، ص٢٢٧.

(٥) المصدر السابق، ص٢٦٨-٢٦٩.

وفي سلسلة من الغارات حاصرت شمر والخزاعل الحلة ونهبت مدنا أخرى على امتداد الفرات. ومع وضوح خط المعركة استنجد سعيد باشا إلى دعم حمود الثامر وأتباعه من المنتفك لقمع التمرد الواسع. فاستدعى حمود الثامر قبائل الضفير والدريعي والعبيد ضد أعدائهم المكروهين شمر. وانطلق، يسانده الجيش المملوكي ومحاربوه من المنتفك، لإعادة النظام في وسط العراق[١].

نزلت بشمر الجربا خسارة كبيرة عندما قتل الشيخ بنية بن قرينيص وهو ابن اخو فارس الجربا، أثناء هذه الحملة. وقد اكتشفت قبيلة الدريعي أن شمر كانت تعسكر في ديار الخزاعل على الضفة الغربية لنهر الفرات. ولمعرفتها بأنه من الممكن عزل بنية عن الأقسام الأخرى من القبيلة، استفاد الدريعي مباشرة من إمكانية حدوث ذلك وطلب مساندة عسكرية إضافية من الشيخ حمود الثامر. وانضم إلى الدريعي فرقة كبيرة من المرتزقة من العبيد وعقيل في الهجوم على أتباع الشيخ بنبة المعزولين. وعلى الرغم من دفاعهم الشجاع خاض الشمريون معركة خاسرة ضد أعدائهم الأكبر عددا، وبعد قتلهم للشيخ بنية، أرسل البدو المنتصرون برأسه إلى سعيد باشا في بغداد كرمز لانتصارهم على شمر[٢][*].

---

(١) المصدر السابق، ص٢٢٧.

(٢) اميد بن حسن الحلواني المدني: مطالع السعود، (بومباى ١٨٨٥م)، ص١٢٢-١٢٣.

(*) قتل الشيخ بنية (الأشمل) من خلال شرك نصب له فوقع فيه مع فرسه وقتل، وعادت الفرس إلى ديار شمر دون فارسها (المقدم).

لقد ضعفت شمر بالفعل بعد أن غضبت عليها الحكومة في العام ١٨١٣ م وبموت الشيخ بنية في عام١٨١٥ م، وكذلك تلقت ضربة قاسية أخرى عندما توفي الشيخ فارس الجربا في العام ١٨١٨ م. ونتيجة لهذه المآسي الثلاثة لعبت شمر التي كانت يوما قوية دوراً ثانوياً في الشؤون القبلية والسياسية خلال السنوات الأربع التالية[1].

تأثير الغزو الشمري على الجزيرة:

على الرغم من أهميتها بالنسبة لتاريخ الإقليم إلا أن الجوانب السياسية والعسكرية للغزو الشمري، الذي تم بالفعل تحليلها بتفصيل كبير، تمثل جانبا واحدا فقط من تأثير القبيلة على الجزيرة. كانت الجزيرة لفترة طويلة منطقة لجوء ثقافية للعرب والأكراد واليزيدية والأتراك ومجاميع صغيرة أخرى، وبعد غزو شمر لها مرت الجزيرة بعملية جوهرية نسبيا لإعادة تنظيمها اجتماعيا. وقد غيرت هذه الهجرة بشكل كبير من الوضع القبلي فيها. وكان إجلاء شمر لقبيلة العبيد من الجزيرة أوضح مثال على هذا التغيير. ولأن ديرتهم كانت تمتد إلى الشمال أكثر من ديرة قبيلة العبيد، فقد أجبرت شمر قبيلتين عربيتين شبه رعوية إلى الرحيل عن موطنهما التقليدي.

وكانت إحدى هاتين القبيلتين، وهي قبيلة طي، تعيش قرب الموصل إلى الغرب من دجلة لقرون حتى اضطرها مجيء شمر إلى أن تتجه شمالا نحو ماردين. وأيضا تركت قبيلة الجبور شبه المستوطنة ديرتها التقليدية عندما وصلت شمر إلى الجزيرة العليا. وتحرك قسم من الجبور شرقا في اتجاه

(١) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٤٦.

دجلة، ولجأ قسم أخر على امتداد نهر الخابور حيث يعيشون حاليا. وقد أثرت هجرة شمر أيضا وإلى حد ما على يزيدية جبل سنجار والأكراد المليين الرعويين الذين كانوا يعيشون في الشمال[١].

وكانت شمر، حديثة الوصول تختلف أيضا ثقافيا واجتماعيا عن قبائل العبيد وطي التي كانت تسكن متجاورة وسعت لثقافة متوطنة لعدة قرون نتيجة لاحتكاكهم بالمجتمع الحضري تغيرت ثقافتهم البدوية إلى حد كبير وجنبا إلى جنب مع هذه القبائل، خرجت شمر من إقليم نجد في الجزيرة العربية حيث عاشت حياة رعوية بسيطة. وتبين حادثتان معينتان الاختلاف بين ثقافة شمر وثقافة بدو الجزيرة القدامى.

كان الرداء الغريب لشمر حديثة الوصول موضع اهتمام خاص من قبل السكان المستوطنين بالإقليم وقد أثار مظهر الشيخ بنية، أثناء زيارته لحاكم الموصل، السكان المحليين حتى أن الباشا اضطر إلى توفير عدد من الجنود لحماية ضيفه[٢]. ويقدم المؤرخ المحلي، عبد السلام أفندي من مدينة ماردين، قصة مستقاة من مصدرها الأول عن نتائج هجرة شمر. فقد أوقعت غارات شمر، التي لم يكن بها أي تمييز الفوضى بأحوال الجزيرة السلمية نسبيا حتى أن عبد السلام افتدى وصف القبيلة بالطاعون الضار مثلها في ذلك مثل الجراد[٣].

---

(١) المصدر السابق، ص١٧٣ و ص١٨٣.

(٢) جون روس: «ملاحظات حول رحلتين من بغداد إلى خرائب الحضر في بلاد الرافدين»، ١٨٣٦-١٨٣٧ م، من مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد التاسع (١٨٣٩م)، ص ٤٤٥-٤٥٣.

(٣) فون أوبنهايم، البدو، المجلد الأول، ص١٣٦.

الفصل الثاني

هيمنة شمر على الجزيرة
فترة صفوق بن فارس
١٨١٨-١٨٤٧م

على الرغم من غياب قائد حقيقي لها واستمرار ترنحها تحت تأثير حملتين حكوميتين ناجحتين خلال العامين ١٨١٧ و ١٨١٨ م، سرعان ما صعدت شمر إلى مواقع جديدة من القوة والهيبة[1]. وجاء هذا المجد على يدي صفوق بن فارس، نجل فارس الجربا. وساعدت مظاهر الشجاعة والفصاحة مع ارتباطها بالبراعة في القتال الشيخ الشاب على شق طريقه إلى النجاح.

وعندما يتفحص المرء حياة صفوق التي امتدت إلى ثلاثة عقود كالزعيم الأكبر لشمر، تظهر أمامنا مرحلتان متميزتان في حياته. امتدت الفترة الأولى، وهي الأقصر، من ١٨١٨ إلى ١٨٣٠. وخلال هذه السنين الاثنى عشر تنافس صفوق مع داوود باشا من اجل السيطرة على الجزيرة. ومع عزل داوود في عام ١٨٣٠ م، دخل صفوق المرحلة الثانية من حياته.

---

(١) لونكريك: أربعة قرون، ص٢٤٠-٢٤١.

وخلال السبعة عشر عاما التالية، تفادى هجمات الحكام العثمانيين بنجاح. وسوف يظهر بوضوح كيفية سلوك هذين النظامين، احدهما مملوكي والأخر عثماني، في علاقاتهما مع صفوق وقبيلة شمر.

بروز داوود باشا ١٨١٧م:

تسلم داوود باشا منصب حاكم بغداد في عام١٨١٧ م وكان سنه خمسون عاماً[(١)]. وبعد فترة طويلة من حياته (كملا) رجل دين، وموظف رسمي في الدولة، حكم الباشا الجديد لمدة ثلاثة عشر سنة قبل ان يعزل بواسطة علي رضا باشا في عام١٨٣٠ م. وكما هو متوقع، عانى داوود باشا من المشاكل القبلية طوال فترة حكمه[(٢)]. وتستحق مشكلة التفوق العسكري للقبائل، خاصة البدو الرعاة مثل شمر جربا، على القوات الحكومية فحصاً دقيقاً بسبب الدور الرئيسي الذي لعبته في تاريخ العراق خلال القرن التاسع عشر. فقد كان حاكم بغداد، باعتباره الإداري الرئيسي للولاية، يتحمل مسؤولية الحفاظ على القانون والنظام في الريف. فالولاية الآمنة والتي تعيش في سلام كانت عموما تسمح للتجارة والزراعة بالازدهار. والاقتصاد القوى يولد عائدات ضريبية كبيرة. وبالعكس فعندما مزقت الغارات القبلية الريف العراقي وجعلت التجارة والزراعة صعبة، كان دخل الحكومة من الضرائب والرسوم يتدهور كثيرا.لذا خلق هذا الانخفاض في عائدات الحكومة صعوبة في دفع رواتب الجيش الإقليمي.

---

(١) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد السادس، ص٢٣٧-٢٣٩.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار: داوود باشا والي بغداد، (القاهرة ١٩٦٧م)، ص٩١-٩٨.

واجه داوود باشا تمرد القبائل بقوتين عسكريتين متمايزتين: الجنود الأتراك والقوات القبلية المجندة. وكان قلب القوات التركية يضم الحرس القفقاس لداود باشا الذي وصل عدده تقريبا إلى ١٧٠٠ رجل في العام ١٨٣٠م. وإضافة إلى حرسه الشخصي، كان تحت أمره الباشا أيضا ١٥٠٠ من المشاة و ٥٠٠ من المدفعية و ٥٠٠ من حملة البنادق. وكثيرا ما ساهمت قوة مساعدة من حوالي ٥٠٠٠ شخص من قبيلة عقيل في حملات الحكومة الكبيرة[(١)]. وساهمت فرق كردية أيضا في عمليات في الشمال[(٢)]. وذكر المؤرخ التركي ثابت أفندي في عام ١٨٣٠ م أن داوود باشا كان تحت أمرته قوة محاربة مكونة من ١٢.٥٠٠ رجل[(٣)].

ويظهر من الأرقام المجردة أنه كان للباشوات المماليك جيش قوى، ولكن عند التفحص الدقيق يجد المرء أن هذه الأرقام مخادعة إلى حد ما. وكانت القوات التركية النظامية ينقصها الانضباط والتدريب الجيد، وغالبا ما كان تسليحها رديئاً. وأيضا أثبتت القوات القبلية، مثل عقيل، فعالية متواضعة بسبب انشغالها بالحصول على الغنائم. وغالبا ما كانت هذه القوات المرتزقة تغير على نفس القرى والقبائل الأصغر التي كانت قد أرسلت لحمايتها[(٤)]. وباختصار كانت قوات المماليك العسكرية، رغم عددها الكبير، تنقصها غالباً العزيمة الكافية لهزيمة منافسيها من القبائل.

---

(١) كليمن هوار: تاريخ بغداد، (باريس ١٩٠١م)، ص٢٠٥.

(٢) جان روسو: وصف باشوية بغداد، (باريس ١٨٠٩م)، ص٢٩.

(٣) هيوار: بغداد، ص٢٠٥.

(٤) وزارة الخارجية ١٩٥/ ٣٣٤، بغداد، كميال إلى كاننغ، رقم ٥٠، ١٨/ ١٢/ ١٨٥٠م.

تفوق البدو العسكري

شكل المجتمع البدوي بوتقة لتشكيل المحاربين الشجعان. فقد أكسبت البسالة في القتال البدوي الشاب الشجاع مكانة عظيمة في قبيلته. فضلا عن القيم القبلية التي تركز على البراعة العسكرية، فقد أعدت حياة الصحراء البدوي للمعارك. ومنذ شبابهم تعلم الصبان البدويون وأتقنوا مهارات ركوب الخيل والجمال. وافتخر كل شاب بدوي بقدرته على ذلك وحاول التغلب على أصدقائه الشباب[١].

وقد وفرت الحياة البدوية أيضا فرصة ممتازة للمحارب الشاب ليكتسب مهارة مميزة في استعمال البندقية والرمح وأيضا السكين. وغالبا ما رافق الصبية آباءهم في الصيد وفي مجموعات الإغارة ومارسوا لعباً عديدة شحذت من قدرتهم على استعمال أسلحة مختلفة[٢] ومن أوائل القرن التاسع عشر ظل الرمح السلاح المفضل للمحارب البدوي[٣].

وعلى خلاف الجند المماليك الذين سكنوا بغداد فيما بين الحملات العسكرية، أنشغل المحاربون البدو بالنشاطات العسكرية طوال السنة على شكل غزوات ضد القبائل المجاورة. ورغم أن هذه الغارات كانت تتم بروح رياضية، إلا أنها وفرت فرصة عظيمة لشحذ المهارات الحربية. ففي الغزوة كان هناك الفرصة للمحارب كي يظهر براعته القتالية ويفوز بشرف

---

(١) فون اوبنهايم، البدو، المجلد الأول، ص٢٨-٢٩.

(٢) لويس موسيل: أساليب وعادات بدو رولة، (نيويورك ١٩٢٨م)، ص٢٥٦-٢٥٨.

(٣) المصدر السابق، ١٣٢-١٣٣؛ إسخاو: رحلة في سوريا وبلاد الرافدين (ليبزك ١٨٨٣م)، ص٣٠٦.

كبير لشجاعته. وقد استخدم البدو، إلى جانب قدرتهم القتالية المتفوقة، معرفتهم الممتازة لجغرافية الصحراء في مراوغة القوات الحكومية[1].

أساليب المماليك في السيطرة على البدو:

واجه باشوات المماليك ما يبدو، لدى الوهلة الأولى، بعدو بدوي متفوق عسكرياً. ورغم هذا، وعلى المدى الطويل، منعت البدو عناصر معينة من الاستفادة بشكل كامل من قوتهم العسكرية. فمثلا، كانت هجرتهم، التي استهلكت وقتهم، تقيد تقيدا شديدا عندما تنشغل القبيلة في غزوة على نطاق واسع[2]. وكان باستطاعة القوات الحكومية أن لا تهاجم قبيلة بدوية إلا في لحظة ضعفها وذلك بتحديد وقت الحملة بعناية[3].

علاوة على ذلك، فان طبيعة المجتمع البدوي استوجبت أسلوب حرب العصابات في المعارك. وبشكل خاص، كان من الصعب على قبيلة بدوية أن تقوم بحصار طويل ضد مدن مثل بغداد والموصل. وكان للسلطة المركزية ميزة أخرى حيث كان يتوجب على البدو شراء الحبوب لدعم غذائهم الهزيل، وبغلق أسواق الحبوب في الموصل وبغداد وتكريت والبصرة أمامهم، كان بإمكان الحكومة تجويع القبائل حتى يخضعون لها.

---

(١) هارولد ديكسن: عرب الصحراء، (لندن ١٩٤٩م)، ص٣١-٣٦٣.

(٢) العراق والخليج، سلسلة الكتاب الجغرافي، شعبة الاستخبارات البحرية، (لندن ١٩٣٩-١٩٤م)، ص٣٦١-٣٦٣.

(٣) وزارة الخارجية ١٩٥/ ٣٠١، الموصل، رسام إلى كولي، رقم ٣٣، ١٠/ ٧/ ١٨٤٧م.

واستمر هذا التكتيك كأحد الوسائل الرئيسية التي استخدمتها الحكومة ضد القبائل المتمردة حتى خلال القرن العشرين(١).

واستخدم الباشوات المماليك أيضا عدة أساليب أخري للسيطرة على القبائل. وحتى في تفوقها العسكري، كانت القبيلة البدوية تحارب بفعالية فقط عندما تكون متحدة. وكان أي شيء يمزق الوحدة القبلية يضعف كثيرا من قوة القبيلة البدوية. وكثيرا ما كان الباشوات المماليك والعثمانيون يؤسسون سياستهم القبلية على مفهوم تحطيم الوحدة القبلية وغالبا ما كانت الحكومة تساند زعيم قبلي منافس من اجل إضعاف قبيلة قوية. وعلى العكس، عندما كان زعيم يفقد دعم الحكومة له سرعان ما كانت فعاليته تتدهور. وكان الحكام المماليك والعثمانيون كثيرا ما يلجؤن إلى سحب دعم الحكومة من زعيم قوى لإضعاف القبائل القوية(٢).

وكثيرا ما أثارت الحكومة المركزية أيضا القلاقل بين المتنافسين التقليديين. وهكذا، كان باشوات بغداد غالبا ما يتآمرون مع عنزة ويحثونها على الهجوم على شمر المثيرة للمتاعب.

علاوة على ذلك، كانت القبائل القوية تستخدم أحيانا في تحطيم تحالف من القبائل الضعيفة. وأخيرا كان الباشوات يحتفظون بالولاء القبلي لهم بمنح زعماء القبائل الأقوياء الدعم الرسمي والألقاب الشرفية. وقد

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥/ ٣٣٤، بغداد، كمبال إلى كانتغ، رقم ٥٠، ١٨/ ١٢/ ١٨٥٠ مك.

(٢) بلنت، قبائل البدو، ص٤١٩.

نجحت كل هذه المناورات في تغطية الضعف العسكري الذاتي للحكومة المركزية تجاه قبائل البدو[١].

بروز صفوق بن فارس:

١٨١٨ - ١٨٢٥ م

عندما تولى صفوق بن فارس مشيخة شمر في الأعوام ١٨١٨ أو ١٨١٩م، كانت القبيلة قد فقدت مؤقتا الكثير من سطوتها في الجزيرة. ومع ذلك سرعان ما استفادت شمر، تحت قيادة الشيخ الجديد، من المركز المزعزع لداوود باشا الذي كان مشغولا بالإعداد لمواجهة غزو فارسي (إيراني) مهدد به ومن اجل لاسترجاع قوته ونفوذه.

وعلى مر السنين كانت العلاقات بين فارس وولاية بغداد تتراوح بين الصداقة المتواضعة والعداء الصريح. وفي عام ١٨١٨م كانت هناك حالة حرب بين الإقليمين. وقد بدأت الأعمال العدائية عندما ساند محمد على ميزا، الحاكم العام لكرمنشاه، الحاكم الكردي محمود بابان في نزاعه مع داوود باشا وتزايدت كثيرا حدة الأوضاع عندما طلب محمود بابان المساعدة الفارسية وتلقى قوة من ١٠ آلاف رجل. وإدراك داوود باشا الخطر الكامن في مثل هذا الموقف وأرسل مباشرة بجيشه الخاص، تحت إمرة عمه عبد الله باشا، إلى كركوك ومع ذلك فعندما وجد أن الفرس يسيطرون على المنطقة التي حول كركوك، أذعن داوود باشا سريعا لطلب الشاه بان يعيد محمود بابان إلى مركزه السابق[٢].

---

(١) لونكريك: أربعة قرون، ص٢٧٧-٢٧٩.

(٢) نوار: داوود باشا، ص١١٤-١٧٠.

وتجددت الأعمال العدائية على جبهتين في عام ١٨٢١ م. وفي إحدى المناوشات استعر القتال بين محمود بابان الذي كان يدعمه داوود باشا، وعبد الله بابان التابع لمحمد على ميرزا، للسيطرة على السليمانية وأنزل الجيش الفارسي هزيمة حاسمة بقوات المماليك بقيادة الكهية محمد أغا. وقد فسر البعض انضمام محمد أغا إلى العدو بعد هزيمته الشائنة بأنها خيانة متعمدة أما داوود باشا، بعد امتصاصه للهزيمة العسكرية الشديدة وخسارته للكهية القدير، فقد أعد بغداد لحصار طويل. ولحسن حظ الباشا المملوكي، وقع الجيش الفارسي ضحية لوباء الكوليرا قبل أن يحاصر بغداد. ورغم حالتهم الضعيفة أرسل الفرس بجماعات إغارة عديدة نحو عاصمة المماليك[1].

واصطدمت إحدى هذه الجماعات بفرقة من شمر كان يقودها صفوق بن فارس. فألحق محاربو شمر هزيمة نكراء بهذه القوة الفارسية الأكثر عددا في سلسلة من الهجمات اتبعت فيها أسلوب حرب العصابات من الهجوم والانسحاب. وفي مواجهة انتصارات شمر والمشاكل التي سببها وباء الكوليرا، قام محمد علي ميرزا القائد الفارسي بتسوية خلافاته المعلقة مع داوود باشا وانسحب من كردستان الغربية[2].

ورغم التسوية بين داوود باشا ومحمد علي ميرزا فيما يتعلق بجنوب العراق، ظلت القوات العثمانية تواجه قوات الأمير عباس ميرزا ولي العهد

---

(١) العزاوي، تاريخ العراق، المجلد السادس، ص٢٧٩-٢٨٠. محمد أمين زكي: تاريخ السليمانية (بغداد ١٩٥١م) ص١٤٧، نوار، داوود باشا، ١٨٠، لونكريك، أربعة قرون، ص٢٤٢-٢٤٥.

(٢) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد السادس، ص٢٨٠-٢٨٣.

والحاكم العام لإقليم أذربيجان. ونشأ هذا الصراع الثاني من نزاع حول السيطرة على قبيلتين رعويتين فارسيتين طلبتا الحماية من باشا ارض روم وعندما طلب السلطان المساعدة من حكام ديار بكر والموصل وبغداد ضد الفرس في عام١٨٢٢ م، أطاعه داوود باشا وأرسل بجيش كبير لمساعدته. وقاد الكهية الجديد الحاج طالب أغا قوة من ١٠ آلاف إلى الشمال لمساعدة السلطان. وفي نفس الوقت قاد محمد حسين ميرزا ٤٠ ألف جندي فارسي عبر الحدود ودفع بالجيش التركي إلى الخلف إلى زرباطيا. وعندما شعر القادة الأتراك بالكارثة تحيق بهم، خططوا للانسحاب[١].

ومع ذلك أوقف الشيخ صفوق ومحاربو شمر مؤقتا القوة الفارسية المعتدية بين شهربان والخالص. ونتيجة لإستراتيجية عسكرية متفوقة قسم زعيم شمر القوات الفارسية وأنزل هزيمة نكراء بقوة أكبر منه كثيرا. وبعد انتصارها نهبت القبيلة المعسكر الفارسي واستولت على غنائم كثيرة[٢].

واستخدمت قبائل بدوية أخرى نفس التكتيكات وأفقدت الهجوم الفارسي قوته. وبعد إصابته من جديد بوباء الكوليرا، انتهى الأمر بالجيش الفارسي إلى أن يعود عبر الحدود[٣]. وهكذا، انتهي الغزو الفارسي، بعد أن واجه اتحاد غير مرتقب من كارثة طبيعية ومحاربين بدو. وتنهدت سلطات بغداد تنهيدة راحة، وأخذت تعيد أنظمتها الاقتصادية والزراعية الممزقة إلى الإنتاج.

---

(١) لونكريك، أربعة قرون، ص٢٤٦. يجب ملاحظة أن محمد حسين ميرزا كان ابن وخليفة محمد علي ميرزا.

(٢) المصدر السابق، المدني: مطالع السعود، ص١٤٨-١٤٩.

(٣) لونكريك، أربعة قرون، ص٢٤٦.

وفي أعقاب الهزيمة الفارسية ارتفعت هيبة شمر وقائدها الشاب صفوق بن فارس إلى قمم جديدة، فبدون القيادة القديرة للشيخ صفوق كان من الممكن للفرس الغزاة أن ينزلوا تدميراً أكبر بالعراق. وقدر داوود باشا تقديرا كاملا مساندة شمر في صد الجيش الفارسي وكافا صفوق بلقب وزير. وأصبح من حق الزعيم الأكبر الشاب أيضا إدارة إقليم عانة على امتداد نهر الفرات. ووفر الامتياز الأخير بشكل أكبر دخلا سنويا كبيرا من الضرائب. وزاد النجاح العسكري والتكريم الحكومي من شعبية صفوق بين رجال قبيلته شمر[١].

وفي عام ١٨٢٣ م، امتد نفوذ شمر من نهر الفرات في الجنوب إلى ماردين والموصل في الشمال ودجلة في الشرق إلى ما وراء نهر الخابور من الغرب. وسبب اتساع ديارها القبلية أدى بها إلى الصدام مرارا مع قبيلة عنزة في البادية السورية. ففي العام ١٨٢٣ م لم تنهب شمر فقط عنزة الغازية بل وأسرت هدى بنت هذال، ابنة زعيم عنزة عبد الله بن هذال[٢].

وفي موسم الحملات التالي، عبرت قبيلة عنزة الغاضبة الفرات وهي عازمة على الانتقام. وأخذت شمر، التي كانت تتوقع انتصارا سهلا أخر على منافستها البدوية، على حين غرة وأنزلت بها سريعا هزيمة نكراء. وبعد انتصارها في عام ١٨٢٤، لم تنهب عنزة فقط القبيلة المهزومة بل وآذوا شمر بسرقة خيولها العربية الممتازة. وأرسل داوود باشا بقوات حكومية لمساعدة الشيخ صفوق ضد عنزة. وفيما بعد، ورغم هزيمة شمر القاسية، أعاد

---

(١) العزاوي: عشائر العراق، المجلد الأول، ص١٥٣.
(٢) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد السادس، ص٢٨٥-٢٨٦.

الباشا المملوكي تأكيد مساندته للشيخ صفوق وسمح له بالاستمرار كحاكم لعانة[١].

العلاقات بين الحكومة وشمر:

١٨٢٥-١٨٣٠م

احتفظت شمر بعلاقات صداقة مع حاكم بغداد طوال عام ١٨٢٥ م كما يتضح من مساهمتها في حملة الدولة لإعادة النظام في الريف العراقي[٢][*]. ورغم ذلك فقد الشيخ صفوق مساندة داوود باشا في نهاية العشرينات. وفي الحقيقة أصبح الزعيم الأكبر لشمر أسوا عدو محلي للحاكم. وللأسف لا تقدم كل من الروايات التاريخية العربية وتقارير الرحلات الأوربية أية معلومات تفصيلية عن نشاطات شمر فيما بين الأعوام ١٨٢٦ و ١٨٣٠ م.

واستنادا إلى تحليل علاقة الشيخ صفوق بالحكام العثمانيين بعد عام ١٨٣٠ م، يمكن القول بأن الزعيم الشاب وجه صعوبة متزايدة بالاحتفاظ بعلاقات وثيقة مع داوود باشا. وبالتحديد فالمكانة المفضلة لشمر لدى حكومة بغداد منعتها من الاستمرار في غاراتها البدوية وعمليات النهب والتدمير. وكان من الممكن أن يضطرها تعاونها المستمر مع بغداد إلى التخلي عن غاراتها المعتادة لأنه كان عليها أن تكرس الكثير من طاقتها لإخضاع

---

(١) المصدر السابق.

(٢) لونكريك: أربعة قرون، ص٢٤٧.

(*) جاء الخلاف بين الشيخ صفوق وداوود باشا على اثر الحملة العسكرية التي شنها داوود على مدينة كربلاء عام ١٨٢٥م وشارك فيها الشيخ صفوق ثم انسحب منها لخلافه مع القائد العسكري للحملة (المقدم).

قبائل بدوية وكردية ويزيدية أخرى. ولم يكن بإمكان شمر أن تحقق هذا التكيف، كما سيتم شرحه بالتفصيل في فصول التالية.

سقوط داوود باشا:

حكم داوود باشا ولاية بغداد حتى العام ١٨٣٠ م عندما طالبه السلطان بالاستقالة. فمنذ بداية عام ١٨٢٦ م، بدأ السلطان محمود الثاني (١٨٠٨- ١٨٣٩م) يعد برنامجا لإعادة تأسيس السيطرة الملكية على الإمبراطورية اللامركزية. وظلت ولاية بغداد غير متأثرة نسبيا بهذه الإصلاحات لحوالي أربع سنوات. ومع ذلك، وفي عام ١٨٣٠ م، كان داوود باشا قد اكتسب غضب محمود الثاني. ويرجع ذلك إلى عدة أعمال عصيان إضافة إلى مساهمته الرمزية في الحرب الأخيرة ضد الروس. فغضب السلطان بسبب بخل الباشا المملوكي وأرسل صادق أفندي، وهو من كبار موظفي الحكومة الموثوق بهم، للحصول على استقالة داوود باشا[١].

ولدى وصوله إلى بغداد، رفض المبعوث الملكي في ازدراء عروض الضيافة المتكررة وسلم فرماناً لداود باشا فيه أمر السلطان بالاستقالة. واشتاط الباشا العجوز المراوغ غضبا فقتل صادق أفندي واخبر السلطان محمود بان رسوله قضى نحبه بوباء الكوليرا[٢] فقام السلطان، ردا على ذلك، بتنظيم جيش كبير تحت أمرة علي رضا باشا من اجل تنفيذ أمر العزل لداود باشا.

رحل علي رضا باشا من حلب في بداية عام ١٨٣١ م وتوقف مؤقتا في شمال العراق، كي يضم إليه قاسم باشا العمري حاكم الموصل وعدة

---

(١) المصدر السابق، ص٢٦٠-٢٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص٢٦٤.

قبائل بدوية من بينها شمر جربا، قبل أن يتحرك نحو بغداد[1](*). وعندما كان الجيش العثماني معسكرا في الشمال، وقعت بغداد ضحية كارثتين طبيعيتين. الأولى كان انتشار وباء الكوليرا الذي أهلك قسماً كبيرا من سكان العاصمة. ثم حدوث فيضان ربيعي عنيف مغرق. ونتيجة لهذه المحن وجد داوود باشا نفسه في موقف ضعيف[2].

وتزامن مع ذلك وصول قسم من جيش على رضا باشا، تحت قيادة مساعده قاسم باشا العمري حاكم الموصل، إلى أبواب المدينة[3] وكانت القوات العثمانية قد تم دعمها من قبل شمر جربا بقيادة صفوق وأيضا من قبل عقيل بقيادة سليمان غنام. ولعدم استعدادهم لحصار طويل، اتفق أعيان بغداد على تسليم داوود باشا إلى قاسم باشا. ورغم ذلك فعندما أسرع المرتزقة القبليون من شمر وعقيل إلى دخول بغداد وبدؤوا في نهبها، غير الأعيان رأيهم بسرعة. وتحصن البغداديون خلف أسوار المدينة وقرروا مقاومة تقدم على رضا باشا. أما القائد العثماني فقد غادر الموصل سريعا بعد أن علم بوصول قواته إلى العاصمة. وجعلته الأنباء التالية عن المقاومة المملوكية يسرع في مسيرته نحو بغداد[4].

وفي مواجهة إصرار العدو، أمر على رضا باشا بضرب بغداد بالقذائف يوميا ودام ذلك عشرة أسابيع. وفي بداية شهر أيلول كان كلا

---

(١) ج. ب. فريزر: رحلات في كردستان وبلاد الرافدين، المجلد الأول، (لندن ١٨٤٠م)، ص٢٦١.

(*) في المصادر أن بغداد عانت من مرض الطاعون وليس الكوليرا (المقدم).

(٢) لونكريك: أربعة قرون، ص٢٦٤-٢٦٧.

(٣) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٤٧.

(٤) فريزر: رحلات، ص٢٦٢.

الطرفين المتحاربين يحاولان الوصول إلى نهاية سريعة للحصار وبعد حوالي ثلاثة شهور من النيران العثمانية المستمرة كان سكان بغداد الذين كانوا يعانون من المجاعة وضعف المعنويات، على استعداد لقبول أي عرض معقول. وكان علي رضا باشا أيضا يعمل تحت عبء مضاعف لعدم قدرته على دفع مرتبات قواته وضغط الأستانة عليه كي يوقف الحصار الطويل، واضطر إلى البحث عن نهاية سريعة للمعركة. وتم في النهاية فتح بوابات المدينة للفاتحين العثمانيين نتيجة لخيانة العديد من كبار البغداديين.

أرسل علي رضا باشا بداود باشا إلى الأستانة حيث ظل منفيا لعدة سنوات وأخيرا خدم السلطان في عدة مناصب وظيفية حتى وفاته في العام ١٨٥١ م. ورغم سيطرة الباشا الجديد على مدينة بغداد إلا أن الموقف العام بقى غامضاً. فقد ظل الكثير من الموظفين المماليك والقادة العسكريين المتمردين يسكنون بغداد والأقاليم المتاخمة للولاية. وقد عالج الباشا هذه المشكلة بان دعا المماليك الباقين على قيد الحياة إلى اجتماع في بغداد حيث تم قتلهم جميعا[1].

علي رضا باشا والقبائل العربية:

سرعان ما اكتشف الحاكم العثماني ما سبب له الإزعاج وهو أن السيطرة على القبائل البدوية الكبيرة أكثر صعوبة من القضاء على المماليك الباقين على قيد الحياة. واتخذت هذه المشكلة أبعادا هامة حيث أن الفرمان الذي نصب على رضا باشا حاكما على ولاية بغداد لم يدعه إلى حكم بغداد

---

(١) لونكريك: أربعة قرون ن ص ٢٧٥.

فقط بل وحكم جلب وديار بكر والموصل أيضا. ولم يحدث من قبل أن فوض حاكم واحد في حكم منطقة شاسعة كهذه[١].

وأصبح الشيخ صفوق عدوا عنيدا لعلي رضا باشا أثناء حكمه الذي دام إحدى عشرة سنة كحاكم لبغداد. وفي البداية رفعت مظلمة معينة بشيخ مشايخ لشمر إلى التخلي عن صداقته مع الحاكم العثماني الذي وصل حديثا. ومع ذلك فقد تركز الصراع، على المدى الطويل، حول المحاولات العثمانية المتكررة لفرض سيطرة مباشرة على ولاية بغداد وقد قام الشيخ صفوق، أقوى زعيم بدوي في الجزيرة، الذي اعتاد القيام بعمليات الإغارة حسب مشيئة وتوجيه شؤون القبائل مذعنا أحيانا فقط إلى أوامر الحكومة، بالرد بمرارة على الاعتداءات العثمانية المتزايدة.

ويبدو أن الصعوبات الأولية بين الرجلين بدأت في نهاية عام ١٨٣١ أو أوائل عام ١٨٣٢ م ففي أثناء مسيرته من حلب إلى بغداد في شباط عام ١٨٣١ م، عرض علي رضا باشا على صفوق عروضا مغرية مختلفة مقابل مساندة شمر ضد داوود باشا[٢]. وقبل صفوق فورا العرض على الطريقة البدوية. وخلال فترة تدعيم الحاكم الجديد لموقعه في بغداد، طلب من صفوق أن يضمن حماية القوافل والمسافرين المارين بديار شمر مقابل منح إقليمية وتقليده لمنصب وخلع وملابس[٣].

---

(١) المصدر السابق ن ص٢٧٥.

(٢) لوريمر: المعجم الجغرافي، المجلد الأول، الجزء الأول ب، ص١٣١٦.

(٣) وزارة الهند ل / ب اندس / ٩، رسائل سرية ومرفقاتها من فارس، المجلد السابع ل، من تيلور إلى سكرتير الحاكم، ١٠ / ٧ / ١٨٣٢ م.

واستمرت حالة التعاون المتبادل هذه لفترة مؤقتة لأنه عندما دعم علي رضا باشا موقعه في بغداد كان كارها لاحترام التزامه السابق مع صفوق. فأنكر على صفوق المكافأة التي كان قد وعده بها، محاولا بذلك أن يقلل من نفوذ الشيخ القوى الذي كان، طبقا لأحد المصادر قد سيطر بالفعل على أفضل الأراضي التي تقع على قناة الدجيل شمال بغداد وأيضا على معظم الجزيرة[1].

غضبت القبيلة لنكوث علي رضا باشا بوعده، وبدأت بإزعاج قرى عديدة وفرضت عليها ضرائب غير قانونية. وابتزت أيضا أجورا مرتفعة من القوافل المارة بديارها[2]. وعندما طالب صفوق بتنازلات أكثر من الباشا في نهاية عام ١٨٣٢ أو أوائل عام ١٨٣٣ م، رفض علي رضا طلبه فغضب صفوق لهذا الرد السلبي، وأعلن العصيان الصريح[3].

وفي تموز عام ١٨٣٣ م، كان زعيم شمر وحليفه يحيى باشا الجليلي حاكم الموصل قد هاجما رجال القبائل اليزيدية في جبل سنجار، الذين كانوا يغيرون على القوافل على الطريق التجارية الشمالي بين الموصل وماردين. وقد هاجم محمد باشا من رواندوز والذي كان معروفا باسم ميركور (الأمير الأعمى)، اليزيدية أيضا، رغبة منه في إلا يفقد الفرصة في الحصول على غنيمة سهلة. وتحت قيادة أقوى ثلاثة زعماء في الجزيرة كان تمرد عام ١٨٣٢-١٨٣٣ م علامة على بداية صراع طويل بين العثمانيين الذين أرادوا

(١) لوريمر: المعجم الجغرافي، المجلد الأول، الجزء الأول ب، ص١٣١٦.
(٢) وزارة الهند ل / ب اندس / ٩، رسائل سرية..، ٧ / ١٢ / ١٨٣٤ م.
(٣) فريزر: رحلات، المجلد الأول، ص٢٧١.

أن يفرضوا سيطرة مباشرة على شمال العراق وبين القادة الإقليميين الأقوياء، مثل الشيخ صفوق الذين أرادوا الاحتفاظ باستقلاليتهم[١].

وكان علي رضا باشا يعامل شمر بحذر، حيث انه كان حاكما غير محبوب نسبيا وتنقصه المساندة العسكرية الكافية. وبسبب العدد المحدود للقوات التي كانت تحت تصرفه والتي كانت مشغولة بالفعل في تمرد قبلي قرب الحلة، أراد الحاكم أن يضعف شمر القوية بخلق نزاعات قبلية داخلية[٢]. وقد نفذ خطته فسحب أولا اعترافه بالشيخ صفوق كزعيم للقبيلة ونصب الشيخ شلاش ابن اخو صفوق، كزعيم منافس. وكان شلاش يعرف انه لا حول له عمليا بدون مساعدة علي رضا باشا فتعاون تعاونا وثيقا مع محدث نعمته[٣].

وعندما علم صفوق بمحاولة الحكومة لزعزعة الثقة به كالزعيم الأكبر لشمر قطع الطرق المؤدية إلى بغداد في أيلول ١٨٣٣ م. ومن مسافة تبعد ٢٠ أو ٣٠ ميلا، اعترض مقاتلوا شمر طريق كل القوافل والمؤن والمعلومات التي كانت تقصد العاصمة وقاموا بفرض الحصار على بغداد وفي البداية كان الحصار مزعجا قليلا ولكنه في النهاية صار محكم حتى

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ١١٣، بغداد، من تبلور إلى القسم السياسي، رقم ٥٦، ٢٩/ ٧/ ١٨٣٣ م.

(٢) وزارة الهند ل / ب اندس / ٩، رسائل سرية...، المجلد السابع، من تيلور إلى القسم السياسي، رقم ٨٣، ٢٤/ ١٠/ ١٨٣٣ م.

(٣) وزارة الهند ل / ب اندس / ٩، رسائل سرية...، المجلد ٥١، من تيلور إلى القسم السري. رقم ٦، ٥/ ٩/ ١٨٣٤ م.

اجتاحت شمر المواقع التركية حول المدينة[١]. ونتيجة لهذا الضغط المتزايد، لجأت القوات التركية وأيضا سكان الريف إلى داخل أسوار المدينة. وفي النهاية أوقع الحصار بغداد في ضيق شديد حتى أن علي رضا باشا أمر قائده العسكري محمد باشا بالتخلي عن حملته في الجنوب.

وعند عودته إلى العاصمة مع حوالي ٥ آلاف رجل، لم يستطع محمد باشا أن يخترق حصار شمر وأخيرا تنفست بغداد الصعداء عندما تخلى صفوق في النهاية عن الحصار. لقد اعتاد مقاتلو شمر على غارات الصحراء السريعة، ولكن كان ينقصهم النظام المطلوب للاستمرار في حصار طويل. علاوة على ذلك، وفي نفس الوقت تقريبا، احتاج يحيى باشا في الموصل إلى مساعدة حليفه صفوق في الشمال[٢]. وعلى الرغم من ذلك، وقبل رحيله، هدد صفوق بغداد بحصار آخر. ومع رفع الحصار أرسل علي رضا باشا مباشرة بجيش لمهاجمة شمر على طريق انسحابها وعندما لحق الجيش التركي أخيرا بشمر هزمها في معركة حاسمة[٣].

وقد حاول باشا بغداد أن يتجنب تكرار كارثة عام ١٨٣٣ م بعد أن وقع في كماشة حصار شمر. وتوقعا منه لحصار آخر من شمر في عام ١٨٣٤ م، طلب علي رضا باشا المساعدة من قبيلة عنزة. وكانت عنزة على استعداد لقبول العرض العثماني لان الغزو المصري لسوريا في عام ١٨٣٢ م اضطرها إلى الهجرة من ديارهم المعتادة في البادية السورية إلى الجزيرة. وفي

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ١١٣، بغداد، من تيلور إلى القسم السياسي، رقم ٥٦، ٢٩/ ٧/ ١٨٣٣ م.

(٢) لوريمر: المعجم الجغرافي، المجلد الأول، الجزء الأول ب، ص١٣١١.

(٣) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد السابع، ص٢٨.

الظروف العادية، كانت شمر والحكومة العثمانية تتعاونان لمقاومة هجرة عنزة إلى الجزيرة. ومع ذلك، وللأسباب التي سبق ذكرها، رحب علي رضا باشا بعنزة وعرض عليها مراعي شمر الغنية أذا ساعدته في هزيمة صفوق ابن فارس. ومع وجود ٣٥ ألف مقاتل من عنزة على استعداد لسحق أي هجوم من شمر على بغداد، سلك صفوق سلوكا حكميا وظل مع قبيلته في شمال العراق[١].

وعندما انتهى خطر هجوم شمر أبلغ علي رضا باشا زعماء عنزة بأنه لم يعد في حاجة إلى خدماتهم. ومع ذلك رفضت القبيلة العودة إلى ديارها على الجانب الغربي من نهر الفرات وادعت عنزة أنها أنجزت ما اتفقت عليه من جانبها، وطالبت بمكافئتها التي وعدت بها. ومن أجل دعم مطلبها هذا، انتقلت القبيلة بمخيمها قريبا من بغداد. وخوفا من النتيجة المحتملة لوجود حوالي ٣٥ ألف مقاتل غاضب من عنزة وقد عسكروا على أبوابه، طلب علي رضا باشا المساعدة من صنيعته الشمري الشيخ شلاش. فأطاع شلاش أوامر الحاكم العثماني وقام بتحريك مقاتليه نحو بغداد. وفي نفس الوقت تناسى صفوق، في نوبة كبرياء شمري، خلافاته مع شلاش وعلي رضا باشا وأرسل بألفين من رجاله للقتال ضد عنزة وعلى الرغم من الإصرار الشجاع للقوات العثمانية والشمرية في القتال، انتصرت عنزة بسبب تفوقها العددي وقتلت شلاش وحاصرت بغداد ونشرت الفوضى في كل أنحاء الجزيرة مرة أخرى[٢].

---

(١) فريزر: رحلات، ص٢٧٢.

(٢) المصدر السابق، ص٢٧١-٢٧٤.

وخلال فترة سبعة عشر عاما ارتفع صفوق بن فارس من زعيم قليل الشأن عام ١٨١٨ م إلى أن أصبح أقوى شيخ في الجزيرة في عام ١٨٣٥ م. وقد حكم الشيخ صفوق أجزاءً من العراق الحديث وسوريا وتركيا، وكان يشار إليه كسلطان البر أو ملك الصحراء[1]. وكان اسمه محل هيبة، وأية نزوة له كانت تنفذ، وكلمته كانت قانونا كان حاميا للعديد من القبائل الصغيرة، وحليف حاكم الموصل، وجابي للضرائب في عدد لا حصر له من القرى، والمسيطر على طرق القوافل، ومحاربا صنديدا لقد وصل صفوق إلى عنفوان قوته بمساندة قبيلة متحدة كانت تعتبره قائدا ذا شخصية مهيبة.

السياسة العثمانية في الحكم المباشر

حملة رشيد باشا عام ١٨٣٥م

قبل عام ١٨٣٥ م، كان من المؤكد أن يتمكن قائد بدوي في منزلة صفوق أن يحافظ على نفوذه لسنوات طويلة. ولكن لسوء حظ صفوق، أثبتت السنوات الاثنتا عشرة التالية أنها كانت مليئة بمخاطر غير المتوقعة أدت إلى إضعاف مكانته كقوة مسيطرة في الجزيرة، ففي عام ١٨٣٥ م بدأت بغداد تستشعر الوطأة الكاملة لحركة الإصلاح الإداري العثماني.

كان حكم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م) علامة على بداية ما يمكن أن يطلق عليه فترة الإصلاح « الحديث » في الإمبراطورية العثمانية. وقد تركزت جهوده على إصلاح المدارس والخدمات الطبية، والأكثر أهمية، الجيش العثماني. وبدأت هذه الإصلاحات بحماس عظيم، وكثيرا ما استخدم مستشارون أوربيون، ولكنها في النهاية كانت ذات تأثير

---

(١) العزاوي: عشائر العراق، المجلد الأول، ص١٥٣-١٥٦.

محدود فقط. وفي الأعوام ١٨٠٧-١٨٠٨ م، أدى رد الفعل المحافظ إلى إقصاء سليم الثالث بداية ثم إعدامه في النهاية[١].

وبموت سليم الثالث فقدت حركة الإصلاح العثمانية قوتها الدافعة. وظلت في طور السبات لحوالي عشرين عاما حتى أدرك محمود الثاني انه يجب القضاء على العناصر الرجعية داخل الإمبراطورية قبل اتخاذ إصلاحات أخرى. وعلى رأس القائمة، استخدم السلطان فرقا عسكرية عديدة مدربة تدريبا أوربيا لتساعده في تدمير الفيلق الانكشاري المتفسخ. وتم ذبح الفرقة الانكشارية كلها في الأستانة ووحدات إقليمية مختلفة أخرى[٢].

ومع ذلك، لم تنته جهود محمود الثاني الإصلاحية مع نهاية الانكشارية. فقد وضعت كل الأوقاف الدينية تحت سيطرة الدولة، وتم إصلاح كل الامتيازات الإقطاعية التي منحت خلال القرون القليلة الماضية. وأيضا كان علي السلطان المصلح أن يحطم قوة الحكام الإقليميين المستقلين من اجل تحقيق هدف مركزة السلطة في الأستانة[٣].

وبعد الانتصار المصري على الإمبراطورية العثمانية في عام ١٨٣٢ م، شن محمود الثاني هجمات عسكرية مباشرة ضد الحكام المستقلين في شمال العراق الذين رفضوا مساندة جهوده الحربية ووضعت ولاية الموصل، مثل

---

(١) ستانفورد شاو: بين القديم والجديد: الإمبراطورية العثمانية في ظل السلطان سليم الثالث ١٧٨٩-١٨٠٧ م، (كامبردج ١٩٧١م).

(٢) رودريك هـ. ديفيدسون: الإصلاح في الإمبراطورية العثمانية ١٨٥٦-١٨٧٦ م، (برنستون ١٩٦٣م)، ص٢٣-٢٦.

(٣) برنارد لويس: نشأة تركيا الحديثة، (لندن ١٩٦١م)، ص٧٥-٨١.

ولاية بغداد قبل خمس سنوات تحت السيطرة الإدارية العثمانية المباشرة في عام ١٨٣٥ م عندما حل محمد باشا إنجه بيرقدار محل عائلة الجليلي التي كانت متنفذة في الموصل [١]. وبدأت تغييرات أخرى هامة عندما غادر رشيد باشا، الذي كان وزيرا أعظم سابقا، ديار بكر على رأس قوة كبيرة في عام ١٨٣٥ م نحو مدينة ماردين فضرب المدينة الثائرة ثم مضى جنوبا إلى الجنوب [٢]. واتجه ضد الحكام الإقليميين المستقلين، أغوى رشيد باشا الشيخ صفوق بالحضور إلى معسكره تحت وعد بالأمان ثم قبض عليه مع ابنه الشاب الصغير فرحان.

ظل صفوق وفرحان رهن الاعتقال في الأستانة لمدة ثلاث سنوات تقريبا. وكان لفترة الغياب الإجباري هذه علامة ميزت هذا المنعطف ذات الأهمية الخاصة في تاريخ شمر فخلال أربعة عقود تقريبا، اعتادت شمر تدريجيا على العيش في منطقة تشتمل على مدن كبيرة وحكومة مركزية تتزايد قوتها. وخضعت ثقافة شمر البدوية لتغيرات عديدة نتيجة لاتصالها المتزايد مع ثقافة متوطنة غير مهاجرة [٣].

قدم الأسر المفروض على زعيمين شمر في الأستانة مثالا محددا على كيفية نفوذ الثقافة المقيمة غير المهاجرة إلى الثقافة البدوية. ولكونه قائدا ناضجاً داهية، ربما لم تتغير آراء الشيخ صفوق البدوية أثناء إقامته في العاصمة العثمانية. ومع ذلك فلابد أن قوة وثراء البلاط العثماني قد خلفا في

---

(١) سليمان صائغ: تاريخ الموصل، (القاهرة ١٩٢٤م)، ص ٣١٠-٣١١.

(٢) لونكريك: أربعة قرون، ص ٢٨٥.

(٣) روس: «من بغداد إلى الحضر..»، مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد التاسع (١٨٣٩م)، ٤٠٦.

نفسه أثرا قويا بالتأكيد. وعلى العكس من أبيه، يبدو أن هذه الزيارة قد تركت تأثيرا ذا معزى على فرحان. وكان فرحان قد واظب على الذهاب إلى المدارس العثمانية حيث تعلم الحديث باللغة التركية وتذوق العادات والملابس التركية. وأحب الحياة المدنية ويبدو انه توافق شخصياً مع الثقافة التركية[١].

وبتعبير محدد كانت النتيجة الرئيسة للسنوات التي أمضاها صفوق في الأستانة أن شيخ شمر وافق على مساندة السلطان ضد المصريين في أية حروب قادمة. وقد سمح الباب العالي لصفوق بالعودة إلى الجزيرة بعد تقديمه لهذا الوعد[٢]. وقد فقدت شمر جربا، بدون قيادة صفوق القديرة، الكثير من قوتها السابقة في سلسلة من المنافسات بين عشائرها. وكما سيتضح بشكل متزايد في الفصول التالية، كانت القيادة القوية ضرورة مطلقة لقبيلة موحدة وقوية[٣].

بعد إلقاء القبض على قائدها المبجل صفوق، أعادت شمر نشر الفوضى في الجزيرة من الفرات إلى دجلة. وأثناء غاراتها في عام ١٨٣٥ م، دمرت شمر أراضٍ وافرة المحاصيل حول مدينة تكريت على دجلة[٤]. وأيضا بينما كان صفوق في الأستانة ، استؤنفت العداءات بين عنزة وشمر

---

(١) بلنت: قبائل البدو، ص٢٣١.

(٢) ادوارد ميتفورد: مسيرة برية من انكلترا إلى سيلان منذ أربعين سنة، (لندن ١٨٨٤م)، ص٢٥٢-٢٥٣.

(٣) وزارة الهند ل / ب اندس / ٩: رسائل سرية...، حلب، من ويري إلى يونسونبي، ٣/ ١٢/ ١٨٣٦ م.

(٤) روس: «من بغداد إلى الحضر...»، مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد التاسع (١٨٣٩م)، ص٤٥٦-٤٧٤.

في عام ١٨٣٦ م. ورغم تدخل القوات المصرية ضد عنزة إلا أن هذا الصراع جعل السفر والتجارة على امتداد وادي نهر الفرات صعبا للغاية.

وكان لمحمد بن فارس السيطرة على ما يقدر بـ ١٢ ألف عائلة كزعيم شمر الأكبر الحكومي بينما كان أخوه مقبوضا عليه في الأستانة. وفي عام ١٨٣٦ م، ذكر مسافر أوربي أن عشائر عبدة واسلم والعليان وزوبع كانت تساند الشيخ محمد[1]. ومع ذلك وبنهاية عام ١٨٣٧ م فقدت عشائر عديدة الثقة بالشيخ، الذي دعمته الحكومة، وتمردت عليه[2] وعندما عاد صفوق إلى الجزيرة في عام ١٨٣٨م، كانت قبيلة شمر تنقصها الوحدة التي كانت تمتع بها في عام ١٨٣٥ م. وخلال العقد التالي، جاهد صفوق من أجل إعادة وحدة شمر.

وبعد ثلاث سنوات من الأسر، ساند صفوق السلطان ضد المصرين عندما اندلعت الحرب مرة أخرى بين أولئك الأعداء في عام ١٨٣٩ م. ومقابل هذه المساندة أعيد تعيين صفوق كزعيم القبيلة الأكبر الحكومي ز وقد تمكن لزعيم الأكبر الجديد سريعا من إخضاع عشائر شمر المتمردة، مدعوما بامتيازات حكومية ومساندة رسمية وإعانة كبيرة محتملة. واثبت مرة أخرى ولاءه الجديد للسلطات العثمانية في آذار عام ١٨٤٠ م. فقد غادرت شمر المدائن (جنوب بغداد) وسارت نحو الشمال إلى أورفة حيث ساندت الجهد العثماني الحربي وذلك بشن غارات متكررة على الحدود

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مكتب المخابرات ل / ب و س / ٩، رسائل سرية...، حلب، من ويري إلى اللجنة السرية، ١٥/ ١١/ ١٨٣٧ م.

المصرية [١]. ورغم أن قوات شمر كانت مجرد شوكة في الجناح المصري، فقد كشفت حقيقة أنها حاربت ضد المصريين ان صفوق لم يعد بإمكانه أن يتجاهل طلب المساعدة من السلطان كما كان قد فعل في عام ١٨٣١م.

فترة التردد:

١٨٤٠-١٨٤٥م

خلال السنوات القليلة التالية تراوحت علاقات شمر والحكومة بين الصداقة الأكيدة والعداء الصريح. فقد حاول الشيخ صفوق، خلال الأعوام ١٨٤٠ و ١٨٤٥ م، أن يستعيد مكانته السابقة كأقوى زعيم قبلي في الجزيرة. ومع مرور الوقت واجه هذا الزعيم ألشمري، الذي كان بارزا في الماضي، صعوبة متزايدة في السيطرة على قبيلته وفي استخدام نفوذه المعتاد لدى الحكومة المركزية. وقد فرضت ثلاثة عوامل في افول الجاذبية الشخصية لشيخ مشايخ شمر.

أولا: يبدو أن صفوق انتهك مفهوماً أساسياً بالنسبة للزعيم البدوي القوي: فقد نفر منه أقساما واسعة من القبيلة[٢].

ثانيا: أضعفت مجاعة شديدة حدثت خلال الأعوام ١٨٤٥ و١٨٤٦م، القبيلة بشكل عام واستنزفت أيضا الثروة الشخصية للشيخ صفوق. وبدون إغراءات الثراء التي يحتاجها شيخ قوى، فقد صفوق المزيد من النفوذ بين صفوف القبيلة[٣].

---

(١) ميتفورد: مسيرة برية، ص٢٥٢-٢٥٧.

(٢) اوستن هنرى لايارد: اكتشافات في بقايا نينوى وبابل، إعداد هـ. و. ف. ساكر، (لندن ١٩٧٠م) ص ١١٤.

(٣) المصدر السابق، ص١١٥-١١٦.

ثالثا: نتيجة لضعف شمر وازدياد القوة العسكرية للحكومة، مارست بغداد سيطرة أكبر على شمر جربا. وتقدم القدرة الملحوظة لنجيب باشا من تدخله في شؤون القبائل مثالا على قوة السلطة العثمانية المتزايدة في الجزيرة[١].

ورغم انشغال شمر في غارات ثانوية من الأعوام ١٨٤٠ إلى ١٨٤٣م إلا أن صفوق ظل عموما خارج التيار الرئيسي للشؤون الإقليمية. وقد أسهم التآمر السياسي بين باشوات بغداد والموصل كثيرا في التوتر المتزايد في علاقات الحكومة وشمر[٢]. فقد بدأت المتاعب بين علي رضا باشا في بغداد وباشا الموصل حول مسألة السماح للشيخ صفوق بان يستمر في حكم منطقة عانة على نهر الفرات، من عدمه[٣]. وكان صفوق في الأصل قد أعطى عانة كمكافأة له على خدماته ضد الإيرانيين في أوائل العشرينات من القرن التاسع عشر.

وعلى الرغم من أن علي رضا باشا كان قد وافق على مضض بأن يترك لصفوق هذه الوظيفة المربحة، إلا أن باشا الموصل، الذي كان يريد عانة لنفسه، احتج بشدة ضد هذا القرار. وبعد مناقشة طويلة اقنع علي رضا باشا بإقصاء الشيخ صفوق في نهاية عام١٨٤١ م أو أوائل ١٩٤٢ م واسترداد عانة منه.

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٠٤، الموصل، رسام إلى تيلور، ٢٣ / ١١ / ١٨٤٣ م.
(٢) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٢٨، من رسام إلى كاننغ، ٢٩ / ١١ / ١٨٤٤ م.
(٣) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٢٨، بغداد، من رسام إلى كاننغ، رقم ٢٩، ١٥ / ٩ / ١٨٤٦م.

ورداً على ذلك قام صفوق بشن غارات عديدة قرب نهر الخابور. وواجه الزعيم المحاصر صعوبات أخرى حين حاولت عدة قبائل تابعة له أن تتهرب من سيطرة شمر. فأرسل بالشيخ فرحان إلى بغداد ليصل إلى تسوية مع الحاكم، أملا منه في الاحتفاظ بولاء هذه القبائل، ثم عاد إلى منطقة الموصل ليلتقي بالقبائل المتمردة. وفي تشرين ثاني من عام ١٩٤٣ م أعاد نامق باشا، الحاكم الجديد لولاية بغداد، تعيين الشيخ صفوق زعيما أكبر لشمر[١].

وفي محاولة للاحتفاظ بمساندة الحكومة له، قاد صفوق حملة ناجحة ضد عنزة بالقرب من حران في أيار عام ١٨٤٤ م[٢]. لكن في خريف عام ١٨٤٤ م، فقد صفوق مرة أخرى اعتراف الحكومة به كزعيم شمر الأكبر حين عين نامق باشا والي بغداد شيخا منافسا له لمنصب شيخ القبيلة الأكبر[*]. فحاول صفوق أن ينهي هذا التحدي لمكانته كقائد للقبيلة بان يعيد إقامة علاقات الصداقة مع حاكم بغداد[٣].

ولم يمض وقت طويل حتى حانت الفرصة لزعيم شمر المغضوب عليه في استعادة مساندة الحكومة له. ففي صيف عام ١٨٤٤ م قامت عنزة التي اضطرت إلى مغادرة ديارها نتيجة لحريق مدمر، بغزو الجزيرة بحثا عن

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٠٤، بغداد، تايلور إلى رسام، ٢٨/ ١١/ ١٨٤٣ م.
(٢) ج. ب. بادجر: النسطوريون وطقوسهم، (لندن ١٨٥٢م)، ص٣٣٤.
(*) وهو الشيخ نجرس بن زيدان (المقدم).
(٣) وزارة الخارجية، ١٩٥/ ٢٢٠، الموصل، من رسام إلى كاننغ، ٢٩/ ١١/ ١٨٤٤م.

أراض للرعي. وبعد أن وجدت الحشائش اللازمة لحيواناتها، بدأت تقوم بغارات فيما بين بغداد والموصل[١].

وطلب كل من نجيب باشا ومحمد شريف باشا حاكم الموصل المساعدة من شمر لوقف غارات عنزة. فوافق صفوق بحماس على عرض الحكومة هذا، وذهب إلى القتال ومعه ألف من محاربي شمر. وأخيرا واجهت شمر قوة من عنزة تقدر بـ ٢٠ ألف محارب تحت قيادة الشيخ دهام بن غبين إلى الشمال الغربي من الموصل. وبمساعدة عدد من الفرسان الأكراد بقيادة بدر خان بك، استطاعت شمر أن تدفع بقوة عنزة الأكثر عددا نحو الجنوب في اتجاه تلعفر واسكي موصل[٢].

وبعد سلسلة من الاتصالات الدبلوماسية حاول خلالها دهام بن غبين أن يحسن من علاقاته مع حاكم الموصل، استؤنف القتال بين قبائل عنزة وشمر في خريف عام ١٨٤٤ م[٣]. وبعد عدة معارك غير حاسمة، عادت عنزة إلى نهب المنطقة الريفية المحيطة بالموصل في نهاية عام ١٨٤٤ م وأوائل عام ١٨٤٥م. وشعر دهام بن غبين أن قبيلته تواجه نزاعات أكبر منها فوافق دهام بن غبين الشيخ صفوق على شروط للصلح تقضي بعودة عنزة إلى البادية السورية وبدفع إتاوة تتكون من ١٥ ألف رأس من الغنم وما يزيد عن ٣ آلاف جمل و ٨ آلاف فرس. ولكن اتفاقية السلام هذه لم تنه الصراع بين شمر وعنزة. فقد هاجم صفوق، بأمر من محمد باشا، عنزة أثناء عبورها نهر الفرات واستولى على ٧ آلاف رأس من الغنم فرد دهام بن غبين

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

على هذه الخديعة، التي أوعز بها العثمانيون، بالقيام بغارات على امتداد نهر الزاب الأصغر. وأخيرا قامت شمر بطرد عنزة من ولاية بغداد إلى الصحراء السورية في نهاية عام ١٨٤٥م[١].

المعركة المحتومة ١٨٤٦م:

انشغل صفوق وأتباعه في أوائل عام ١٨٤٦ م بعدة غارات ثانوية. وقد وقعت اخطر هذه الأحداث في تلال سنجار حيث قتلت شمر زعيما يزيديا وثمانية من محاربيه[٢]. ويبدو أن صفوق استخدم هذه الغارات للاحتفاظ بزعامته لعشائر شمر المختلفة. فمنذ رحيله الإجباري من الجزيرة في عام ١٨٣٥ م، تعرضت مكانة صفوق كزعيم شمر جربا الأكبر و«سلطان البر» للاضمحلال التدريجي. وفي خريف عام ١٨٤٦ م، ومع التدهور الشديد في هيبته ونفوذه، قام صفوق بمحاولة أخيرة لإنقاذ مكانته السابقة.

ومع ذلك، ففي خلال اثني عشر شهرا كان زعيم الصحراء، الذي كان قويا في الماضي، يرقد مقتولا على يد قاتل عثماني. وعلى الرغم من أن أحداث العام الأخير في حياة الشيخ معروفة جيدا فلم يحاول إلا القليل، إذ وجدوا من المؤلفين شرح هذه الأحداث أو تحليل نتائج وفاته على العلاقات الشمرية-العثمانية. وسنحاول في المناقشة التالية أن نملأ هذا الفراغ بتقديم عدد من الملاحظات لتفسير أسباب تصرفات صفوق.

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٣٧، بغداد، رولينسن إلى كانِنغ، رقم ٤٣، ١/ ١٠/ ١٨٤٥ م.

(٢) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٢٨، الموصل، رسام إلى كاننغ، رقم ٣٢، ١٠/ ٨/ ١٨٤٦م.

وكنقطة بداية، كان شيخ شمر رجلا يقدر نفسه تقديرا عاليا جدا. فقد كان يعتبر نفسه شخصية قوية وهامة، وعمل على الاحتفاظ بالمكانة التي تمتع بها في العشرينات والثلاثينات من القرن التاسع عشر ويبدو أيضا انه كان يستاء من أي تعد على امتيازاته الشخصية كزعيم بدوي. وتمشيا مع ذلك، رفض أن يخضع سواء لرغبات قبيلته أو للحكومة. وقد نشأ هذا الرفض بلا شك من حقيقة أن صفوق كان يتذكر بوضوح الفترة التي كانت فيها قبيلة شمر سيدة الجزيرة بلا منازع. وبالتالي لم يستطع الشيخ العجوز أن يتكيف مع تدخل الحكومة في شؤون القبائل[١].

وأصبحت حقائق الحياة في الجزيرة في عام ١٨٤٦ م تتناقض مع مفهوم صفوق عن قوة شمر ودوره هو بالذات الزعيم الأكبر للقبيلة، وتغيرت الظروف السياسية والاقتصادية في الجزيرة منذ العشرينات والثلاثينات. ويأتي في مقدمة هذه التغيرات الوجود الإداري العثماني المتزايد الذي زاد من الضرائب على سكان الريف والحضر والبدو في الجزيرة. وصاحب ارتفاع الضرائب زيادة الرشاوى والعقوبات الإدارية، وقد منعت هذه النفقات المرتفعة صفوق من الحفاظ على نمط الحياة المطلوبة منه كزعيم بدوي عظيم. وبالتالي تدهور نفوذه بين عشائر شمر المختلفة[٢].

في العقد التالي لهجومها الأولي في الإقليم عام ١٨٣١ م، لم تقدم القوة العسكرية العثمانية أي تحد فعال للحكام المحليين الصغار أبدا، باستثناء

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٧٢، بغداد رولينسن إلى كاننغ، رقم ٢١٩، ٢٧/ ١٠/ ١٨٤٧ م.

(٢) لايارد: اكتشافات، ص١٧١.

حملة رشيد باشا الكبيرة عام ١٨٣٥ م. ورغم ذلك ففي خلال الأربعينيات، مارس الجيش العثماني نفوذا متزايدا في الإقليم من خلال حملاته الفعالة ضد الدويلات الكردية شرق الموصل. ورغم انه لم يكن أبدا هدفا مباشرا لهذه القوة الجديدة إلا أن صفوق كان يخشى بوضوح نموها وسعى إلى تدميرها بأعماله العنيفة في الأعوام ١٨٤٦ و ١٨٤٧ م[(١)].

في عام ١٨٤٤ م بدأت مجاعة شديدة دامت سنتين، وقد أعاقت صفوق أيضا في محاولته للاحتفاظ بسلطته. لقد حرمت هذه المجاعة الشيخ من ثروته لاضطراره لبيع مجوهراته الشخصية وماشيته كي يشترى الحبوب لقبيلته. وعندما يفقد زعيم بدوي ثروته فانه يفقد أيضا هيبته بين قبيلته وكما ذكرنا من قبل كان الشيخ نجرس، شيخ شمر المنافس والذي ساندته الحكومة، يمثل تحدياً لصفوق. وقد أظهرت أعمال الشيخ صفوق في السنة التي تلت أيلول ١٨٤٦ م أنه مصمم على تدمير متحديه وإحياء الماضي[(٢)].

في خريف عام ١٨٤٦ م، تحركت شمر من شمال بغداد نحو منطقة الموصل الهادئة. ورغم ذلك، تغيرت الظروف بسرعة عندما ظهر صفوق في شمال العراق. وبدأت شمر فورا في نهب العشائر الخاضعة للخاوة جنوب حمام علي وأوقفت الحركة في نهر دجلة وأغارت على القوافل على طريق حلب-الموصل. وفي النهاية دخل صفوق مملكة بدر خان بك، الزعيم الكردي المتمرد، بالقرب من جزيرة ابن عمر.

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٣٠١، الموصل، رسام إلى كاولى، رقم ٣٨، ٢٦ / ٧ / ١٨٤٧م.

(٢) ليلرد: اكتشافات، ص١١٤.

وبعد وصوله إلى منطقة آمنة نسبياً بعث صفوق بابنه فرحان الذي كان محملا بهدايا قليلة وبوعد بالمزيد منها مستقبلا، ليتفاوض مع نجيب باشا في بغداد[١]. وقد أمل فرحان في إقناع الحاكم بإعادة تعيينه زعيما أكبر لشمر من قبل الحكومة. فاستجاب نجيب باشا إلى رجاء الشيخ الشاب. وبتقليده المنصب لفرحان، أعاد نجيب باشا عمليا قيادة شمر إلى صفوق دون اعترافه فعليا بالشيخ العجوز الذي كان يعرف انه أصبح غير محبوب. ونتج عن إعادة التعيين هذه أن فقد الشيخ نجرس المساندة الحكومية الرسمية له. كما وعد نجيب باشا أيضا بإرسال قوات عسكرية لمساعدة فرحان في الحفاظ على النظام في الجزيرة. وعلى الرغم من الغرابة إلى حد ما، من مواقف نجيب باشا تجاه عدوه المفترض، إلا انه يمكن تفسير سلوكه هذا بسهولة وهي أن حاكم بغداد أراد السلام في الجزيرة. واختار أن يتعامل مع شمر ذات الاعتبار على أساس انه وحده بإمكانه إحلال السلام بين القبائل العربية[٢].

ويبدو أن المشاكل التي واجهت صفوق في خريف عام ١٨٤٦ م كانت أكثر تعقيدا من تلك التي واجهت نجيب باشا.

أولا: كان على صفوق أن يحل مشكلة الوحدة القبلية. وكما سنرى بعد قليل، فقد استخدم كل أسلوب ممكن تصوره لتحقيق هذا الهدف.

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٣٠١، الموصل، رسام إلى كاولي، رقم ٣٨، ٢٦ / ٧/ ١٨٤٧ م.

(٢) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٧٢، بغداد، من رولينسن إلى كاولي، رقم ١٩، ٢٧/ ١٠/ ١٨٤٧ م.

ثانيا: كان على صفوق أن يحتفظ بعلاقات طيبة مع مختلف كبار الموظفين العثمانيين، لأنه بدون مساندتهم كان عليه أن يواجه ليس فقط غضبهم عليه بل وأيضا فقدانه لهيبة الاعتراف الحكومي به. إجمالا، صورت أحداث الأعوام ١٨٤٦ و ١٨٤٧م بوضوح مأزق شمر جربا في الجزيرة.

وفي تمزقها بين الحياة البدوية التقليدية والنفوذ الجديد للسيطرة الحكومية المركزية المتزايدة، سعت القبيلة إلى تحقيق التكيفات الضرورية لبقائها كقوة موحدة وقوية. ودار جوهر القضية حول مسألة إذا كان من الممكن لشيخ بدوي تقليدي مثل صفوق أن يحتفظ بمكانته كقائد لقبيلته أم لا. وكانت الإجابة على هذا السؤال، كما تظهر الأحداث التالية، سلبية.

مرة أخرى قرر صفوق الشيخ شبه الحكومي والذي يتمتع بحماية حليفه بدر خان بك، أن يعيد توحيد القبيلة تحت سيطرته بغض النظر عن النتائج [١]. وقد سببت علاقاته غير الحكيمة بالثائر الكردي بدر خان بك الحرج لنجيب باشا الذي كان الباب العالي قد وجه إليه اللوم رسميا لاعترافه بفرحان كالزعيم الرسمي لشمر [٢]. وكان صفوق يأمل في كسب ود العثمانيين بان يعاملهم باحترام وبطلب المساعدة العسكرية منهم لسحق عشائر شمر المتمردة التي رفضت الخضوع لقيادته بعد اعتراف نجيب باشا بفرحان كزعيم أكبر للقبيلة.

---

(١) محمد أمين زكي: خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، (بغداد ١٩٦١ م)، ص٢٣٦-٢٣٩.

(٢) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٧٢، بغداد، رولينسن إلى كرولي، رقم ١٩، ٢٧/ ١٠/ ١٨٤٧م.

وفي محاولة للتقليل من العداءات داخل القبيلة، دعا صفوق الشيخ نجرس للحضور إلى مخيمه لمناقشة قيادتهما المشتركة للقبيلة(*). فرفض نجرس هذا العرض. وأملا في التغلب على تردد منافسه، وعد الشيخ الكبير بان يطيع قواعد الضيافة البدوية، واقنع فرحان بان يدعو شخصيا نجرس إلى مخيم والده. بعد ذلك بقليل، زار فرحان نجرس وقدم إليه وعده الشخصي بالأمان إذا قام الأخير بزيارة صفوق[1].

قبل نجرس وعد فرحان بالأمان ووافق على مقابلة الشيخ العجوز. دخل نجرس المخيم المعادي بدون مرافقيه وأدرك بسرعة من النظرة العابسة على وجه صفوق انه غرر به. وعلى عكس العادة البدوية، لم ينهض صفوق للقاء ضيفه، بل أشار إليه فقط بالجلوس. فجلس نجرس في المكان المحدد، وبدأ صفوق في تعنيفه كمتمرد جحود. فأجاب نجرس على هذه الاتهامات بدفاع قوى عن شرفه الشخصي وروع فرحان لهذا الخرق الصارخ للعادات البدوية، وقد وقف مشدوها غير مصدق، وناشد والده بالا يلطخ شرفه بقتل ضيف ومع ذلك، لم تجد نداءاته الحارة أذنا صاغية.

تعلق نجرس في يأس بملابس هجر، ابن عم صفوق وناشده الحماية. ولكن جهوده ذهبت سدى. فقد وضع هجر رأس الضحية البائسة على ركبته حتى يمكن قطعها بسهولة أكبر. وفي لحظة قصيرة فصل صفوق رأس نجرس عن جسده ولوح بها إثباتا لعظمته امام شمر وفي عصبية مزق فرحان ملابسه ولعن فعلة أبيه فاستدار

(*) من هنا الترجمة غير موجودة عند مير بصري.

(١) لايارد، اكتشافات، ص١٢٣.

صفوق المتعطش للدماء تجاه ابنه، ولكن رفاقه العقلاء أوقفوه(١)(*).

نقمت شمر على الفعلة الوضيعة لزعيمها، فدعت إلى انعقاد مجلس للقبيلة لاختيار زعيم جديد. ومن اجل أن ينتقم المجلس للعار الذي حل بالقبيلة، انتخب عودة من عشيرة الزيدان زعيما لها. ولم يتنصل المجلس فقط من صفوق وفرحان فقط بل أقسم أيضا على الانتقام لموت نجرس بقتل صفوق وعائلته وكانت عشائر شمر المختلفة قد تفرقت في كل اتجاه مباشرة بعد حادثة الاغتيال. ورغم ذلك، وبعد انتخاب عودة كشيخ للقبيلة، تجمعت عشائر عبده وزيدان وعشائر أخرى بالقرب من ماردين للإيقاع بصفوق وقتله. وخوفا على حياته، حاول الشيخ العجوز أن يحمي نفسه بالتحالف مع عدوه القديم. قبيلة عنزة(*). وفوق ذلك، سعى إلى الحفاظ على علاقات الصداقة مع نجيب باشا وآخرين من كبار الموظفين العثمانيين(٢).

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٤.

(*) هذا النص نقله المؤلف عن لايارد المنقب الأثاري الذي كان قد زار الشيخ صفوق قبل حادث مقتل الشيخ نجرس ودونها كشاهد عيان، ولايارد معروف بأنه يروي أخبارا غير دقيقة، وحقيقة الأمر أن الشيخ نجرس قتله الشيخان هجر العمر وسميط الفهد عند بيت الشيخة عمشة بعد أن علم بأنه سوف يقتل من قبل الشيخ هجر فهرب إلى بيت الشيخة عمشة فلحق به وقتل لخلاف قديم بين هجر العمر ونجرس، لأن الأخير كان قد تزوج بابنة الشيخ صفوق عندما كان الشيخ صفوق في الأسر، وهي كانت مخطوبة للشيخ هجر. ودون أدنى شك كان الشيخ صفوق مرتاحا ومباركا لمقتل الشيخ نجرس (المقدم).

(*) إلى هنا النص غير موجود عند مير بصري.

(٢) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٣٠١، الموصل، رسام إلى رولينسن، رقم ١٣، ١٨/ ٧/ ١٨٤٧م.

اضطر صفوق إلى الاعتماد على المساندة التركية له وتراجع في اتجاه الشمال الغربي إلى ديرك المجاورة لديار بكر. وسرعان ما تحققت المساعدة الحكومية عندما أرسل مشير ماردين ٦٠٠ جندي لمساعدة أبناء صفوق في إخضاع عشائر شمر المتمردة. غضب عودة من مساندة الحكومة للشيخ صفوق، فبدأ مع محاربيه في شن غارات في كل اتجاه. ووقعت تلعفر في غرب الموصل ضحية لهجومهم. وامتد نشاط هذا القسم من القبيلة إلى الشرق فقام بغارات خاطفة على شهروبان ومدن أخرى[١]. وقام أيضا بسد معظم طرق البادية المؤدية إلى الغرب. وتسبب عودة في إحداث فوضى واسعة جدا حتى أن صفوق طلب المساعدة من نجيب باشا كي يوقفه عند حده. فوافق الحاكم على إرسال كتيبه من الجند إلى صفوق.[٢]

غادرت الفرقة العثمانية بغداد تحت قيادة كانج أغا في نهاية تشرين أول عام ١٨٤٧ م، والتقت بصفوق عند معسكره بعد ساعات قليلة خارج العاصمة. واتجهت القوة المشتركة جنوبا استعدادا للتخلص من عودة المثير للشغب. وبدأ كل شيء جاهزا مع اقتراب فريستهم إلى مسافة ملائمة لضربها. وقاد فرحان الذي انضم ثانية إلى أبيه، فرقته من محاربي شمر إلى المعركة، بينما ظل صفوق في المؤخرة تحت حماية حرسه الشخصي. وبقى كنج اغا قائد القوات العثمانية، في المؤخرة تحت زعم مساعدة صفوق في حالة أية متاعب. وبينما كان فرحان والجزء الرئيسي من شمر في طريقهم للقاء عودة، سنحت الفرصة لكنج اغا لتنفيذ أوامر نجيب باشا وبسرعة.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٣٠١، الموصل رسام إلى كاولي، رقم ٣٨، ٢٦ / ٧ / ١٨٤٧ م.

وعند صدور إشارة متفق عليها، أطلق جندي عثماني النار على ظهر صفوق ومن ثم قطع رأسه. وخلال ساعات كان نجيب باشا يمسك برأس «سلطان البر». وعندما علم فرحان بموت أبيه فر هاربا إلى قبيلة عنزة وطلب الحماية المؤقتة منها[1](*).

ومن الجدير بالانتباه بشكل خاص ملاحظة طبيعة التدخل العثماني في شؤون شمر. إن حاكم بغداد لم يكن في مقدوره أن يتحدى القبيلة عسكريا في عام ١٨٤٧ م، بعد بقائها في الجزيرة لما يقرب من أربعين سنة، فسعى إلى إضعاف قوة شمر بأساليب غير مباشرة. ومن اجل تحقيق هذا الهدف، تبنى نجيب باشا مظهرا من مظاهر السياسة المملوكية القبلية ونفذها بحذافيرها.

وربما اعتقد نجيب باشا انه باغتيال صفوق ستحل مشكلة شمر. وفي الحقيقة، أثبت الشيخ صفوق انه أخر شيخ من شمر، في القرن التاسع عشر، احتل مكانة لا ينافسه فيها احد كسيد الصحراء «ففي ظل قيادته وصلت شمر إلى ذروة قوتها العسكرية. ولسوء حظ شمر، تسبب سلوك صفوق الشخصي وعدم قدرته على التكيف مع الأوضاع المتغيرة في سقوطه. ومن اجل احتفاظ صفوق بسلطته الشخصية كان عليه أن يحل مشكلتين أساسيتين:

١- وحدة القبيلة.

٢- التدخل المتزايد للسلطة المركزية العثمانية.

---

(١) لايارد: اكتشافات، ص١٢٤.

(*) بحسب الرواية الشمرية أن الشيخ فرحان التجأ مع أهله إلى الشيخ وادي بن شفلح الشلال شيخ زبيد في وسط العراق وليس إلى عنزة.(المقدم).

وقد فشل صفوق في الحفاظ على وحدة القبيلة بسبب سلوكه الشخصي وتصرفه الغادر. وبدون مساندة القبيلة الموحدة له، لم يكن في استطاعة شيخ شمر العجوز أن يدفع التحدي الناتج عن الوجود الإداري والعسكري العثماني المتزايد دائما في الجزيرة وفي أفضل الحالات، حتى مع قبيلة موحدة، فان جهوده ضد السلطة العثمانية لم يكن من الممكن لها إلا أن تكون إجراء مؤقتا لأن التكنولوجيا الحديثة والوقت كانا ستدعمان و على المدى الطويل، مكانة الحكومة المركزية.

الفصل الثالث

فترة تكيف: التحفظ في العلاقات بين العثمانيين وشمر

١٨٤٨-١٨٦٨م

في شتاء العامين ١٨٤٧-١٨٤٨ م، استمتع نجيب باشا بانتصاره الأخير على شمر جربا. وللحظة قصيرة، بدأ التوازن السياسي في الجزيرة بشكل خاص، وفي العراق عموما، في صالح الحاكم العثماني ز لقد أخرج نجيب حقا أكثر زعماء شمر في القرن التاسع عشر شهرة من مسرح التاريخ. ورغم ذلك فالمغزى الحقيقي لهذه الحادثة لم يكن واضحا في ذلك الوقت[١]. وعند تحليل علاقات شمر بالعثمانيين خلال العشرين سنة التالية يتضح أن موت صفوق ونجاح نجيب باشا لم يوفرا للعثمانيين الانتصار الكامل الذي كانوا يسعون إليه. فبدلا من تبديد خوف البدو والتقليل من عدائهم للحكومة المركزية، فان اغتيال العثمانيين للشيخ صفوق أدى فقط إلى تعميق الهوة بين الجانبين.

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٧٢، بغداد، من رولينسن إلى كانِنغ، رقم ١٩، ٢٧ / ١٠ / ١٨٤٧ م.

وإذا نظرنا إلى ما بعد أحداث عام ١٨٤٧ م، فربما تبين أن العقدين اللذين شملا موت صفوق ووصول مدحت باشا كحاكم لبغداد في عام ١٨٦٨ م هما أهم وأفضل فترة في علاقات البدو والعثمانيين في ولاية بغداد[١]. ففي خلال هذه الفترة بدأ العثمانيون صياغة خطوط عريضة غير واضحة لسياسة قبلية منظمة استهدفت الحد من حرية النهب لشمر والقبائل البدوية الأخرى[٢]. وفي هذه الخطة اعتبر العثمانيون البدو كمجرد متوحشين يجب طردهم من الولاية.

ولكن هذه السياسة القاسية أخذت تدريجيا تفسح الطريق لأسلوب معقول في التعامل مع القبائل البدوية. إضافة إلى ذلك، فخلال الخمسينات والسنيات بدأت التكنولوجيا الحديثة تمارس نفوذا أقوى على العلاقات العثمانية البدوية. أن كيفية استخدام الجانبين لهذه الابتكارات التكنولوجية تشكل إحدى المشاكل الرئيسية في تحليل علاقات شمر والحكومة. ويجب الإشارة هنا إلى انه، من خلال نفس الفترة طرأ أيضا عدد من التغيرات داخل قبيلة شمر.

المواقف بين السلطة العثمانية وشمر:

إذا عاد المرء إلى أحداث نهاية عام ١٨٤٧ م، وجد أن نجيب باشا تمتع بموقف قوي بعد اغتياله لصفوق بن فارس. واعتقد نجيب باشا بلا شك أنه قد هدأ من انتقاد الباب العالي له بالنسبة لاعترافه السابق بصفوق

---

(١) علي حيدر مدحت: مدحت باشا: حيلته وأعماله (باريس ١٩٠٨م) ص١٤-٢٧.

(٢) البرتين جويدة: «مدحت باشا ونظام الأرض في جنوب العراق»، في شؤون الشرق الأوسط، رقم ٣، إعداد البرت حوراني: أوراق القديس انطونيو ن رقم ٢١٦ (كاربونديل، بدون تاريخ)، ص١١٢-١١٤.

كزعيم شمر الأكبر، والذي تمرد بعد ذلك على ولي نعمته[١]. ولكن في تخلصه من واحد من خصومه الرئيسين، سمم نجيب باشا، دون تعمد منه، علاقاته مع القبائل البدوية الأخرى. فقد نظر الرأي العربي في أوائل الأربعينات إلى كبار الرسمين الأتراك في ولاية بغداد على أنهم رجال غدارون وغير موثوق بهم.

ولاشك أن موقفهم هذا كان متأثرا بأعمال مثل مقتل الشيخ سليمان غنام من قبيلة عقيل من قبل العثمانيين في أوائل الأربعينات. ومع ذلك فقد أبدى الرأي العربي بالنسبة للأتراك تحسنا ملحوظا قبل عام ١٨٤٧ م مباشرة. ويبدو أن ما أدى إلى إعادة النظر هذه كان المعاملة الطيبة التي لقيها اثنان من زعماء الأكراد الثائرين، وهما بدر خان بك أمير بوتان وحليفه محمود خان من موك. ومع ذلك فبقتله الشيخ صفوق، أنزل نجيب باشا ضربة بولاء العرب لحكامهم الأتراك[٢].

لا شك أن شمر اعتبرت صفوق مذنبا لانتهاكه احد أعمدة القانون البدوي عندما قتل الشيخ نجرس بعد أن وعده بالأمان[٣]. وأثار غدر صفوق رد فعل عنيف بين رجال شمر، وأيضا بين قبائل بدوية أخرى. وفي رأيهم استحق الشيخ الملوث بالعار نفس النهاية الغادرة التي انزلها بالشيخ نجرس ورغم ذلك فان هؤلاء البدو أنفسهم استنكروا بعنف ارتكاب

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٧٢، بغداد، رولينسن إلى كانِنغ، رقم ١٩، ٢٧/ ١٠/ ١٨٤٧ م.
(٢) المصدر السابق.
(٣) لايارد: نينوى، ص ١٢٣-١٢٤.

نجيب باشا لنفس الفعلة. وكممثل لسلطة الدولة، فان فعلته قوبلت بالاستياء باعتبارها اغتصاب غير مصرح به لحقوق شمر[١].

الانشقاقات داخل القبيلة:

إضافة إلى سياسات نجيب باشا الابتزازية، حرمت أزمة القيادة، التي تبعت مقتل صفوق، شمر جربا من الوصول إلى كامل مكنون قوتهم خلال العقدين التالين[٢]. أن طبيعة القبيلة البدوية نفسها، والتي تنقسم إلى عدد من العشائر لكل منها زعيمها، تضافرت مع التحاسد البدوي الوجود وجعل من الصعب جدا عليها الحفاظ على وحدة القبيلة[٣].

إن المنافسات داخل القبيلة يمكن السيطرة عليها إلى حد ما من قبل زعيم أكبر بارع يمتلك الهيبة الشخصية والبسالة العسكرية واحترام زملائه من رجال القبيلة. ورغم ذلك، فان زعيما مثاليا مثلما كان صفوق في أوائل أيامه، كان كثيرا ما يجد مكانته مهددة من قبل زعماء العشائر المختلفة. ومع ذلك حافظ صفوق بنجاح على وحدة شمر حتى فترة قصيرة قبل موته.

ومن أجل أن تظل القبيلة قوية، فان وجود زعيم قوى كان ضرورة مطلقة. وهكذا فان القيادة القبلية القوية أثبتت أنها عنصر رئيس في الإبقاء على قوة شمر في القرن الذي تلىء عام ١٨٥٠ م[٤]. أن أسرة آل محمد، الأسرة التي عادة ما يجئ منها زعيم شمر جربا الأكبر، انقسمت على نفسها

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٧٢، بغداد، من رولينسون إلى كانتع، رقم ١٩، ٢٧/ ١٠/ ١٨٤٧م.

(٢) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد السابع، ص٨٣-٨٤.

(٣) ياتاي: النهر الذهبي، ص٢٠٦-٢١١.

(٤) شتاين: شمر جربا، ص١٧-٢٠.

بعد موت صفوق. فلم يمتلك أي من أبناء صفوق صفات أبيه، وهكذا لم يتمكن احد منهم من الحصول على مساندة رجال قبيلة شمر. ربما كان فرحان، أكبر أبناء صفوق السبع المتبقية على قيد الحياة، يمتلك أفضل الصفات كي يصبح زعيما أكبر. لقد كان يتمتع بعلاقة قوية إلى حد ما مع الحكام العثمانيين المختلفين وخدم أبيه طويلا كنائبه الموثوق به[١]. ومع ذلك فان فرحان أصبح لديه أيضا تذوقاً لجوانب معينة من الثقافة العثمانية مما أدى إلى نفور الكثير من رجال قبيلته البدويين منه[٢].

أما الأبناء الآخرون للشيخ صفوق فقد كان لديهم أيضا الإمكانية على تحدي قيادة فرحان لشمر. وهؤلاء الأبناء كانوا عبد الكريم وعبد الرزاق وفارس ومعجون وعبد الرحمن وهذال[٣][٤]. وكما حدث، كان عبد الكريم، الابن لثاني من أبناء صفوق، أقوى المتحدين لفرحان. وقاد عبد الكريم الذي كان محاربا باسلا ومحبا لحياة الصيد والغزو البدوية، عشيرة قوية خلال الستينات. وكانت روحه المتحررة تضعه دائما في نزاع مع السلطات العثمانية[٥].

ولم يؤثر أبناء صفوق الأربعة الآخرون، والذين كانوا أصغر إلى حد ما من أخويهم الأكبر، تأثيرا كبيرا على شؤون شمر حتى فترة أخيرة من

---

(١) لونكريك: أربعة قرون، ص٣٠٩.

(٢) اوستن هنرى لايارد: اكتشافات بين خرائب نينوى وبابل، (نيويورك ١٨٥٣ م)، ص٣٣٢. سوف نرى المؤلف يؤكد كثيرا على هذه الصفات لدى الشيخ فرحان ويتحامل عليه كثيرا من خلالها.

(٣) لم يكن للشيخ صفوك ابنا بهذا الاسم.

(٤) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٤٥-١٥٥.

(٥) بلنت: البدو، ص٢٢٦-٢٣٥.

القرن. وغالبا ما تؤدي المنافسات، مثل تلك التي كانت بين أبناء صفوق إلى تقويض وحدة قبائل البدو. لقد تجنبت شمر جربا. لحسن الحظ أزمة القيادة خلال العقود الثلاث من حكم صفوق، وفجأة واجهت الحقائق الكريهة لهذه المشكلة القديمة قدم الدهر. ونتيجة لذلك، اندفعوا بسرعة إلى صراعات مريرة ودموية دامت لفترة تزيد عن خمسين سنة[1]. وقد أضعف نقص الوحدة هذا شمر كثيرا.

وللمرة الأولى منذ وصول شمر إلى الجزيرة، تتوفر معلومات كافية منذ ذلك التاريخ تبين العشائر المختلفة التي تشكلت القبيلة منها. ففي عام ١٨٥٠م وأثناء ترحاله في الجزيرة، سجل اوستن هنري لبارد، عالم الآثار البريطاني المشهور والذي أصبح فيما بعد سفيرا لدى الباب العالي، الأقسام التالية للقبيلة:

١- خرصة (وكانت تضم البريج والفداغة[2] والعليان وغشم والهضبه).

٢- عبده.

٣- الصايح (وضمت الصبيحي واسلم).

٤- الثابت.

٥- عماود.

٦- التجاغفة.

٧- الغضا.

٨- حريرة.

---

(١) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٤٤-١٤٨.

(٢) الفداغة من أقسام سنجارة وليسوا من الخرصة.

٩ - غفيلة.

١٠- زميل[1].

وكانت كل عشيرة أيضا تنقسم إلى وحدات أصغر، وكان لها جميعا قادة عوائل. وكان هؤلاء الكبار ينتخبون واحداً من بينهم كزعيم لمجموعتهم. وكانت كل هذه العشائر قد هاجرت إلى الجزيرة من نجد. وفي منتصف القرن التاسع عشر وعندما اكتملت تقريبا هجرة شمر جربا، كان عدد عشائر القبيلة عشرة.

وكانت تنقص العشيرة الواحدة القوة الكافية للسيطرة على الإقليم، وهكذا كانت شمر جربا تحتاج إلى درجة كبيرة من التماسك حتى يكون لها وزنها وحتى تستفيد من كل قوتها الكامنة ببراعة وكان هذا التماسك ينبع من قيادة قبلية مركزية قوية وفرها آل محمد، الذين يشار إليهم عادة بعائلة الجربا. لقد استمدت العائلة قوتها وهيبتها من حقيقة أن الشيخ مطلق، وهو قائد مشهور، قد قاد شمر من نجد إلى بلاد الرافدين خلال الحروب الوهابية في نهاية القرن الثامن عشر. ونتيجة لصفات القيادة التي أظهرها هو أفراد عائلته الذين خلفوه(*)، استمرت عائلة مطلق تترأس مصائر القبيلة كلها[2].

---

(١) لايارد، بابل، ص٢٦٠.

(*) ليس الشيخ مطلق أول من قاد شمر من أسرة الجربا، بل أن الجد الأعلى محمد الجربا وابنه سالم الشريف هما من قادا هذا التجمع القبلي المعروف بشمر الحديث في نجد قبل ٢٠٠ سنة من مجيء الشيخ مطلق الجربا، والذين ينحدر نسبهم من الأشراف الحسنيون حكام مكة. (المقدم).

(٢) العزاوي: عشائر العراق، المجلد الأول، ص١٣١ -١٣٢.

ومن الناحية النظرية كان بإمكان أي زعيم عشيرة أن يقود القبيلة شريطة أن يمتلك الإقدام المطلوب والولاء العسكري. وفي الواقع جاء كل قادة القبيلة في القرنين التاسع عشر والعشرين من آل محمد. وعلاوة على ذلك، فان كل زعيم أكبر لشمر منذ العام ١٨٤٧م وإلى يومنا الراهن كان من سلالة صفوق بن فارس. ورغم أن آل محمد لم يتخلوا أبداً عن سيطرتهم على شمر، فان الصراع على القيادة كثيرا ما حدث. ومع ذلك كانت النزاعات، بشكل شبه دائم بين أخوة وأعمام وأبناء أخوة وأبناء العم[١].

أن عشائر شمر المختلفة، التي خضعت دائما لقيادة آل محمد، كثيرا ما كانت تنتقل في ولاءها من زعيم إلى أخر. وكانت هناك اعتبارات رئيسية عديدة تحدد أي زعيم تتبعه العشيرة. كانت المسألة ذات الأهمية الأولى هي أي زعيم يمكنه أن يوفر أعظم الفرص لغارات مربحة. وكان عامل مهم أخر هو: أي قائد يستطيع أن يمنع الحكومة المركزية من التدخل في شؤون القبيلة. وتركزت اعتبارات أخرى حول شخصية القائد وعدد المؤيدين له وثروته[٢]. ونتيجة لذلك اختلف نمط الولاءات التي كانت تربط عشائر عديدة بالزعيم الأكبر لشمر تبعا لقوة الأفراد المختلفين من عائلة آل محمد التي كانت تشكل قيادة القبيلة. وقد ظهر نمط من الولاءات داخل القبيلة عبر السنين. وسوف يتحدد بشكل أكبر هذا النمط في الفصول التالية.

---

(١) مكي الجميل: البدو، (بغداد ١٩٥٧م)، ص٢٧٦.

(٢) لايارد: نينوى، ص١٢٤.

شؤون شمر والعثمانيين:

١٨٤٧-١٨٥١م

بعد أن اغتال إبراهيم صفوق، هرب فرحان بن صفوق غربا من بغداد نحو ديار عنزة في البادية السورية[(١)]. ورغم أن القبليتين كانتا عدوتين لدودتين، إلا أن عشيرة أو شخصا من عنزة أو شمر على علاقة سيئة بقبيلته كان من الممكن أن يجد ملجأ يلجا إليه لدى القبيلة الأخرى[(٢)]. وهكذا هرب فرحان من نقمة كل من نجيب باشا ورجال قبيلته الذين سعوا إلى قتله انتقاما لمقتل الشيخ نجرس.

وفي كانون أول (ديسمبر) عام ١٨٤٧ م، وبعد حوالي شهرين من موت الشيخ صفوق، ظلت أحوال شمر الداخلية مضطربة. وأدى هذا الصراع الدموي إلى غارات دائمة أوقعت الفوضى في جزء من الجزيرة. ولعدم قدرته على استعادة النظام بين عشائر شمر المنشقة بالقوة العسكرية، سعى نجيب باشا إلى السيطرة عليهم بوسائل أخرى. فاستخدم الإستراتيجية الكلاسيكية في التقسيم والحكم، واعترف بالشيخ عودة كزعيم أكبر معين من قبل الحكومة[(٣)].

واستمر النزاع داخل القبيلة طوال العام ١٨٤٨ م. ولكن عنزة قامت بغزوة كبيرة في ربيع تلك السنة مما أوقف مؤقتا الصراعات الدموية

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٧٢، بغداد، رولينسن إلى كانتغ، رقم ١٩، ٢٧/ ١٠/ ١٨٤٧ م.

(٢) لايارد: بابل، ص ٢٦٠.

(٣) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٣٠١، الموصل، رسام إلى كاننغ، رقم ٢٤، ١٥ / ٥/ ١٨٤٨م.

المستمرة في شمر [١]. فقد عبرت عنزة الصحراء السورية إلى الجزيرة تحت قيادة اثنين ممن قاما بغزو شمر كثيرا، هما دهام بن غبين وابن هذال. وعندما نجح الأخير في إقامة اتصال مع شمر على الجانب الشرقي من الفرات، لم يمضي وقت طويل قبل اندلاع الغارات. وكما هو معتاد، كان أكثر المتضررين خلال القتال هم المزارعين المستقرين وسكان القرى الصغيرة والقوافل المارة خلال الإقليم [٢].

وفي محاولة منه لاستغلال الأوضاع غير المستقرة في الجزيرة، عرض نجيب باشا مساندته لشمر على عنزة وأعاد تعيين فرحان الذي كان دخله لا يزيد قليلا عن مستوى الكفاف حتى في أحسن الأوقات. وعندما كان ضغط الضرائب يشتد كثيرا فان القبائل وأيضا مناطق بأكملها غالبا ما تمردت [٣]. وبوسيلة أو بأخرى جمع نجيب باشا ثروة كبيرة خلال فترة حكمه بفرض ضرائب باهظة على شعب العراق. وكان لسياساته الابتزازية تأثيرا ملحوظاً في إقليم الهندية جنوب بغداد حيث كانت الضريبة السنوية تقدر قانونيا بـ ١٧.٨٠٠ باوند إسترليني. وفي عام ١٨٤٩ م، اقطع نجيب باشا الإقليم للشيخ وادي زعيم قبيلة الزبيد الذي رفع الضريبة بشكل متعسف إلى ١٠٥.٠٠٠ باوند إسترليني [٤].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٣٠١، الموصل ن من رسام إلى كاننغ، رقم ٣٨، ٣٠ / ١٠ / ١٨٤٨ م.

(٣) بار: «التزام»، في دائرة المعارف الإسلامية ٢، المجلد الثالث، ص١١٥٤-١١٥٥.

(٤) لوريمر: المعجم الجغرافي، المجلد الأول، الجزء الأول ب، ص ١٣٦١-١٣٦٢.

وقد تسببت هذه الزيادة في الضرائب التي وصلت إلى خمسة أضعاف إلى تمرد قبائل الهندية التي كانت عادة مسالمة وطرد الشيخ وادي المكروه من الإقليم. وقد اضعف نجيب باشا من نفوذه كحاكم عندما خرق اتفاق سلام عبدي باشا، قائد الجيش العثماني في ولاية بغداد، والقبائل المتمردة. وفي نفس الوقت تمردت شمر مرة أخرى تحت قيادة الشيخ عودة ونشرت نوعها الخاص من الفوضى على جانبي نهر دجلة(١).

وفي أعقاب نزاعه المكشوف مع عبدي باشا، فقد نجيب باشا منصبه كحاكم. وفي محاولة لتجنب المصاعب المالية التي حلت بالعراق في ظل الحاكم السابق، منح الباب العالي عبدي باشا زيادة كبيرة في الراتب(٢). وقد ارتكب الحاكم الجديد حماقة بتخصيص قوة عسكرية كبيرة لإخضاع القبائل الجامحة في الأهوار الغربية. وكان يأمل في السيطرة على القبائل المتمردة بإقامة سد عند رأس شط الهندية ليقطع إمدادات المياه عن منطقة المستنقعات هذه. وقد انتهى هذا المشروع بالفشل عندما حطمت مياه النهر الهادرة سدوده العديدة(٣). ونتيجة لحماس عبدي باشا المفرط ضعف الوضع الهادي في الإقليم كثيرا. وعندما اندلع تمرد كردي في الشمال الشرقي من العراق في بداية عام ١٨٥١ م، أسرع الحاكم بإرسال معظم قواته النظامية لمواجهة التحدي وبينما كان الجيش العثماني يطارد الأكراد الذين قاموا بأعمال نهب، اندلع في جنوب العراق تمرد قبلي واسع وجد

---

(١) وزارة الخارجية: ١٩٥ / ٣٠١ .رسام إلى كانتغ، رقم٣، ١٩/ ١١/ ١٨٤٨ .

(٢) لوريمر: المعجم الجغرافي، المجلد الأول، الجزء الأول ب، ص ١٣٦١-١٣٦٢ .

(٣) المصدر السابق.

عبدي باشا نفسه في موقف يائس لوجود حفنة فقط من القوات الحكومية لديه، فاتجه إلى الشيخ فرحان يطلب المساعدة[١].

ناشد الحاكم الشيخ فرحان بان يحضر رجال قبيلته إلى جنوب العراق لإخماد القبائل المتمردة فأسرعت شمر، التي كانت دائما مستعدة للقتال، نحو الإقليم إلى الجنوب من بغداد حيث بدأت غاراتها بطريقة عشوائية. وأولت اهتمامها الجشع بكل من الأصدقاء والأعداء. وقد نتجت هذه الغارات من حقيقة أن عبدي باشا لم يوفر لشمر وعائلاتها المؤن الكافية. وفي بحثها عن الطعام أغارت شمر على مخازن حبوب عديدة على امتداد الفرات. وفي هذه الغارات نزل الدمار بالحلة بشكل خاص[٢].

وعندما أدركت شمر عدم قدرة عبدي باشا على وقف نشاطاتها، قامت بأعمال نهب على طول الطريق من بغداد إلى الكوت. وأصبحت هذه الإزعاجات شديدة جدا حتى أن عبدي باشا تخلى تماما في النهاية عن اتفاقه مع شمر وعندما شعر فرحان بأنه قد غرر به، تنصل من اتفاقه مع عبدي باشا. ولم يكن في استطاعة فرحان أن يسيطر على رجاله من شمر حتى لو أراد حقا أن يوقف غاراتهم غير القانونية[٣].

وقد أوضحت نتائج هذه المحاولة الأولى لاستخدام شمر كقوات غير نظامية أنه من أجل أن تكون هذه القوات فعالة يجب أن تكون السيطرة

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥/ ٣٣٤، بغداد، من كمبال إلى كاننغ، رقم ٤١، ٢٠/ ١١/ ١٨٥٠ م.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وزارة الخارجية ١٩٥/ ٣٣٤، بغداد، من كمبال إلى كاننغ ن رقم ٥٠، ١٨/ ١٢/ ١٨٥٠ م.

عليها أكبر.. وتعلم عبدي باشا في حزن أنه لكي تكون القوات البدوية الإضافية فعالة:

١- لا يمكن لعوائلها أن ترافقها إلى المعارك.
٢- يجب توفير المؤن لها.
٣- يجب منع غارات النهب بوضوح[١].

وفي عام ١٨٥٢ م حل نامق باشا محل عبدي باشا كحاكم لبغداد. ومثل الكثيرين ممن سبقوه، اعتقد الحاكم الجديد أن بإمكان القوة العسكرية أن تحل كل الصعاب القبلية. وهكذا دفعت أعمال نامق باشا الخشنة وسلوكه الفظ تجاه قبيلتين مختلفتين من القبائل الجنوبية إلى الثورة مرة أخرى. وأعلن وادي بك شيخ الزبيد الحرب على الباشا الجديد وأقام مركز قيادته عند المسيب على الفرات. وانضم رجال قبائل الدليم وعنزة إلى الزبيديين على الباشا الجديد الذين نهبوا وسلبوا كما شاءوا. وأحالت أعمال نهبهم جنوب العراق مرة أخرى إلى أرض خراب. وفي مواجهة مشكلة إعادة النظام الصعبة، اضطر نامق باشا، مثل سلفه، إلى استدعاء الشيخ فرحان[٢].

أدرك فرحان الموقف الضعيف لنامق باشا فاستدعى الفين من محاربي شمر. وكان نامق باشا أيضا على علم بسوء تصرفات شمر في عام ١٨٥٠ م عندما استخدمت أخر مرة كقوات إضافية وسعى إلى منع تكرار هذه

---

(١) المصدر السابق.
(٢) العزاوي: تاريخ العراق، الجزء السابع، ص٩٧.

الصعوبات. وفي هذه المرة صدرت الأوامر إلى شمر بـان تـترك عوائلهـا في شمال الجزيرة[١].

استعد فرحان مع رجال قبيلته لمسيرة سريعـة نحـو جنـوب العـراق. ورغم أن شيخ شمر كان يرغب بلا شك في مساعدة الباشا المطـوق، إلا أن رجاله خططوا لاستغلال الأوضاع المضطربة فعلا في جنوب العراق وذلك بالقيام بغاراتهم الخاصة. كما خططت عشيرة الزيدان لإنقـاذ الـشيخ سـمير قائدها المسجون في احد سجون بغداد منذ عام ١٨٥١م. ونتيجة لهذا، تلقى نامق باشا مساعدة ضئيلة من شمر لسحق التمرد في جنوب العراق[٢].

وخلال الـسنوات المـضطربة في أوائـل ومنتـصف الخمـسينات مـن القرن التاسع عشر، كانت تقارير المسافرين والمستشارين الأوربيين تشير إلى أن معظم ولاية بغداد عمليا كان ينقصها الـسيطرة الإداريـة المتينـة[٣]. لقـد عانى كل حاكم من المشكلة المستمرة في كيفية السيطرة على القبائـل العربيـة المثيرة للفوضى. وكما أوضحنا من قبل، نجم تمرد القبائل في الجـزء الجنـوبي من الولاية، خاصة تمرد قبائل المنتفك وزبيد عن الضرائب المجحفة. وكـان من الممكن معالجة هذه المشكلة بالقضاء على المساوئ الإدارية.

ومع ذلك، فقد كانت مشكلة الـسيطرة عـلى القبائـل البدويـة، مثـل شمر، أكثر تعقيدا وعلى خلاف القبائل الزراعية المستقرة في جنوب العراق، كانت ثقافة البدو تتطلب أن يثبـت رجـال القبائـل شـجاعتهم في غـزوات

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٣٦٧، بغداد، من كمبال إلى كاننغ، ٢٦ / ٤ / ١٨٥٢م.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر لايارد: بابل ونينوى، و. ك. لوفتس: رحلات وبحوث في كلدانيا وساسـونيا، (لندن ١٨٥٧ م)، هرمز رسام، أشور وبلاد نمرود (نيويورك ١٨٩٧).

متكررة. وبسبب هذا النمط الثقافي، لم يكن بإمكان الحكومة أن تصحح أية مساوئ وتتوقع أن يوقف البدو غاراتهم.

وبعد موت الشيخ صفوق في عام ١٨٤٧ م حاول كل حاكم عثماني أن يسيطر على قبائل البدو المتمردة بقوة السلاح فقط. ورغم ذلك فشل الجيش العثماني من أن يهزم قبائل البدو القوية لأنه كان جيشا صغيرا وينقصه التدريب المناسب. وبسبب سياسة مواجهة القوة بالقوة كثيرا ما أغضبت الأعمال القاسية لهؤلاء الحكام المختلفين زعماء البدو. وبدلا من التعامل مع هؤلاء الزعماء كرجال جديرين بالاحترام، عاملهم كبار الرسميين العثمانيين بقسوة واحتقار كمنبوذين ومتمردين مما أساء بشكل أكبر إلى أحاسيسهم البدوية وقد وصف احد الرسميين البريطانيين سياسة نامق باشا بقوله انه:

(بأعماله القاسية التي لم يكن هناك حاجة إليها بتاتا... دفع بزعماء القبائل الواحد تلو الأخر، إلى اتحاد معاد للحكومة. وبسبب ضعفه العسكري أحيانا وباستعماله في أحيان أخرى إجراءات غدر وأعمال قسوة تثير الاشمئزاز عند سماعها، وبالاستعمال الدائم للغة عنيفة وتكبر في التصرف-وكانا أكثر الأشياء التي لا يمكن أن يتحملها بدو الصحراء، أثار تماما سخط وغضب السكان العرب في الإقليم حتى انه احتاج إلى قوة من ٥٠ ألف رجل للقضاء على المعارضة واستعادة الهدوء)[1].

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٣٦٧، بغداد، كمبال إلى مولزبرى، رقم ١٤، ٢١ / ٧ / ١٨٥٢م.

وقد تدهور الأمن في الأقاليم خلال الأعوام ١٨٥٣ إلى ١٨٥٦ م عندما أرسلت ولاية بغداد عددا كبيرا من القوات لتحارب في حرب القرم[١]. وفي عام ١٨٥٦ م بدا أن فرص الأتراك في العراق قد وصلت إلى أدنى نقطة لها. إن سياسة قبلية مفلسة قامت على غباء مضاعف من القوة، التي لم تكن كافية، وحكم إداري ضعيف توفر منه الكثير، قد دمرا إقليما يكمن فيه الثراء. وكما قال قنصل عام بريطاني: «يندر أن يوجد ميل من هذه الأرض الواسعة، فيما وراء الحدود المباشرة للمدن الكبيرة، يمكن أن يقال انه تحت السيطرة الحقيقية للسلطات التركية[٢]».

نتائج قيادة شمر غير الفعالة

أن سنوات السيطرة الإدارية والعسكرية الحكومية الضعيفة كانت من الممكن أن توفر فرصة ممتازة لشمر جربا كي توسع من قوتها ونفوذها. ورغم ذلك، فان المشاكل داخل القبيلة، منعت شمر من الاستفادة من هذه الفرصة الذهبية. ولكي تستغل القبيلة الضعف العثماني كانت تحتاج إلى قيادة قبلية قوية. أن مثل هذا الاتجاه كان من الممكن أن يزيد عائدات القبيلة من خلال انتزاع مدفوعات الخاوة من قبائل ومدن مجاورة. ومن سوء حظ القبيلة لم يبرز قائد قوى ليرث تراث صفوق بن فارس.

لقد تولى الشيخ فرحان، ابن صفوق الأكبر ونائبه الموثوق به، وظيفة زعيم القبيلة الأكبر، ولكن كانت تنقصه الصفات التي جعلت من أبيه زعيما ناجحا. فلم يكن لفرحان بلاغة أبيه وتمكنه من اللغة العربية ولا

(١) رسام: اشور، ص٤٢.

(٢) المصدر السابق.

شجاعته من المعارك فبلا شك قللت حقيقة انه لم يشن أبداً غارات جريئة ضد الأتراك أو قبائل أخرى من الإعجاب به كزعيم بدوي[(١)].

ولكن فرحان بن صفوق ظهر لنا من خلال المصادر المعاصرة له كرجل ذو آراء حصيفة حاول أن يحتفظ بعلاقات ودية مع رجال قبيلته ومع منافسيه الحكوميين. فقد نجم عن حسه المعتدل ونفوره من الحياة البدوية ومن الغزو والتظاهر بالشجاعة عن عاملين:

أولا: أمه التي، على خلاف عادة البدو، جاءت من بغداد.

ثانيا: عندما كان فرحان لا يزال صبيا، صحب أباه إلى العاصمة العثمانية حيث تكون لديه تذوق للثقافة العثمانية. لقد أعاق هذان العاملان فعاليته كزعيم شمر الأكبر[(٢)].

أن ارتباطات فرحان الوثيقة بحكام بغداد والموصل زادت من ضعفه في توحيد القبيلة وباستثناء فترات قصيرة من ألا حظوة، ساندت الحكومة فرحان كقائد شمر المفضل لديها بعد تعيينه زعيما أكبر عام ١٨٤٦ م. وفي مقابل مساندة الحكومة له، كثيرا ما كان فرحان يرد البضائع المسلوبة ويعرض مساعدته في قمع عشائر شمر المنشقة[(٣)].

وقد أقام فرحان تعاونه الوثيق مع باشا بغداد على اعتبارين عمليين:

١- كزعيم أكبر للقبيلة، كان يتلقى راتبا شهريا من الحكومة ساعده على الاحتفاظ بولاء عشائر مختلفة من شمر.

---

(١) لايارد: بابل، ص٣٢٢.

(٢) بلنت: البدو، ص٣٧٦

(٣) رسام: اشور، ص٤٢.

٢- استخدم المكانة الرفيعة كزعيم أكبر للقبيلة من قبل الحكومة ليحصد من الإعجاب المحدود بقيادته واقر فرحان بمشاكل قيادته في عام ١٨٥٠ م عندما اعترف بعدم قدرته على توحيد القبيلة المقسمة[١].

وإلى جانب فقدانه الشخصي لصفات القائد المهيب، فان الانقسام الداخلي للقبيلة، والذي نتج عن مقتل الشيخ نجرس ١٨٤٧ م، منع فرحان أيضا من توحيد شمر. فقد رفضت تلك العشائر التي ساندت نجرس أن تتبع الشيخ فرحان لتورطه غير المباشر في مقتله الغادر. وملأ تورط ألشيخ هجر أيضا العشائر التي ساندت نجرس بالمرارة[٢].

أن هذه الأعمال ملأت عشيرة زيدان بالمرارة، وكانت قد ساندت نجرس ضد عشيرة الصايح التي منها هجر[*]. وفضلا عن هذا التنافس بين العشائر، فان التآمر المستمر من شيوخ شمر الآخرين ضد فرحان جعل من الصعب عليه توحيد القبيلة[٣]. ومع مرور الوقت شكل عبد الكريم بن صفوق، الذي تمتع بشهرة متنامية بسبب حبه للغزو وعدائه للسلطات العثمانية، أكبر تحدي لمكانة فرحان كقائد للقبيلة. وخلال الخمسينات، شكلت عشيرة عبدة القوية تحديا ثانيا لزعامة الشيخ فرحان[٤].

---

(١) لايارد: بابل، ص٣٢٢.

(٢) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٧١٧، الموصل، من رسام إلى بولور، رقم ٢١، ٢٢/١خ ٢/ ١٨٦٢ م.

(*) هجر من الجربا وليس من الصايح. (المقدم).

(٣) رسام: آشور، ص٤٥.

(٤) المصدر السابق.

وفيما بين الأعوام ١٨٥٣ و ١٨٥٦ م قامت عشائر شمر بغارات ثانوية. ورغم أن هذه الأحداث لا تستحق أن نتناول كل منها على حدا، إلا انه مع ذلك نتج عنها حالة مستمرة من عدم الأمان في الجزيرة. واتجهت سياسة الحكومة إلى الشيخ فرحان كي يسيطر على عشائره ويوقف غاراتها على المناطق المستقرة في الجزيرة. ورغم ذلك وبسبب شعبيته المحدودة، لم يستطع الشيخ فرحان تنفيذ رجاءات الحكومة واستمرت غارات شمر دون توقف. ووقعت القوافل والمسافرون والمزارعون المستقرون وقبائل البدو الرحل الضعيفة ضحية لابتزازات شمر. ولم تكن الظروف غير المستقرة في الجزيرة مثالا منعزلا على عدم قدرة الحكومة في السيطرة على القبائل العربية. وفي الحقيقة كانت الكثير من مناطق ولاية بغداد تعاني من نفس الصعوبات[١].

شمر والعثمانيين:

١٨٥٧-١٨٦١ م

إن نقص القوات العسكرية أثناء حرب القرم عطل جهود محمد رشيد باشا في الحفاظ والسيطرة على الريف العراقي[٢]. ومع ذلك، فعندما انتهت حرب القرم عام ١٨٥٦ م، بدأ العثمانيون في مواجهة مشكلة البدو بطريقة أكثر تنظيما وثباتا. وتركزت سياستهم الجديدة حول فكرتين:

١- خلق قوة عسكرية أقوى لضرب تمرد القبائل.

---

(١) وزارة الخارجية ١١٩٥ / ٣٠٤، الموصل، من رسام إلى روز، رقم ١، ٣/ ١/ ١٨٥٣ م، رسام: أشور، ص٤٥.

(٢) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد السابع، ص١٠٧-١٠٨.

٢- استخدام التكنولوجيا الحديثة لتحييد الاتصالات التقليدية والمزايا التنظيمية للبدو.

ورغم أن ذلك كان خطوة في الاتجاه الصحيح إلا أن السياسة العثمانية الجديدة عكست مرة أخرى المعالجة السلبية التقليدية ألا وهي إنزال العقوبة بالبدو بدلا من عرض المكافآت والإغراءات المناسبة عليهم لوقف غاراتهم. ومن هنا سعى حكام بغداد، من عام ١٨٥٦ م إلى نهاية الستينات للسيارة على شمر من إخلال التخويف العسكري.

لقد أدرك العثمانيون أن بدو الجزيرة كانوا يمثلون جانبا واحدا من المشكلة القبلية في العراق، فأقاموا برنامجا ذا قاعدة عريضة للسيطرة على رعاياهم المتمردين. وكانت قبيلة عنزة، التي ديارهم تقع غرب نهر الفرات، الهدف الأول لهذه السياسة الجديدة. وسعى العثمانيون إلى كبح جماح هذه القبيلة المتمردة بالقوة العسكرية. فبدؤوا بإعادة سيطرتهم على طريق القوافل بين حلب وبغداد على امتداد نهر الفرات. واتخذت دير الزور، وهي تقريبا في منتصف الطريق بين حلب وبغداد، كنقطة بداية منطقية للسيطرة على عنزة[١].

ومن اجل ضمان الاستمرارية الإدارية، أصبحت دير الزور سنجقا مستقلا في ولاية حلب في عام ١٨٥٤ م. وبعد عام من الحملات القبلية غير الناجحة حل يوسف باشا، احد كبار الرسميين الحكوميين، محل الحاكم المدني يوسف بك شريف[٢]. وفي أثناء فترة حكمه أقام يوسف باشا حصنا

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٣٧٧، بغداد، كمبال إلى ستراتفورد دي ريد كليف، ١٥/ ٢/ ١٨٥٨ م.

(٢) لويس موسيل، الفرات الأوسط: تصميم طوبوغرافي، (نيويورك ١٩٢٧م)، ص٣.

قويا، شن منه عدة حملات ناجحة ضد عنزة. وفي السنوات التالية، ساعدت التحصينات الأخرى، التي أقيمت على امتداد طريق حلب-بغداد، في السيطرة على القبائل العربية المتمردة[١].

وبناءً على خبرة يوسف باشا في دير الزور، ادخل رشيد باشا عدة إصلاحات في العراق استهدفت السيطرة الأفضل على القبائل العربية. وتبعا لأوامر مباشرة من الأستانة، أعاد حاكم بغداد تنظيم القوات العسكرية الإقليمية. ويفترض أن قوات النظام الجديدة وفرت للحاكم جيشا قويا[٢]. وفي عام ١٨٥٧ م، استخدم باشا بغداد عدة ابتكارات تكنولوجية من اجل التغلب على تفوق البدو في الحركة وروح التضامن بينهم وقدرتهم الحربية.، إن إدخال القوارب المسلحة في دجلة في نهاية الخمسينات قلل فورا من قدرة شمر في الإغارة على السفن التجارية التي تمخر النهر بين بغداد والموصل[٣].

وبدأت ميزة عسكرية تقليدية أخرى للبدو من الاختفاء مع إدخال وسيلة البرق عام ١٨٦١ م. وقد منعت الاتصالات البطيئة العثمانيين، لسنوات، من شن عمليات عسكرية كبيرة ومنسقة تنسيقا حسنا ضد شمر. ومع إدخال البرق، أصبح في الإمكان تنسيق هجوم عسكري من بغداد يستخدم فيه جنود من حلب واورفة وماردين وديار بكر والموصل وكركوك. وهكذا واجهت شمر في نهاية الخمسينات، ليس فقط عزما أقوى للسيطرة على القبائل العربية المتمردة، ولكن أيضا وللمرة الأولى تحديا من

---

(١) ماعوز: إصلاحات عثمانية، ص١٤١.

(٢) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد السابع، ص١٢٠-١٢٢.

(٣) لونكريك: أربعة قرون، ص٢٩٣-٢٩٤.

جيش منظم تنظيما أفضل يمتلك أسلحة ووسائل اتصالات متطورة تحت تصرفه[١].

تغير في العلاقات العثمانية الشمرية:

١٨٥٧-١٨٥٨م

حاول كل من رشيد باشا وخليفته عمر باشا، مدعومين بالابتكارات السابقة، وقف أعمال شمر في السلب والنهب ولتحقيق هذا الهدف حملا الشيخ فرحان مسؤولية أعمال قبيلته. ورغم أن الشيخ فرحان تحمل سابقا مسؤولية سلوك شمر إلا أن عدم قدرته على توحيد القبيلة منعته من وقف غارات شمر العديدة[٢].

وفي أثناء هجرة شمر إلى الشمال في شباط ١٨٥٧ م، أقنع رشيد باشا الشيخ فرحان بزيارة بغداد حيث ناقش الشيخ شؤون القبيلة مع السلطات التركية. وخلال هذا اللقاء، اقنع رشيد باشا الشيخ فرحان بالتوقيع على اتفاق مكتوب حدد مسؤولياته كزعيم اكبر حكومي[٣].

ودعت هذه الاتفاقية إلى مبادلة المصالح بين الشيخ فرحان ورشيد باشا. أن مجرد فكرة اشتراك احد الرسميين العثمانيين مع زعيم بدوي في اتفاق يفترض انه ملزم تكشف عن تغير في الموقف. فقبل ذلك بسنوات قليلة كانت السياسة الحكومية الملائمة والوحيدة ضد « البلاء البدوي » هي الإبادة من خلال عمل عسكري منسق. وهكذا وللمرة الأولى، قدم حاكم

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٥٢١، بغداد، كمبال إلى بلور، رقم ٨، ٢٦ / ٢ / ١٨٦٢ م.

(٢) رسام: اشور، ص٤٥.

(٣) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٥٢١، بغداد، كمبال إلى ستراتفورد دي ريدكليف، رقم ٥، ٤/ ٢/ ١٨٥٧ م.

عثماني إلى شمر عرضا منصفا ولو من بعيد. وقد دعت هذه الاتفاقية، بشكل محدد، إلى وضع قوة من خمسمائة من حملة بنادق الفتيل تحت إمرة زعيم شمر الأكبر. وأقامت هذه القوات مع شمر على الرغم من أن رواتبها وإمداداتها جاءت من العثمانيين[١].

وفي مقابل القوات الحكومية، وافق فرحان على أن يسيطر على غارات شمر العشوائية. وكان معنى هذه المسؤولية الجديدة هو امتناع فرحان عن جمع الخاوة والإتاوات من القرى، والبدء في إعادة الممتلكات المنهوبة. وقد زاد رشيد باشا من الراتب الشهري للشيخ فرحان عندما أدرك أن التوقف عن جمع الخاوة وعن الغزو سيؤدي إلى خفض عائدات شمر. وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقية التفصيلية يبدو أنها انهارت في العام التالي إلا أنها مع ذلك كانت نقطة تحول في علاقات العثمانيين وشمر[٢].

وفي أعقاب اتفاقية عام ١٨٥٧م بين فرحان ورشيد باشا، تقدم عمر باشا، الذي خلف الأخير بمشروع آخر للسيطرة على نهب وسلب شمر. فقد خطط عمر باشا، بعد أن روعه ما عليه أن يدفعه لشمر من ابتزازها للراتب الشهري، بأن يقوي الشيخ فرحان بإمداده بفرقة دائمة من ثلاثمائة من محاربي شمر الفرسان مع إمدادهم بإعتمادات مالية حكومية. وكان على زعماء قبيلة شمر أن يقودوا هذه القوة ويتلقوا رواتب تتناسب مع راتب ضابط تركي من نفس الرتبة. وكان على هذه القوة غير النظامية، في مقابل إمداداتها برواتبها الشهرية ومتطلبات خيلها، أن تخمد التمرد القبلي المنسق في أنحاء الإقليم وخدمت مثل هذه القوة هدفين:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

١ - أعطت الشيخ فرحان القوة للسيطرة على عشائر شمر المنشقة.

٢ - خلقت قوة إضافية كي تساعد باشا بغداد في الحفاظ على الأمن[١].

لم تكن برامج رشيد باشا وعمر باشا بوضوح حلاً كاملاً لوقف غارات شمر ولكنها كانت تمثل اختلافاً رئيسياً عن السياسة القبلية العثمانية السابقة. وكمنت أهميتها الأولية في حقيقة أن الحكومة العثمانية وللمرة الأولى عرضت على الشيخ فرحان اتفاقية متبادلة مناسبة وعادلة ولم تعد شمر تعامل كمجرد أشياء ضارة يجب القضاء عليها[٢].

وبعد اتفاقية عام ١٨٥٨ م بقليل، استمرت الحكومة في أن تعامل الشيخ فرحان معاملة طيبة عندما عهدت إليه بمسؤولية حراسة خط الاتصال البرقي الذي انشأ حديثا وكان يمر بديار شمر الممتدة من نهر الخابور إلى نهر الزاب الأكبر. ومقابل خدماته، تسلم الشيخ فرحان منحة شهرية تقدر بـ ٣٦٠٠ قرشا، أو رواتب ما تساوى تقريبا ٣٠ فارسا غير نظامي. ومثل المشروعين السابقين، كانت اتفاقية خط البرق، رغم عدم فعاليتها على المدى الطويل، نقطة تحول في السياسة القبلية العثمانية[٣].

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٥٧٧، كمبال إلى ستراتفوردي ريدكليف، رقم ٨، ١٨٥٨/٢/٤م.

(٢) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٦٧٣، بغداد، كمبال إلى بلور، برقية رقم ٢، ١٨٦٢/٤/٨م.

(٣) المصدر السابق.

فترة الشكوك:
١٨٦٠-١٨٦٢م

واجهت شمر، بعد عام ١٨٦٠ م، أنموذجين من الأعمال العثمانية لوقف غارات القبيلة:

١- ازداد مغزى التهديد بعمل عسكري مباشر وذلك بسبب الإصلاحات التنظيمية والابتكارات التكنولوجية التي أدخلت في نهاية الخمسينات. أن التحصينات العسكرية على امتداد الفرات، والنظام الجديد، والبرق وزيادة عدد القوارب الحربية في دجلة-زاد كل ذلك من القدرة العسكرية العثمانية الكامنة.

٢- الضغط غير المباشر بعد أن أصبح الشيخ فرحان مسئولا عن السلوك غير السوي للقبيلة وعن إعادة البضائع المنهوبة. ونتيجة لذلك، دارت العلاقات الشمرية-العثمانية من عام ١٨٦٠ إلى عام ١٨٦٨ م حول جهود الحكومة المنسقة للسيطرة على شمر وصراع القبيلة من اجل الحفاظ على الامتيازات البدوية التقليدية.

وقد احتاج تحقيق تخفيض متواضع في غارات شمر إلى جيش عثماني أقوى. ومع ذلك ففي عام ١٨٦٠ م لم يكن قد تم اختبار الإصلاحات العسكرية الحكومية، التي نفذت في ظل رشيد باشا وعمر باشا في غمار المعارك. وأيضا، فان الابتكارات التكنولوجية، مثل البرق وقوارب دجلة، التي قوت أيضا وبشكل كبير الحكومة المركزية، لم تستخدم أبدا ضد شمر. ولهذا فعندما تولى نامق باشا منصب حاكم بغداد عام ١٨٦١ م، ورث فقط سياسة قبلية لم يكن قد تم اختبارها. وكان الشيخ فرحان، أكثر من نامق باشا، يحتل موقعا غير واضح في عام ١٨٦١م[1].

---

(١) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد السابع، ص١٣٤-١٣٨.

كان فرحان يدرك أن مكانته كزعيم أكبر للقبيلة جاءت أساسا من اعتراف الحكومة، وليس من قدرته وجاذبيته كما كان معتادا بين قادة البدو، فواجه مهمة تكاد تكون مستحيلة في السيطرة على عشائر شمر المختلفة. وأكثر من ذلك، فقد زادت المنافسات داخل القبيلة، والتي تمت الإشارة إليها فعلا، من تعقيد مهمة فرحان من الاحتفاظ بمساندة الحكومة. وخلال هذه الفترة، شكلت شعبية الشيخ عبد الكريم المتزايدة تحديا لقيادة فرحان[1].

أن المسألتين بالغتي الدقة واللتين كان مستقبل العلاقات العثمانية-الشمرية يعتمد عليهما، كانتا:

١- فعالية الإصلاحات العثمانية.

٢- جاذبية الشيخ فرحان كقائد.

سرعان ما تم الرد عليها، رغم أن الشيخ فرحان حاول الحد من نشاطات شمر في الإغارة إلا انه فشل في النهاية في تحقيق هذا الجزء الهام من اتفاقيته مع الحكومة. وقد حدثت نقطة تحول رئيسية في علاقات شمر بالحكومة عام ١٨٦١ م، عندما ساعد الشيخ فرحان وأخوه عبد الكريم، مصحوبين بالعشائر المؤيدة لكل منهما، باشا كركوك (المتصرف). فقد كانت قبيلة العبيد، وهي عدوة لشمر منذ فترة طويلة، تقوم بغارات قرب كركوك وسعى حاكمها إلى بمساعدة شمر للسيطرة عليها[2].

---

(١) كليمن هوار: «ملاحظة حول القبائل العربية في بلاد الرافدين»، المجلة الأسيوية الفرنسية، الأجزاء ٧ و١٣ (١٨٧٨ م)، ص٢١٥-٢٤٠.

(٢) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٧١٧، الموصل، من رسام إلى بولور، رقم ٩، ٢٨ / ١٠ / ١٨٦١ م.

وخوفا من أعدائها الشمريين، سارعت قبيلة العبيد إلى قبول شروط الحاكم للسلام. وبالتالي، لم يكن هناك حاجة إلى شمر. ورغم هذا التوقف السريع لغارات العبيد، فقد ثارت المتاعب عندما طالب الشيخ فرحان بعودة عشيرة الثابت المتمردة، والتي كانت قد لجأت إلى العبيد، بالعودة إلى معسكره. وعندما رفض خليفة الهضاب، شيخ عشيرة الثابت، العودة، أرسل فرحان بعبد الكريم لإنهاء التمرد وقد مات خليف الحدب في المعركة التي نشبت. وعندها عادت عشيرة الثابت التي شعرت بالمرارة إلى عبور دجلة تحت قيادة العجرش ونهبت المنطقة التي حول الموصل. وقد استمرت أعمالهم في النهب، التي شملت الطريق النهري بين الموصل وبغداد ونتج عنها حرق ما يزيد عن ثلاثين قرية، حتى عام ١٨٦٢ م [١].

حملة عام ١٨٦٢ م العثمانية

نظم نامق باشا حملة عسكرية منسقة لوقف غارات شمر وطردها من الجزيرة. ومن أجل تنفيذ هذا المشروع الكبير، ضم محاربين بدويين غير نظاميين من قبائل زبيد وعبيد والمنتفك [٢] إلى القوات الحكومية من بغداد واوفة والموصل وتكريت [٣]. ووصل العدد الإجمالي للحملة ١٦ الف رجل. ولم يسبق للحكومة أن شنت مثل هذه الحملة المنسقة ضد شمر منذ حملة رشيد باشا عامي ١٨٣٥-١٨٣٦م. وكان من نتائج هذا الهجوم على

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٧١٧، الموصل، من رسام إلى بولور، رقم ٤٢، ١٥/ ١/ ١٨٦٢ م.
(٢) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد السابع، ص ١٤٠.
(٣) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٧١٧، بغداد، القنصل العام إلى بلور، رقم ٢٦، ٢٦/ ٢/ ١٨٦٢م.

شمر أن يحدد إذا كانت الإصلاحات العسكرية والابتكارات التكنولوجية ستساعد الحكومة في السيطرة على قبائل البدو[١].

وفي أوائل آذار ١٨٦٢ م، شنت الفرق الحكومية المختلفة وقوات البدو الإضافية [٢]. تحت قيادة تقى الدين باشا وشبلي باشا وإبراهيم باشا حملة شمر، التي أذيع عنها كثيرا، من الموصل وخشى زعماء شمر نتيجة هذه الحملة لأنها لو نجحت فان مثل هذا الهجوم المركز ربما يطرد القبيلة من الجزيرة[٣].

وأملا في تحاشي هذه الكارثة، تحركت القبيلة على الفور لتستفيد من احد مزاياها العسكرية البدوية التقليدية. وحيث أن الهجوم بدأ في منتصف آذار، أدرك قادة شمر أن حرارة السهب سرعان ما ستصبح شديدة جدا بالنسبة للجيش العثماني. وفي حالة عدم قدرتهم على إطعام خيلهم وتوفير الماء لها، لن تقوى القوات الحكومية على مطاردة البدو، وبالتالي ستضطر إلى العودة إلى ثكناتها[٤].

وسعيا وراء استغلال هذه الميزة، اتجهت شمر إلى أعماق السهب نحو نهر الخابور. وفي نفس الوقت تجنبت أيضا أية معارك يكون التفوق فيها لصالح الفرسان العثمانية. وعلى النقيض من إستراتيجية شمر في المخادعة،

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٧١٧، الموصل، رسام إلى بلور، رقم ١٣، ١٨٦٢/٤/٢٨م.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٧١٧، بغداد، القنصل العام إلى بلور، رقم ١٠، ١٨٦٢/٣/٢٦م.

(٤) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٧١٧، بغداد، القنصل العام إلى بلور، رقم ٢٥، ١٨٦٢/٤/٤ م.

كان الانتصار العسكري العثماني يعتمد على قدرة قادتهم في دفع شمر إلى معركة كبيرة. عرف القادة العثمانيون أن السهب سرعان ما سيصبح شديد الحرارة بالنسبة لخيلهم وان لديهم أقل من شهر ليهزموا شمر[١].

ولمدة حوالي ستة أسابيع، تراجع الشيوخ فرحان وعبد الكريم وسميط غربا نحو نهر الخابور. وكانوا كلما تعمقوا في السهب، تبعهم الجيش العثماني حتى اضطرتهم الحرارة الشديدة إلى التوقف عن المطاردة. وفي نهاية نيسان، كانت فرق الموصل وبغداد وكركوك قد عادت إلى موطنها بعد أن تعثرت في جهودها المتبجحة[٢]. وهكذا فشلت مرة أخرى السياسة العثمانية القبلية، حتى مع مزية الإصلاحات العسكرية والابتكارات التكنولوجية في التغلب على المزايا العسكرية البدوية التقليدية في المخادعة وسرعة التحرك المتفوقة.

وقد عرقل من فعالية الحملة أيضا التنافس الذي لانهاية له بين القادة العثمانيين الثلاثة، تقي الدين باشا وشبلي باشا وإبراهيم باشا، الذين حاولوا جميعا أن يكون لهم اليد العليا. وفي أعقاب هذا التنافس المستمر، كان الانتصار الوحيد، الذي كان بإمكان هذا الجيش المكون من ١٦ ألف رجل أن يدعيه، ضد عشيرة شمرية معزولة وفي تلك المواجهة، فاجأ الفرسان العثمانيون وقواتهم الإضافية من عبيد رجال القبيلة الغافلة الذين عسكروا استعدادا لليل. وفي حالة من الذعر والفوضى هربت العشيرة تاركة كل ممتلكاتها للمهاجمين[٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

وبلا شك كان هذا الفشل الواضح شديد الوطأة على أذهان الحكام العثمانيين. ورغم أن الحملة الحكومية فشلت إلا أن شمر لم تتمتع بانتصار واضح. وأدرك الشيخ فرحان ورفاقه من قادة القبيلة على الفور أن الحملة العثمانية وجهت تحديا مباشرا إلى سيادة شمر. ولأول مرة منذ عدة سنوات ركزت القوات العثمانية على هدف مفرد وأدرك الشيخ فرحان انه بتحسن طفيف في سرعة التحرك العثماني وفي القيادة وقوة النيران، قد تتمكن الحكومة من إجلاء شمر عن الجزيرة[١].

وكشف السلام غير الملائم الذي فرضه نامق باشا علي شمر، وبشكل اكبر الموقف الضعيف للقبيلة. وجاء موقف نامق باشا القوى من حقيقة انه حتى منتصف الصيف بقيت شمر معزولة قرب نهر الخابور وأنها منعت من دخول أسواق الحبوب في الولاية. وإذا حافظت الحكومة على هذين الظرفين، فلن تتمكن القبيلة من الحصول على الحبوب المهمة ولا الهجرة جنوبا للهرب من برد الشتاء القارص[٢].

وسعى فرحان بان يبدأ مفاوضات سلام بعرضه دفع قيمة البضائع المنهوبة التي استولى عليها خلال الأعوام التسع الماضية. وقد بدأت المفاوضات الجادة عندما وصل الشيخ سميط، ممثل شمر للسلام، إلى بغداد وبدا المباحثات مع نامق باشا. وانتهت هذه المفاوضات عندما قام الشيخ فرحان شخصيا برحلة طويلة من نهر الخابور إلى بغداد كي يضع النقاط الأخيرة للاتفاقية. وفي النهاية وافقت شمر على دفع تعويض ضخم يضم

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٧١٧، بغداد، القنصل العام إلى بلور، رقم ٢٢، ٢١/ ٥/ ١٨٦٢م.

(٢) المصدر السابق.

٤٠ ألف رأس من الغنم وثلاثة آلاف جمل ومائتي رأس من الخيل. وعلى الرغم من تخفيض أخير في المطالب إلا أن شمر قاست من غرامة شديدة. وفي نيسان ١٨٦٣ م كان فرحان قد جمع وبمساعدة ثمانمائة من الخيالة العثمانية، ٣٣٥٠ رأس من الغنم و ١٣٩١ جمل[١].

وشكل جمع بقية التعويض مشكلة مستمرة لان الشيخ عبد الكريم ادعى لعشيرته حماية محددة ضد مثل هذه الابتزازات. وتبع زعماء عشائر أخرى عبد الكريم وهددوا الشيخ فرحان بالانتقام إذا لم يتلقوا هم أيضا اعتبارات خاصة. ومرة أخرى أدت رغبة فرحان في تنفيذ التزاماته مع الحكومة إلى خطر انعزاله عن قسم كبير من القبيلة. وفي نفس الوقت، فان ما زاد من تعقيد موقف فرحان كان منافسة أخيه عبد الكريم المتجددة وأيضا معارضة عشيرة الصايح له[٢].

هدوء قبيلة شمر:

١٨٦٢-١٨٦٨ م

فشلت حملة عام ١٨٦٢ م العسكرية في طرد شمر من الجزيرة، ولكن كان لها تأثير مهدئ على غارات القبيلة. وفي السنوات الخمس التي تلت ١٨٦٢ م، يبدو أن هجمات شمر على القرى الزراعية والقبائل البدوية الأضعف وقوافل التجارة، أصبحت أقل كثيرا. وبدون شك أدركت القبيلة انه بينما فشلت الجهود الأولية للحكومة ضدها، إلا أن أية حملة مستقبلية قد تدمر شمر. وهكذا فحتى العشائر المتمردة تحت أمرة الشيخ

(١) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد السابع، ص١٤٠-١٤١.

(٢) هوار: «ملاحظة حول القبائل»، المجلة الأسيوية الفرنية، الأجزاء ٧ و ١٣، (١٨٧٨ م)، ص٢١٧.

عبد الكريم امتنعت عن معاداة الحكومة المركزية. والغزوة الوحيدة ذات المغزى فيما بين الأعوام ١٨٦٣ و ١٨٦٨ م شملت شمر وعدوتها القديمة عنزة. وتصف ثلاث تقارير محددة صعوبات شمر-عنزة في الأعوام ١٨٦٥ و ١٨٦٦ و ١٨٦٨ م[١].

ومنذ بداية الخريف، تركت شمر المراعي في شمال الجزيرة وبدأت رحلتها الطويلة نحو مواقعها الشتوية جنوب بغداد. وفي نفس الوقت تقريبا غادرت عنزة مراعيها الصيفية في البادية السورية واتجهت أيضا إلى الجنوب بامتداد ضفاف نهر الفرات. وفي نهاية الخريف كانت القبيلتان متجاورتين كثيرا على بعد أميال قليلة جنوب بغداد[٢]. ولأنهما كانتا تجدان متعة في الغزو فقد حاولتا نهب مخيمات ومواشي أحداهما الأخرى. وكان الخاسرون الحقيقيون في غارات الأعوام ١٨٦٥ و ١٨٦٦ و ١٨٦٨ هم المزارعين المستقرين الذين دمرت محاصيلهم من قبل القبيلتين الناهبتين[٣].

سبعون عاما في الجزيرة

قبيلة شمر في عام ١٨٦٨ م:

هناك بالتأكيد أهمية في وصف حقائق محدودة عن هذا أو ذاك من زعماء شمر أو في شرح علاقات القبيلة والحكومة ولكنها لا تكاد توضح التاريخ الكامل للقبيلة في الجزيرة.

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٨٠٣ م، بغداد، كمبال إلى ليونز، رقم ٤١، ١٧/ ١٠/ ١٨٦٦ م.

(٢) لوريمر: المعجم الجغرافي، المجلد الأول، الجزء الأول ب، ص١٤٣٦-١٤٣٧.

(٣) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد السابع، ص١٨٠.

إن أحد الجوانب الأكثر أهمية في تحليل تاريخ شمر جربا في الجزيرة هو مسألة كيف تأقلمت قبيلة بدوية تماما خرجت من الجزيرة العربية مع العيش تحت نفوذ حضارة مقيمة. وفي عام ١٨٦٨ م أو بعد سبعين عاما من وصول شمر إلى ولاية بغداد، يبدو أن القبيلة وصلت إلى أقصى حدود توسعها الإقليمي.

شملت ديار شمر الأرض الممتدة بين نهر دجلة في الشرق ونهري الفرات والخابور في الغرب وسفوح التلال العالية في الشمال والأراضي الريفية المنخفضة جنوب بغداد. وفي إطار هذه الحدود الجغرافية كانت القبيلة تكمل هجرتها الشتوية. ومن الناحية السياسية، كانت شمر تجمع الخاوة من القبائل الأضعف والقرى المستقرة في الإقليم[١]. ومن الناحية العسكرية كانت تمتلك قوة كافية للإغارة على الطرق التجارية الحيوية التي كانت تمر من ديارها. ورغم انه لم يعد في استطاعتها محاصرة مدينة رئيسية كما فعلوا في الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر، إلا انه كان لا يزال باستطاعة شمر أن تتحدى جيوش الحكومة[٢].

وخارج إطار التدخل المؤقت لحملات الحكومة، ظلت شمر القوة العسكرية المسيطرة في الجزيرة. وقد سمحت السيطرة العسكرية لشمر أن تجمع الخاوة من القبائل العربية الأضعف على الحدود المتاخمة لديارها وبالتحديد، دفعت قبيلة الجحيش الخاوة لعشيرة بريج، ودفعت قبيلة الجبور في إقليم الخابور للشيخ فرحان، وكذلك دفعت مدينة تلعفر لعشيرة الصايح. وأيضا دفعت قبيلة طي، وكان موقعها شمال الموصل، الخاوة إلى

---

(١) لوريمر: المعجم الجغرافي، المجلد الأول، الجزء الأول ب، ص١٣١٦.

(٢) لايارد: بابل، ص٢٦٦.

شمر[١]. أما اليزيدية، المشهورون كمحاربين أشداء فقد قاوموا تجاوزات شمر وتجنبوا دفع الفدية للقبيلة البدوية القوية[٢]. ورغم سيطرتها العسكرية كانت شمر لا تزال تخشى غارات قبيلة عنزة التي كانت تقوم بشكل يكاد يكون سنويا، بغارات على الجزيرة[٣].

ظل حب شمر للغزو قويا في الستينات كما كان عندما هاجرت القبيلة من نجد، ومع ذلك فقد تغيرت بالتأكيد عناصر معينة في ثقافة شمر البدوية خلال السبعين عاما الأخيرة، وقد مرت الجوانب الثقافية والاقتصادية في حياة شمر القبلية بأكبر تغير ملحوظ. وخلال الأربعين سنة السابقة ازدادت وبشكل كبير علاقات البدو بالمدن الكبيرة مثل بغداد والموصل. وفي فترة مبكرة من القرن، عندما دخل الشيخ بنية الموصل أثار رداؤه وسلوكه النجدي غير المألوف الحملقات الكثيرة. ومع ذلك، ففي الأربعينيات والخمسينات، دخل قادة عدة من شمر و رجالها المدن الرئيسية في ولاية بغداد وبشكل دوري[٤].

ومن الناحية السياسية، كثيرا ما زار زعماء عدة للقبيلة بغداد وماردين والموصل وديار بكر من أجل تعيينهم زعماء رسميين للقبيلة[٥]. ولأن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق

(٣) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد السابع، ص١٠٦.

(٤) ارنست بدج: على النيل ودجلة: قصة رحلات في مصر وبلاد الرافدين نيابة عن المتحف البريطاني بين أعوام ١٨٨٦-١٩١٣ م، المجلد الثاني (لندن ١٩٢٠ م)، ص٥٣-٥٦.

(٥) روس: «ملاحظات حول رحلتين»، مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد التاسع (١٩٣٩ م)، ص٤٥٣-٤٥٧. كلوديوس جيمس رئيش: حكاية إقامة في كردستان، (لندن ١٨٣٦ م)، ص١٠٨-١١١.

استهلاك قبيلة بدوية من الحبوب كان بكميات كبيرة، وكان عليها أن تشتريها من تجار المدينة أو من مزارعين مقيمين. وفي السنة العادية، وبعد استكمال الحصاد المحلي كان ممثلو القبيلة يستبدلون منتجات الجمال، مثل الحليب والجبن بالقمح وبالحبوب الأخرى[١]. وكانت شمر تدفع ثمن القمح بنقود مسروقة من القوافل المارة. وجاء مصدر أخر من الاتصالات الحضرية من استئجار شمر كرعاة عندما ازداد الطلب الأوربي على الصوف العربي خلال الأربعينات من القرن التاسع عشر[٢].

وفي حالات غير عديدة، كانت شمر أيضا تدفع الضرائب السنوية المترتبة عليها خلال هذه الزيارات للمدن. كما تم إدخال مظاهر عديدة من حياة المدينة إلى ثقافة شمر من خلال التجار المتجولين الذين زاروا القبيلة وباعوها أشياء مثل القماش والأسلحة والتبغ والقهوة. وأيضا حافظ كل شيخ من شمر بعلاقات وثيقة مع تاجر أو موظف حكومي كبير في كل مدينة قريبة وكان يشرف على مصالح شمر ويجمع الخاوة من القوافل التي كانت تمر بديار شمر. وكانت القبيلة في مقابل خدماته، تحمي الممتلكات والماشية التي تعود إلى ممثلها في المدينة[٣].

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٦٢٤، بغداد، القنصل العام إلى بلور، رقم ١٢، ١١/ ٤/ ١٨٦٠م.

(٢) لايارد: بابل، ص٢٨٩.

(٣) المصدر السابق، ص٥٨٠.

الفصل الرابع

انقسام داخلي وتحد خارجي شمر جربا

١٨٦٩-١٩١٤م

خلال النصف قرن بين الأعوام ١٨٦٩ و ١٩١٨م تغيرت كثيرا الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية لشمر جربا. ففي بداية هذه الفترة كانت القبيلة تحتفظ بمكانتها المستقلة في الجزيرة. صحيح أنها لم تكن قوية وموحدة كما كانت من قبل ولكنها ظلت قوة يحسب لها حسابها. ومن سوء حظ شمر انه حتى هذه المكانة ذات القوة النسبية قد تدهورت تدريجيا خلال الجيلين التاليين، لقد عانت شمر سلسلة من الأزمات بالنسبة للقيادة ومن المجاعات وحملات الحكومة العقابية، وأيضا من بروز قوة الاتحاد الكردي الملي، فكان أن دخلت الحرب العالمية الأولى والقبيلة منقسمة وقد انتزعت منها قوتها ونفوذها السابقين.

إصلاحات مدحت باشا

استيطان القبيلة

منذ عزل داوود باشا عام ١٨٣٠ م، كان الباب العالي يمد ولاية بغداد بمساعدة قليلة مباشرة. ورغم أنها كانت منطقة زراعية يكمن فيها

الثراء الشديد وشريانا لتجارة مزدهرة، إلا أن الإقليم لم يتلق مساعدة عسكرية كافية للسيطرة على القبائل العديدة المتمردة، كما لم يسند إلى حكام كفوئين وذوي خيال قادرين على إدخال إصلاحات إدارية يحتاج إليها لإقليم كثيرا[١]. وقبل عام ١٨٧٠ م، كثيرا ما سببت السياسة القبلية العثمانية غير الثابتة اضطرابا شديدا بين القبائل العربية. ولم يكن هنالك تفكير، ولو قليل في إقامة سياسة المعاملة بالمثل، تجعل زعيم القبيلة يبذل جهدا في السيطرة على قبيلته[٢]. وهناك القليل يمكن قوله بالنسبة لنوعية وفعالية الإدارة الداخلية سوى أن معظم الحكام كانوا يتقاعدون على الأموال التي جمعوها خلال فترة حكمهم في بغداد[٣].

كان وصول مدحت باشا إلى بغداد كحاكم لها في نيسان ١٨٦٩ م، مع هدف معلن بالبدء في فترة إصلاح في العراق، نقطة تحول في التاريخ الحديث لتلك البلاد. وعلى خلاف الحكام السابقين الذين كانوا قد أرسلوا إلى بغداد كعقوبة أو نتيجة لنقمة سياسية، وصل مدحت باشا إلى ذلك الإقليم النائي في قمة حياته العملية.

كانت ولادته في عام ١٨٢٢ م دخل في خدمة الحكومة في سن مبكرة. وعندما أظهر كفاءة إدارية أثناء عمله كموظف رسمي صغير، ترقى مدحت باشا بسرعة وخدم في البلقان وفي أجزاء أخرى من الإمبراطورية.

---

(١) من اجل صورة واضحة تماما عن الشؤون الإدارية العراقية فيما بين ١٨٣٠ و١٨٧٠ م، أنظر لونكرك: أربعة قرون، ص٢٥٠-٢٩٧.

(٢) جويدة: «نظام الأرض»، أوراق القديس انطوني، رقم ١٦، ص١١٢-١١٣.

(٣) لوريمر: المعجم الجغرافي، المجلد الأول، الجزء الأول ب، ص١٣٥٨-١٣٦٣. بيير دي فوشيك: الحياة في العراق خلال قرن، بقلم قناصلنا، (باريس ١٩٦٣م)، ص٤.

وكجزء من تدريبه، زار عواصم أوربية مختلفة لمدة ستة اشهر حيث تعلم الكثير مما ساعده فيما بعد في حياته العملية. وقبل وصوله إلى بغداد، كان مدحت باشا حاكما لولاية حديثة التكوين على الدانوب حيث جلب السلام والازدهار النسبي في هذا الإقليم المضطرب[١].

وسعى الحاكم الجديد النشط إلى حل بعض المشاكل المدنية والعسكرية الأكثر إلحاحا. وكان احد إعماله الأولى خلق نظام جديد للإدارة الإقليمية وفر من خلاله مجموعة من الموظفين يساعدهم مجلس منتخب[٢]. وتحت إشراف مدحت باشا تم إنشاء منشآت عامة عديدة مثل المدارس والمستشفيات ودور اليتامى وخط ترام. ومن اجل معرفة مدى الثروة الاقتصادية للعراق كان الحاكم يحلم بمشروع مفصل للسكك الحديدية يربط بغداد بالعالم الخارجي. وبشكل مشابه أمر بجلب عدة سفن بخارية جديدة بهدف زيادة التجارة في نهري دجلة والفرات، ومن اجل تحسين السفر النهري خطط لرفع الأوحال من قاع النهرين، ورغم ذلك انتهى هذا المشروع، مثل الكثير من مشروعاته، بالفشل[٣].

أدرك مدحت باشا أن تنفيذ إصلاحاته العديدة يحتاج إلى تحسن الوضع الأمني في الإقليم كله. وتحرك بسرعة ليقلل من الفوضى القبلية ولإقامة السلام في الريف العراقي. وعلى خلاف من سبقوه الذين كانوا يردون فقط على المشاكل القبلية، استنبط خطة ذات جوانب كثيرة توقعت الكثير من الصعوبات الناشئة عن التعامل مع القبائل الرحل والمستقرة.

---

(١) مدحت: مدحت باشا، ص٤-١٣.

(٢) ديفيدسون: الإصلاح في الإمبراطورية العثمانية، ص١٦٠-١٦٤.

(٣) عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث، (القاهرة ١٩٦٨م)، ص٣٨٠-٣٩١.

وأدرك مدحت باشا أن السياسات السابقة غير الثابتة، التي تفاوتت بين عدم الاهتمام والتودد الشديد والقمع الشديد جعلت شيوخ القبائل في حالة ارتباك، فحاول أتباع سياسة قبلية أكثر عقلانية ويمكن التنبؤ بها [١].

واستندت هذه السياسة الجديدة إلى إعادة تنظيم شامل للمجتمع: اجتماعي وسياسي واقتصادي. واستهدفت إعادة تشكيل نمط الولاءات وإلى إعادة توزيع القوى. ومن ألان فصاعدا، أصبحت الدولة وممثل السلطان أكثر من القبيلة وزعيم القبيلة، مركزين توأمين للولاءات العامة. وكان زعيم القبيلة تقليديا يحصل على سلطته بتحدي سلطة الحكومة، ويجمع الخاوة ويقود الغزوات ضد القبائل الأخرى والمزارعين المستقرين، وسبب كل ذلك عدم أمان شديد في الريف. إضافة إلى ذلك فان شيخ القبيلة، وبشكل متناقض، كان يسعى إلى الحصول على اعتراف الحكومة به كزعيم اكبر للقبيلة، فان مثل هذا الاعتراف كان يجلب مكافأة مضاعفة تزيد من هيبة القبيلة وتأتي بإعانة مالية حكومية كبيرة ورغم اعتراف الحكومة به، فان مكانة شيخ القبيلة كانت لا تزال تعتمد بالدرجة الأولى على دوره كزعيم بدوي تقليدي. وهكذا ظل السلام والهدوء الإقليمي أملا بعيدا حتى ذلك الوقت الذي يمكن فيه تغيير أساس القيادة البدوية [٢].

بدأت إصلاحات مدحت باشا العديدة في تعديل وتغيير الأساس التقليدي لقوة الشيخ بين القبائل العربية في العراق. وتكونت هذه السياسات القبلية الجديدة من ثلاثة أجزاء رئيسية. وسعت الأولى والثانية، وهما الاستيطان والعثمنة، إلى الإضعاف من ارتباط الشيخ بقبيلته وزيادة

---

(١) لونكريك: أربعة قرون، ص٣٠٥-٣١١.

(٢) المصدر السابق، ص٣٠٧.

اعتماده على الحكومة المركزية. أما الثالثة، وهي القمع العسكري، فكان تنفيذها بطريقة أشد قسوة. وهكذا عندما لم يكن شيخ القبيلة مستعدا للاستجابة للترغيب، تم استخدام الترهيب كي يعود إلى إحساسه بالواجب[1].

بعد دراسته لكافة جوانب المشكلة القبلية في أرجاء الولاية، هدف مدحت باشا إلى استيطان أكبر عدد ممكن من القبائل على أراضيها. وفيما سبق، عندما كانت تصدر الأوامر إلى قبيلة ما بوقف نشاطاتها في الإغارة، لم تكن الحكومة تقدم لها بديلا مقبولا، فقد كانت تهدد فقط بإجراءات قمعية شديدة. وكبديل لذلك، أمر مدحت باشا بإجراء مسح للأرض حتى يمكن أن تباع لأفراد القبيلة. وهكذا استهدف خلف ضمان التملك والمصالح المكتسبة أن يكونا دوافع قوية لرجال القبائل بالتخلي عن طريق حياتهم القائمة على النهب[2].

كان مدحت يدرك جيدا انه بالإمكان السيطرة بشكل أكثر فعالية على قبائل مستوطنة على أراضيها، وان يتم حكمها بشكل أكثر عدلا، وبفرض ضرائب عليها وتجنيدها بشكل أكثر سهولة بدون شك. وأيضا فان القبائل المتوطنة تكون أكثر تقبلا لخطة العثمنة (التتريك) التي خطط مدحت لتنفيذها. فإذا سار كل شيء على ما يرام، كان الأمل أن يزداد ارتباط الشيوخ الممتلكين للأرض بالحكومة. وقد اتخذ مشروع مدحت للعثمنة شكلا مألوفا عندما عين شيوخ قبائل عديدين كموظفين حكوميين رسميين. واعتبر كل شيخ مسؤولا عن إدارة الإقليم الذي استوطنته

---

(١) المصدر السابق، ص٣٠٦-٣٠٧.

(٢) جويدة: «نظام الأرض»، أوراق القديس انطوني، رقم ١٦، ص١٢٠-١٢١.

القبيلة. ولم يتلق كل شيخ لقبه ووظيفته فقط بل وراتبا شهريا لقيامه بمهام رسمية مختلفة. وبالتالي تطورت السياسة القبلية العثمانية، في ظل مدحت باشا، على أساس أكثر عقلانية، أدت في النهاية إلى تحسن الوضع الأمني[1]. ومع نهاية القرن، وصفت تقارير أوربية عديدة الإقليم بأنه أكثر أمنا مما كان عليه في الفترة التي سبقت عام ١٨٧٠م[2].

سياسة مدحت باشا القبلية وشمر جربا:

١٨٧٠-١٨٧١م

عندما تولى مدحت باشا وظيفته كحاكم لبغداد في نيسان ١٨٦٩ م، ظلت قبيلة شمر جربا تحت القيادة الاسمية للشيخ فرحان بن صفوق. وخلال عقد الستينات، كان هناك نزاع حول قيادة شمر بين أبناء صفوق الثلاثة: فرحان وعبد الكريم وعبد الرزاق[*]. ويجب الإشارة هنا أن عبد الكريم، وهو شخص شجاع جدا وذو إرادة لا تغلب وقد نسب إليه رجاله في القبيلة صفات مثالية، كان يدين بالولاء له قسما كبيرا من شمر. ورغم الاختلاف الجذري بين فرحان وعبد الكريم في توجههما القبلي إلا انه لم يكن قد حدث بعد نزاع علني بين هذين القائدين القويين[3].

ومع ذلك فقد حدث ذلك التمزق نتيجة سياسة مدحت باشا القبلية. فقد تعاون علنا مع الشيخ فرحان، الذي سبق بالفعل مناقشة نزوعه

---

(١) لونكريك: أربعة قرون، ص٣٠٧.

(٢) فون اوبنهايم: من البحر المتوسط، المجلد الثاني، ص٨٣-٨٤.

(*) لم تشير الروايات التاريخية لدى شمر أن الشيخ عبد الرزاق قد نازع الشيخ فرحان على المشيخة. (المقدم).

(٣) أنظر الفصل الثالث.

للأشياء العثمانية وعلاقة الصداقة التقليدية بينه وبين الحكومة المركزية، مع الحاكم الجديد. وقبل عن طيب خاطر منحة أرض على الضفة الغربية لنهر دجلة عند قلعة الشرقاط على بعد ٦٠ ميلا جنوب الموصل. وتضمن ذلك موافقته الضمنية على استيطان رجال قبيلته كمزارعين على الأرض التي حصلوا عليها حديثا. وتلقى فرحان تقديرا واستحسانا رسميا عندما أنعمت عليه الحكومة العثمانية بمرتبة ولقب باشا وراتبا شهريا كمكافأة لوقفه الغارات وإرجاعه الممتلكات المنهوبة[١].

ولكن السياسة العثمانية الجديدة ولدت رد فعل معاكس تماما لدى الشيخ عبد الكريم. فمنذ اغتيال أبيه، اقسم عبد الكريم على الكراهية الأبدية للعثمانيين الذين احتقرهم كجنس من الرجال يستحق ازدراء خاص. واتبع سياسة العداء العلني وقام بإعمال نهب وأغار على قرى وقوافل دون ادني استفزاز. وفي إحدى المرات، رفض حتى استقبال ممثل عن حاكم بغداد. ونتيجة لذلك، اعتبر العثمانيون عبد الكريم خارجا على القانون[٢].

ثورة شمر في عام ١٨٧١م:

كان عام ١٨٧١ م مفترق طرق هاما للغاية من تاريخ قبيلة شمر جربا في الجزيرة فمنذ عبورهم لنهر الفرات في أوائل القرن التاسع عشر، واجه بدو شمر تحديات مختلفة: ثقافية واقتصادية وعسكرية وتكنولوجية وتضمن ذلك مواجهات مع قبيلة عبيد القوية ومع التنظيم المعقد للمؤسسات العثمانية العسكرية والإدارية، والابتكارات التكنولوجية مثل

---

(١) بلنت: البدو، ص٢٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص٩٨- ٩٩.

الأسلحة والسفن البخارية الحديثة، وأخيرا ثقافة الجزيرة المتوطنة. وحتى عام ١٨٧١ م، تمكنت شمر من مواجهة هذه التحديات بدرجات متفاوتة من النجاح. ورغم ذلك، وكما سيتضح حالا، فان مصير شمر مر بتغيرات شديدة في ظل حكم مدحت باشا.

من بين أبناء صفوق كان عبد الكريم أقربهم إلى أبيه في جبه للحياة البدوية، ومن بينها حماسه للمعارك. كان عبد الكريم مؤمنا تماما بالفضائل البدوية-شجاع وكريم وشهم، وكان محاربا عنيدا ومشاكساً، يقود قواته القبلية بنفسه. وتمتع بشعبية كبيرة حتى أن نصف القبيلة تقريبا وقفت إلى جانبه ضد أخيه الأكبر فرحان باشا. ومن بين العشائر العديدة، كانت عبدة والعليان والصايح موالية له. وعندما بدأ مدحت باشا في مشروع استيطان القبائل، ثار عبد الكريم على هذا المشروع لمزية بدوية[1].

وعند تحليل أسباب ثورة عبد الكريم، يتضح أن ثورة شمر في عام ١٨٧١م اختلفت كثيرا عن كل تمرداتها السابقة:

أولا: عرفت شمر من الحملة الحكومية المنسقة الأخيرة والتي شنت ضدها في عام ١٨٦٢ م أن القوة العسكرية العثمانية قد ازدادت كثيرا بسبب السرعة الأكبر في التحرك والتنظيم الأفضل والأسلحة الأكثر تقدما تكنولوجيا. وبعد تلك الحملة مباشرة، أدرك العديد من زعماء شمر أن القبيلة ربما كانت قد طردت من الجزيرة لو أن الحكومة استخدمت على نحو أكثر فعالية قوتها الجديدة.

---

(١) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد السابع، ص٢٦١-٢٦٣. وزارة الخارجية ١٩٥/ ٩٤٩، بغداد، القنصل العام إلى اليوت، رقم ٣٦، ٢/ ٨/ ١٨٧١م.

ثانيا: خلال العقد التالي، زادت الحكومة من مواقعها العسكرية على امتداد الفرات وأيضا في أعالي بلاد الرافدين. وهكذا فان محاربا متمرسا كعبد الكريم، الذي لم يكن بالتأكيد غبيا رغم كراهيته للعثمانيين، كان لديه أقوى الأسباب لرفع راية العصيان والمخاطرة بهزيمة أكيدة على أيدي أعدائه اللدودين[(١)].

يبدو أن المؤرخين، في الماضي، قللوا من أهمية ثورة عبد الكريم في تاريخ شمر. أن تناولهم لها كمجرد حدث عرضي في سلسلة المواجهات التي لا تنتهي بين العثمانيين وشمر، يبدو انه فشل في إدراك المغزى الحقيقي لهذه الواقعة[(٢)]. فعندما ينظر إلى هذا التمرد كصراع ثقافي وعسكري فانه يكتسب مغزى اكبر بكثير. قبل عام ١٨٧١ م، لم تنجح القوات المسلحة العثمانية في إقامة تفوق عسكري كبير على شمر جربا، ولم تشكل ثقافة بلاد الرافدين المتوطنة أي تهديد قوى لثقافة شمر البدوية. وعندما أدرك عبد الكريم أن مشروع مدحت باشا للاستيطان يمثل النهاية لثقافة شمر النجدية، تشبث في عناد بتراثه وقرر أن يحارب رغم الفروق الشديدة بين محاربيه والقوات العثمانية.

ادعى عبد الكريم بأنه عومل معاملة سيئة من قبل قائم مقام نصيبين، وثار في أوائل آب ١٨٧١ م. وفي مدى أسبوع نجح الزعيم الثائر على رأس ٣ آلاف محارب من شمر في تدمير المنطقة التي تحيط بنصيبين. وقبل أن

---

(١) انظر الفصل الثالث.

(٢) بالنسبة للتناول المعتاد لثورة الشيخ عبد الكريم في ١٨٧١ م، أنظر فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٤٩، ولونكريك: أربعة قرون ن ص ٣١٠. والعزاوي: عشائر العراق، المجلد ألأول، ص١٥٩-١٦٠.

تتخذ الحكومة إجراء فعالا، أغارت شمر المتمردة على ما يزيد على ٢٠٠ قرية، وأحرقت سبعين منها وقتلت عددا كبيرا من الأشخاص واستولت على كل شيء أمكن حمله. وفي نفس الوقت كتب عبد الكريم إلى قادة قبليين مختلفين واشتكى من أن مدحت باشا يسعى إلى إجبار شمر على الاستيطان كمجرد فلاحين، وطلب مساعدتهم[1].

وعندما وصلت بعض هذه الرسائل إلى مدحت باشا، أعلن مكافأة تبلغ ١٠ آلاف قرش للقبض على عبد الكريم حيا، و ٥ آلاف لمن يأتي برأسه. وفي نفس الوقت، قسم عبد الكريم قواته إلى ثلاثة أجزاء وأرسل بهم باتجاه دير الزور والموصل وبغداد. ولكن فشلت هذه الخطة السيئة لتدمير العثمانيين عندما هزمت شمر بشكل حاسم عند قلعة الشرقاط. وتم اكتساح حوالي ثلاثة آلاف من محاربي شمر من قبل جيشين عثمانيين تحت قيادة إسماعيل باشا من ديار بكر واحمد باشا القائد العام لبغداد[2].

كان هناك ٣٠٠ محارب يرقدون قتلى وجرح أو أسر آخرون كثيرون، عندما تخلى عبد الكريم عن كل أملاكه وهرب سريعا إلى الصحراء. وبعد هذه الهزيمة الكاسحة لجأ الزعيم المطوق إلى وادي الثرثار. ولسوء الحظ كان الوادي قد جف تماماً فمات الكثيرون من رجال شمر عطشا. وانتهت الثورة عندما لحقت فرق عديدة من القوات العثمانية، التي انضمت إليها قوات غير نظامية من الدليم وعنزة، فرقتين أخريين من شمر وهزمتهما. وفي أحدى هذه المواجهات سقط عبد الرزاق، أخو عبد الكريم، صريعا

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٩٤٩، بغداد، القنصل العام إلى اليوت، رقم ٤٢، ٣٠/٨/١٨٧١ م.

(٢) المصدر السابق.

أمام الهجوم العثماني ومع وصول المزيد من الإمدادات من مواقع عثمانية على امتداد الفرات ومن إقليم سنجار، لم يكن أمام التمرد إلا أن ينتهي بالفشل[١].

هرب عبد الكريم بحياته بعد تحطم خططه وموت أو بعثرة المساندين له، وبعد أن فقد بالفعل زوجته المحبوبة وابنه الصغير[٢]. وأملا في الهروب إلى نجد ليحظى بحماية الزعيم الشمري ابن رشيد له عبر نهر الفرات سباحة ووصل أخيرا إلى ديار المنتفك في جنوب العراق. ولسوء الحظ كان ناصر باشا، شيخ اتحاد المنتفك القوى على علاقة طيبة مع مدحت باشا فقبض على عبد الكريم وأرسله إلى بغداد[٣](*). وبعد محاكمة قضائية حكم على عبد الكريم بالموت لتمرده. وعندما تم التصديق النهائي على الحكم في الأستانة لقي شيخ شمر حتفه شنقا قرب جسر على دجلة في الموصل[٤].

شمر الشرقية والغربية:

١٨٧٢-١٨٨٠م

بعد موت عبد الكريم وعبد الرزاق، برز فرحان باشا كزعيم شمر الأكبر بلا منازع وأصبحت القبيلة كلها عمليا، بما في ذلك عشائر عبدة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) حبيب شيحا: ولاية بغداد، (القاهرة ١٩٠٨ م)، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٣) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٩٤٩، بغداد، من القنصل العام إلى اليوت، رقم ٤٦، ٢٦/ ١١/ ١٨٧١م.

(*) كان إلقاء القبض على الشيخ عبد الكريم من قبل ناصر باشا السعدون غدرا بعد أن أعطاه الأمان ودعاه لضيافته وكان جريحا، فالقي القبض عليه بعد أن نزل في احد بيوت ناصر باشا الذي كان قد اعد فيه الكمين. (المقدم).

(٤) مدحت: مدحت، ص٢٢.

والعليان والصايح المتمردة، تحت قيادته ورغم انه حصل على لقب باشا المثير للإعجاب وعلى راتب حكومي شهري وفير، إلا أن شعبية الشيخ فرحان كقائد للقبيلة لم تزداد[١]. كان لا يزال يعاني من معوقات مثل أن أمه جاءت من المدينة، وتذوقه لثقافة متوطنة وعلاقات عمل وثيقة مع السلطات التركية. وترجع قيادته لقبيلة موحدة إلى حد ما خلال السنوات ١٨٧١ إلى ١٨٧٥ م إلى عدم وجود منافس قوى أكثر من كونها زيادة مفاجئة في شعبيته.

بعد إعدام عبد الكريم، تعاون الشيخ فرحان بشكل وثيق مع السلطات الحكومية في محاولتها لتوطين شمر جربا كفلاحين. وتم اختيار قلعة الشرقاط، التي تقع على امتداد نهر دجلة على بعد حوالي ٦٠ ميلا جنوب الموصل وكانت مخيما مفضلا لدى شمر، كموقع لمحاولة الاستيطان الأولية هذه. وأهدى مدحت باشا للشيخ فرحان قطعة أرض تمتد بجوار الضفة الغربية لدجلة. وفي البداية أثبتت المنطقة كلها أنها ليست سوى أرض خراب بلا ماء[٢].

ومن الصعب تحديد كيف حاول فرحان باشا بالضبط تطوير هذه الأرض الممنوحة له، ولكن توجد معلومات كافية تبين جهوده في الاستيطان. وبسبب نمط هجرة شمر الفصلية يمكن الزعم وبشكل معقول أن كل من استوطن قلعة الشرقاط أقام هناك جزءا من السنة. وقد

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٩٤٩، بغداد، من القنصل العام إلى اليوت، رقم ٤٢، ٣٠/ ٨/ ١٨٧١م.

(٢) المصدر السابق: بلنت: البدو، ص١٨٦-١٨٨.

بذلت عدة محاولات متواضعة لزرع محاصيل. وأيضا أقيمت ساقية على دجلة لتمد بالمياه أشجار الفاكهة التي زرعت في حقل مجاور للنهر[١].

وكما هو متوقع، استخدم فرحان باشا عددا من الفلاحين من عدة قبائل تخضع لشمر، مثل الجبور، ليقوموا بالعمل الزراعي الفعلي. وفي عام ١٨٧٨ م عندما زار ويلفريد وان بلنت قلعة الشرقاط، وجدا فرحان باشا وغالبية القبيلة يخيمون هناك. وقد حول عدد كبير من رجال القبيلة كانوا يعسكرون حول خيمة فرحان، المنطقة الريفية المجاورة إلى أرض جرداء بقطعان أغنائهم وجمالهم. وطبقا لأسرة بلنت وعدد من المسافرين أوربيين زاروا قلعة الشرقاط في أوائل الثمانينات، انتهى مشروع توطين شمر بالفشل[٢][٣].

على الرغم من أن تجربة الشرقاط كانت أقل أن تكون ناجحة إلا أنها أوضحت إلى أي مدى تمت عثمنة الشيخ فرحان. وليس هناك شك أن فرحان لم ينوي بتاتا أن يتخلى تماما عن ارتباطه بحياة الصحراء. ومع ذلك، لابد انه كان يدرك انه لكي يحتفظ بمكانته كزعيم اكبر للقبيلة، كان يجب عليه أن يستمر في التعاون مع السلطات السياسية. لم يقيم بشكل دائم في قلعة الشرقاط ولكنه أقام عندما كان يعسكر هناك، وأدخل إلى مخيمه مظاهر عديدة من الثقافة التقليدية. أن استخدام رجل دين مقيم من

---

(١) رسام: آشور، ص٢٥٧-٢٥٨.

(٢) بلنت: البدو، ص١٨٧. ساشو: رحلة..، ص ٣٠٣-٣٠٤، ج ب بيترز: استكشافات ومغامرات في الفرات، المجلد الأول، (نيويورك ١٨٩٨م)، ص١١٩.

(٣) لم تلتقي أسرة بلنت عندما زارت قلعة الشرقاط الشيخ فرحان، بل التقت بعدد من أبنائه وأسرته.

الموصل ليؤم الشيخ وأتباعه في الصلوات اليومية وليعلم أولاده اللغة التركية كان تجديدا لم يسبق له مثيل حتى ذلك الوقت. ورغم أن مثل تلك الخطوة لم تمثل نهاية للحياة البدوية إلا أنها كانت نمطا جديدا في أسلوب الحياة النجدية لشمر(١).

إن عشائر شمر تلك، مثل عبده والعليان والصايح والتي ساندت عبد الكريم بشكل تعوزه الكياسة، تعلقت وبدرجة اكبر بطريقة حياتها البدوية الحرة بعد أن تعرضت في ظل فرحان، إلى طريقة حياة عثمانية غريبة لم تتعود عليها. وسرعان ما وجد هؤلاء المحاربون الناقمون قائدا جديدا في شخص فارس بن صفوق. فبعد أحداث عام ١٨٧١ م مباشرة، هربت عمشة أم عبد الكريم بابنها الصغير فارس إلى ملتجىء شمر عند ابن رشيد في نجد(*). وفي هذا الإقليم النائي والمتعذر الوصول إليه، كبر فارس بن صفوق في ظل حماية قريبه القوي(*). وهنا تعود على طريقة الحياة الحرة التي لا تعرف القيود والتي أدى الدفاع عنها إلى تدمير عائلته وموت أبيه وأخوته الكبار. وفي منفاه النجدي، لم تضيع عمشة أية فرصة في إشعال كراهية ابنها ضد الأتراك(٢).

وعندما عاد الشيخ فارس إلى الجزيرة في عام ١٨٧٥ م، هرع أتباع عبد الكريم، الذين نفروا من «الأساليب البغدادية» لفرحان باشا، إلى الشيخ الشاب. وفاقت شعبيته كقائد حقيقة كونه أخا شقيقا لعبد الكريم

---

(١) بلنت: البدو، ص١٨٨ و ص ١٩٢-١٩٣.

(*) كان شابا في أوائل العشرينات من عمره. (المقدم).

(*) الأمير محمد العبد الله الرشيد (المهاد) أمير حائل. (المقدم).

(٢) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٤٩.

الذين كانوا يحترمون حبه للصحراء وإخلاصه الكامل لأسلوب الحياة البدوية التقليدية أهلاه لمنافسة فرحان المستوطن والذي كان غير محبوب. وكان لفارس حقا لا شك فيه في زعامة شمر فقد كان سليلا للبيت الحاكم لشمر في الجزيرة وكان أخوه عبد الكريم وأبوه صفوق رجلين ذا شجاعة عظيمة ومات كلاهما شهيدين بطلين حاربا دفاعا عن قضية شمر وأسلوب حياتها. وامتلك هو نفسه صفات جعلت منه معبودا لأقسام معينة من شمر كان شديد الكرم إلى حد الإفراط (*) وشجاعا في المعارك وفارسا ممتازا وغير متحمس بتاتا للسلطات التركية، لذا جمع أكثر من نصف قبيلة شمر تحت قيادته. ومثلت عشائر عبده والصايح وعمود أغلبية أتباعه[1].

ومنذ عام ١٨٧٥ م فصاعدا انقسمت شمر جربا إلى فريقين متنافسين. فقد احتلت شمر الغربية بقيادة فارس بن صفوق الجزء الشمالي الغربي من ديار شمر التقليدية. وكانت دير الزور على الفرات، وهي في منتصف الطريق بين بغداد وحلب، نقطة الاحتكاك الرئيسية بين شمر الغربية والسلطات التركية. واحتل جزء القبيلة الذي كان تحت قيادة فرحان باشا، والمعروف بشمر الشرقية، منطقة ديار القبيلة القريبة من الموصل ونهر دجلة. وفي البداية، اتخذ الشيخ فارس موقفا يتسم بالتحدي تجاه السلطات التركية في دير الزور. ورغم ذلك فعندما دعا حسين باشا، قائمقام دير الزور في عام ١٨٧٨ م، فارس لزيارته، قبل الشيخ الشاب

(*) كرمه مشهور لذلك لقب (راعي البل). (المقدم).

(١) ساشو: رحلة...، ص ٣٠٣-٣٠٤.

بدون تردد عرضه كي يصبح باشا(*). وفي ظل هذا الاتفاق تلقى فارس راتبا شهريا صغيرا للحفاظ على النظام في ديار قبيلته[١].

تغير النظام: التغيرات الإدارية والتكنولوجية والديمغرافية في الجزيرة ١٨٨٠-١٩١٤م

في الفترة بين ١٨٨٠ واندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ م، تغير إلى حد كبير التوازن في المجتمع القبلي في الجزيرة وفي اعالي بلاد الرافدين[٢]. في البداية، كانت شمر جربا، رغم انقسامها إلى فريقين متعادين، لا تزال تتمتع بمكانتها المعتادة كأقوى قبيلة في المنطقة وطوال فترة الثلاثين عاما هذه استمرت شمر في إتباع أسلوب حياتها البدوي، رغم أن عددا من التغيرات قللت من مجال نفوذها ومست مسا وثيقا امتيازاتها السابقة في الإغارة وجمع الخاوة[٣].

واتخذت قوى التغير هذه، التي أثرت على شمر، أشكالا متنوعة ومختلفة، ولكنها انبثقت جميعا من الوجود الإداري العثماني الفعال والمتزايد في الجزيرة. وخلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، انعكس هذا الوجود بشكل واضح في الأمن العسكري الذي تحسن. وفي الماضي كانت شمر جربا تقوم بغاراتها مع خوف قليل جدا من انتقام الحكومة وحتى

(*) لم تشير الوثائق التاريخية أن الشيخ فارس حمل لقب باشا، بل حمل لقب بيك ومنصب قائم مقام شمر. (المقدم).

(١) بلنت: البدو ن ص٢٢٣.

(٢) نورمان لويس: «حدود الإقامة في سوريا ١٨٠٠-١٩٥٠م»، في الشؤون الدولية، المجلد ٣١ (١٩٥٥م)، ص ٣١.

(٣) شتاين: شمر جربا، ص١٠٢-١٠٣.

الهجوم العسكري المنسق لمدحت باشا عام ١٨٧١ م احتاج إلى تخطيط دقيق واتصالات فعالة لإحضار عدد كبير من القوات اللازمة لهزيمة القبيلة معا[١].

وفي العقود التي تلت هذا الانتصار الحاسم، ازداد كثيرا الوجود العسكري العثماني حول تخوم ديار شمر وإضافة إلى زيادة العدد الكلي للقوات التي توفرت لدوريات الصحراء، فان التكنولوجيا المتطورة جعلت الجندي الفرد أكثر فعالية من المحارب. وفي البداية وجه العثمانيون انتباههم إلى إقامة حزام أمني على امتداد طريق القوافل على نهر الفرات الذي يربط بغداد وحلب[٢].

كانت دير الزور، التي تقع بامتداد الفرات، نقطة البداية للجهد العثماني لتسحين الوضع الأمني. وخلال الستينات، أقام ارسلان باشا قلعة حصينة هناك واستخدم القوات العثمانية لكبح جماح قبائل شمر وعنزة[٣]. وفي عام ١٩٠٠ م، كانت هناك قوات تقيم في داخل تحصينات في الكسارة والمعدن والتبني والشطية والبو حسن والميادين والصالحية والبو كمال والقائم[٤]. وإلى الشمال بامتداد نهر الخابور ساهم موقع أخر في تل حسكة بمسؤولية السيطرة على شمر الغربية.

وفي الجانب الشرقي من الجزيرة، أخضعت قوات من تكريت والموصل وجزيرة ابن عمر، بالتعاون مع ديار بكر وماردين ونصيبين، شمر

---

(١) لويس: بروز، ص١٧٤-١٧٥.

(٢) لويس: «الحدود، الشؤون الدولية»، المجلد ٣١، (١٩٥٥ م)، ص ٤٨-٦٠.

(٣) أنظر الفصل الثالث.

(٤) موسيل: الفرات الأوسط، ص٢.

الشرقية للمراقبة[١]. وإضافة إلى إقامة شبكة من المواقع العسكرية حول ديار شمر، استفاد العثمانيون من عدة ابتكارات أخرى لتزيد من تقييدها لغارات شمر. وكان استعمال البغال كوسيلة مواصلات في الصحراء، رغم انه يبدو ابتكارا بسيطا، تطويرا كبيرا لقدرة القوات الحكومية في مطاردة المغيرين من البدو. في السابق كان المحاربون البدو من راكبي الجمال يتمتعون بميزة كبيرة في الحركة[٢] فعندما كان الفرسان العثمانيون يطاردونها، كانت شمر تتجه فقط إلى الصحراء الحارة والجافة، وبسرعة اختفت عن مطارديها. ولكن هذه المزية البدوية اختفت لأن البغال التي تحتاج إلى القليل من الماء والغذاء، كان لديها القدرة على الانطلاق السريع في الصحراء[٣].

وقضى ابتكار تكنولوجي أخر، وهو البنادق المتعددة الطلقات والمحسنة، على ميزة أخرى. فبدأ الجنود العثمانيون، في عام ١٨٦٩ م، باستخدام بندقية شنايدر التي تحشى مؤخرتها بالرصاص، وتلا ذلك بنادق وينشستر التكرارية في السبعينات ثم بندقية مارتيني المتطورة في نهاية القرن، وبذلك تمتعوا بقوة نيران متفوقة على محاربي شمر الذين تسلحوا ببنادق

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥/ ١٢٤٢، الموصل، راسل إلى نيكسون، رقم ٢، ٢٠/ ١/ ١٨٧٩ م.
وزارة الخارجية ١٩٥/ ١٤٤٥، ريتشاردز إلى يلاودن، رقم ٢، ١٣/ ١١/ ١٨٨٣ م.
وزارة الخارجية ١٩٥/ ١٦٤٧، بغداد، القنصل العام إلى وايت، رقم ٨٦، ٢١/ ٢/ ١٨٨٩م.
وزارة الخارجية ١٩٥/ ٢٣٣٩، الموصل، كريغ إلى لوثر، رقم ١٣، ٢١/ ٤/ ١٩١٠م.

(٢) وزارة الخارجية ١٩٥/ ٧١٧، بغداد، القنصل إلى بلور، رقم ٢٥، ٤/ ٤/ ١٨٦٢م.

(٣) ساشو: رحلة...، ص ٢٧٤-٢٧٥.

قديمة وبرماحهم المعتادة[١] . إن فرسان البغال العثمانيين سريعي الحركة والمسلحين ببنادق تكرارية كان لهم تأثير واضح على المغيرين من شمر. ومع ذلك، ربما حققت هذه البنادق الجديدة أعظم تأثير لها ضد شمر عندما استخدمت من قبل مزارعين مستقرين. وفي حديث له مع مارك سايكس، وهو رحالة بريطاني، في بداية القرن العشرين، قدم عبد الرحمن أغا، الزعيم الأكبر لأكراد الكيكيا[٢]، رواية معبرة عن تأثير بندقية مارتيني على العلاقات بين شمر والمزارعين.

سأله إذا كانت شمر تسبب له أية متاعب فأجاب في اقتضاب: «سابقا» وسأله: «ولماذا لا تسبب له المتاعب الآن»؟. وللحظة ظننت أن عبد الرحمن كان سيبتسم لمعت عيناه الباهتة ولمحت ومضة من الأسنان الصفراء الطويلة أسفل شاربه. ومع ذلك، فقد تبينت أنها مجرد تثاؤب. «سابقا»، قال وكأنه كان مستمرا في جملته، «كان لدينا رماح فقط، أما الآن فشمر تستعمل الرمح بمكر أن خيولها سريعة أيضا، وكانت جماعات الإغارة منها تفوق رجالي عددا. فضلا غن ذلك، كان رجالي أقل براعة منهم. ومع ذلك فقد اشتريت أخيرا خمسين بندقية ماريتني بثمن كبير. إن بنادق المارتيني الآن لا فائدة لها لفرسان على ظهر الخيل ضد رجال برماح. إن البدو يصرخون وهم ينطلقون بسرعة نحو رجال مسلحين بالمارتيني الذين يمتلكهم الخوف دائما ويهربون. إنني اعرف هذا الآن عندما ابتعت المارتيني وأيضا تعرفه شمر. ورغم ذلك فان شمر لم تعرف ما عرفته أنا،

(١) المصدر السابق: لويس: «الحدود»، الشؤون الدولية، المجلد ٣١ (١٩٥٥م)، ص٥٤.

(٢) كان أكراد كيكيا من أعداء شمر الرئيسيين في أعالي بلاد الرافدين.

وهو أن رجلا مترجلا ومسلحا بالمارتيني يعادل رجالا كثيرين برماح، وفي العام الماضي أخذ رجال شمر الآلاف من غنمي. فأخذت رجالي الخمسين المسلحين بالمارتيني وطاردتهم. وعندما رأى رجال شمر ذلك ظنوا أننا حضرنا لنستسلم. وانطلقوا يعدون نحونا مثل الشياطين، وهم يصرخون ويمتشقون رماحهم كالعادة. فقلت لرجالي أن يقفوا في ثبات على الأرض وان ينتظروا. وعندما أصبح رجال شمر على بعد دقيقة واحدة، قلت لرجالي بان يطلقوا النار في نفس الوقت. فهرب رجال شمر ولكن بعد أن أطلقنا النار أربعة مرات وقبل أن يصبحوا على بعد مسافة آمنة. لقد غضب شيوخهم وقالوا ذلك ضد قوانين الغزو ويجلب العار، لأننا جرحنا اثني عشر منهم. ولكنهم أعادوا إلى كل الغنم، وأنا لا اهتم بما يقوله رجال شمر لأنهم الآن يخافون من أن يلمسوا حيواناتي، وعليهم أن يذهبوا إلى مكان أخر للسرقة، أن البدو لا يفهمون المارتيني مثل عدم فهمي للرماح»[1].

ومن بين الابتكارات التكنولوجية التي كانت لها تأثير على بدو شمر، لا يجب أن نغفل تأثير شبكة الاتصالات البرقية المنتشرة وكما ذكرنا سابقا، فقد أصبح الخط البرقي الذي يربط بين بغداد والموصل يعمل منذ الستينات[2]. وعلى امتداد الحافة الغربية للجزيرة، ربط نظام برقي في وادي الفرات بين حلب وبغداد عام ١٨٩٠م[3]. وعلاوة على ذلك، أقيمت خدمات برقية، قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، بامتداد الحافة الشمالية

---

(١) مارك سايكس: تراث الخليفة الأخير، (لندن ١٩٥١م)، ص٣٣٠.

(٢) وزارة الخارجية ١٩٥/ ٥٢١، بغداد، كمبال إلى بلور، رقم ٨، ٢٦/ ٢/ ١٨٦٢ م.

(٣) موسيل: الفرات الأوسط، ص٣.

لأعالي بلاد الرافدين. وإجمالا، سهلت شبكة البرق هذه من التنظيم السريع والكفوء للحملات العسكرية ضد القبائل البدوية المتمردة.

وفضلا عن الابتكارات التكنولوجية والإدارية المتعددة، تغيرت أيضا الأنماط الديمغرافية في الجزيرة خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر. وكانت السنوات بين الأعوام ١٨٧٠ و ١٩١٤ م بداية لإعادة إسكان مناطق واسعة من الأراضي الزراعية المهجورة في شمال الجزيرة[١]. واتخذ الاستيطان، الذي أشرفت عليه الحكومة على امتداد نهري الفرات والخابور، أشكالا مختلفة عديدة.

أولا: حثت الحكومة القبائل الصغيرة، مثل الجبور والبكارة والعكيدات التي لم يكن بإمكانها حماية أنفسها ضد غارات عنزة وشمر، على أن تستقر بامتداد نهر الخابور. ورغم أن القوات الحكومة المتمركزة في مواقع إستراتيجية قدمت حماية أفضل للقبائل المستقرة إلا أنها مع ذلك لم تستطيع أن تمنع جمع الخاوة من الاستمرار حتى في القرن العشرين[٢].

وقد بدأ مشروع عثماني ثاني، وأكثر نجاحا إلى حد ما، للاستيطان قرب رأس العين. وفي هذا المشروع ذاته، تم استيطان الجراكسة المسلمين، الذين طردهم الروس من موطنهم في جبال القوقاز في نهاية السبعينات، في أراضي زراعية مهجورة حول رأس العين. واصطدم الجراكسة، وهم محاربون عدوانيون وعنيدون، بشمر الغربية في مواجهة استمرت عدة

(١) لويس: «الحدود»، الشؤون الدولية، المجلد ٣١، (١٩٥٥م)، ص٥٤-٦٠.

(٢) فون اوبنهايم: من البحر المتوسط، المجلد الثاني، ص٧٨-٧٩.

عقود. ورغم أن الجراكسة عانوا من غارات شمر السنوية، إلا أنهم احتفظوا بأراضيهم ونجحوا في النهاية من جعل رأس العين موطنهم[1].

إن الصفة المميزة لهذا العداء المبكر بين شمر واللاجئين الجراكسة الجدد تجد له انعكاساً مناسباً في القصة التالية:

عندما جاء الجراكسة في البداية إلى رأس العين، قامت شمر بالإغارة عليهم وأخذت ماشيتهم وخيولهم. ولكن في احد الأيام، أمسك رجال رأس العين بعشرين من البدو وذبحوهم. واخذوا واحدا منهم وعملوا ثقبا فيه ثم نفخوه كما قد ينفخ المرء جلد الغنم، وبعد ذلك شدوه بإحكام خارج رأس العين حتى أن كل من جاء إلى هناك قال: «ما شاء الله. ما هذا ؟ انظر ماذا فعل الجراكسة بشمر». ولكن شمر فكرت في طريقة للانتقام ودبرت هذه المؤامرة. إذ حضر بعضهم إلى رأس العين وقالوا: «أيها الجراكسة. لقد أعلنت عنزة الحرب ضدنا، فتعالوا وساعدونا». وذهب الذين لم يعرفوا شيئا عن خديعة البدو معهم -ذهب الكثير وحمل كل واحد بندقيته إلى الصحراء. وقال رجال شمر: «إلا ترون هؤلاء الفرسان في الصحراء ؟ أنهم عنزة. والآن اذهبوا انتم الذين تحملون البنادق في المقدمة. نحن بدو ولا نحمل سوى الرماح! » فذهب الجراكسة إلى المقدمة. ولكن لم يكن هناك عنزة، بل مجموعة أخرى من شمر. وهكذا وقع رجال رأس العين بين

(١) ماعوز: الإصلاح العثماني، ص١٤٢-١٤٣، بعثة تركيا الشرقية، المجلد ٩٠، ماردين، من الأب جوزيف أ. سكوت إلى الدكتور ن. ج. ليلانك، رقم ٢٦٢، ٨/ ٥/ ١٨٨٢ م. شتاين: شمر جربا، ص٢٦-٢٧.

مجموعتين من البدو، من الأمام ومن الخلف وسقط في ذلك اليوم خمسون منهم[١].

واستمر هذا التنافس طوال القرن، ولم يكن سوى واحدا من مؤثرات جديدة عديدة غيرت من مكانة شمر في الجزيرة[٢]. وربما جاء أقوى تحد لسيطرة شمر، فضلا عن العداء التاريخي مع قبيلة عنزة، من الأكراد الملليين. فبعد عدة عقود من خسارتهم للمعارك ضد مداخلات شمر، أصبح الأكراد الرعويين في شمال بلاد الرافدين، تحت قيادة إبراهيم الملي، أقوياء لدرجة تكفي لصد البدو الغزاة[٣]. فبعد انتهاء الحرب الروسية التركية عام ١٨٧٨ م، ضمن القائد الكردي إبراهيم باشا الملي وببراعة مساندة القبائل المجاورة لتشكيل تحالف كبير بالقرب من قيران شهر[٤].

وخلال التسعينات عين السلطان عبد الحميد الزعيم الملي قائد لواء في قواته الحميدية التي تم إقامتها في الأقاليم الكردية من الإمبراطورية وعلاوة على منحه رتبة باشا، تلقى إبراهيم الملي أيضا إمدادات قيمة من بنادق المارتيني فاستفاد من هذه المساعدة العثمانية، وبسرعة حول مسانديه الأكراد والعرب في قيران شهر إلى قوة قبلية مسيطرة في شمال بلاد الرافدين. ومن بين العرب، تحالفت قبائل الجيس والعبادلة والبكارة والشرابيين مع الزعيم الملي. إضافة إلى ذلك انضم أيضا أكراد التشيشية

---

(١) مارك سايكس: دار الإسلام (لندن ١٩٠٤م)، ص٢٨٤-٢٨٥.

(٢) سايكس: تراث الخليفة، ص٣٢٣-٣٢٤.

(٣) زكريا: عشائر الشام، ص٣٠. ومن أجل رواية معاصرة عن التوازن المتغير بين البدو العرب والأكراد الرحل، انظر اوالد: حول سكك حديد بغداد، (ليبزك ١٩١٣م)، ص٦٢- ٦٤.

(٤) سايكس: تراث الخليفة، ص٣٢٣-٣٢٤.

بالقرب من ماردين إلى القوة الجديدة. ومع ازدياد قوة ونفوذ إبراهيم الملي، أصبحت قبائل طي والجبور وشمر أعداءه اللدودين[١]. واستمرت المواجهات القبلية، التي نتجت عن هذه التحالفات الجديدة، حتى موت إبراهيم باشا الملي عام ١٩٠٩م[٢].

شمر الغربية:

١٨٩٠-١٩١٤م

في ظل قيادة فارس بن صفوق حافظت عشائر الثابت والفداغة والعليان على مكانتها كأقوى مجموعة قبلية في غرب الجزيرة. وعلى خلاف ما حدث لشمر الشرقية تحت قيادة فرحان باشا، الذي أدى تعاونه مع السلطات التركية وتذوقه للثقافة التركية إلى عزلته عن كثير من رجال قبيلته، فان جماعة الشيخ فارس من القبيلة حاولت أن تحيى حياتها البدوية التقليدية. وقد سهلت العلاقات الطيبة نسبيا بين الشيخ فارس وباشا دير الزور لشمر أن تمارس غزواتها وجمع الخاوة. ولم يتدخل العثمانيون في أعمال أتباع الشيخ فارس طالما أن غارات شمر لم تعطل الزراعة المتوطنة والقوافل على الطريق من الموصل إلى حلب. ونتيجة لذلك استمرت القبيلة في جمع الخاوة من أكراد سنجار والجبور والحديدين وقبائل صغيرة أخرى على امتداد الخابور[٣].

---

(١) المصدر السابق. و. ج. الفنستون: «القضية الكردية»، في الشؤون الدولية، المجلد ٢٢ (١٩٤٦م)، ص٩٤.

(٢) زكريا: عشائر الشام، ص٣٢٢-٣٢٣. فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٣٩-١٤١.

(٣) ساشو: رحلة...، ص ٣٠٣-٣٠٤.

في عام ١٨٩٠ م كانت ديار شمر الغربية تمتد بين الميادين ودير الزور على الفرات في الجنوب إلى خط بامتداد رأس العين وقيران شهر وماردين في الشمال. وفي إطار هذه المنطقة لم يكن هناك احد يتحدى شمر سوى أعدائها التقليدين من عنزة. وكانت هناك غارات متبادلة تشن بين هاتين القبيلتين بشكل يكاد يكون سنويا. وقد حدثت غارة مدمرة بشكل خاص عام ١٨٨٥ م عندما باغتت جماعة السبعة من عنزة الشيخ فارس على امتداد الخابور وسرقت ما يزيد على أربعمائة جمل[1]. وكانت الخسائر الناجمة عن الغارات بين القبائل تؤخذ باعتبار أنها من حياة الصحراء، وكانت تميل إلى التعادل في المدى الطويل. وفي نهاية القرن، سبب التحدي، الذي تمثل من إبراهيم باشا وفرقته الحميدية، خللا في توازن العلاقات بين شمر وعنزة والعثمانيين.

عبر السنين كانت شمر تتجه نحو سفوح الجبال الكردية في جنوب الأناضول، وببطء دفعت بحدود مراعيها شمالا حتى وصلت إلى المنطقة المحيطة بقيران شهر. وفي الفترة التي سبقت بروز إبراهيم باشا في التسعينات، كانت القبائل الكردية الضعيفة والمقسمة في المنطقة، تشكل صعوبة قليلة بالنسبة لشمر الغربية. ورغم العداء الشديد إلا أن أول معركة في سلسلة من المعارك الكبيرة بين شمر والمليين لم تحدث حتى نهاية التسعينات عندما قام الشيخ علي الشيوخ بالإغارة علي إبراهيم باشا الملي. وقد انتهت هذه الغارة بكارثة عندما قبض إبراهيم باشا على علي الشيوخ وأرسله إلى الأستانة. وقد ظل في العاصمة التركية لعدة شهور قبل أطلاق سراحه.

(١) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد الثامن، ص٧٦.

وبعد عودته إلى الجزيرة، سعى الزعيم، الذي لحق به العار، إلى الانتقام السريع وقاد هجوما آخر لشمر ضد منافسيه الملين. وساعده ابن عمه محمد الشيوخ، ابن بطل شمر الأسطوري عبد الكريم، فأعد علي الشيوخ محاربيه. ومع ذلك فقبل وصول شمر إلى أراضي الملين بالقرب من رأس العين، علم إبراهيم باشا الملي بخطتهم فسار مع أتباعه الأكراد خلال الليل وفاجأ شمر في تل حرمل (شرقي رأس العين)[١].

بعد هذه الهزيمة الثانية، أنهت شمر الغربية والشرقية تحت قيادة الشيخ فارس والشيخ العاصي بن فرحان، عداءهما مؤقتا وخططا لهجوم شامل ضد الأكراد الملين. وطلبا المساندة من أكراد دكوري وكيكي، وعرب طي والجبور وحرب والشرابيين. وتجمعوا عند الهلالية لمحاصرة قلعة يسيطر عليها أحد أعوان إبراهيم باشا الموثوق بهم. وأخيرا اتخذت شمر لنفسها موقعا شمال قيران شهر استعدادا للهجوم. ولسوء حظ العرب، علم إبراهيم باشا من خلال جواسيسه بتفاصيل خطة شمر للمعركة، وفاجأهم مرة أخرى في لحظة حاسمة. وللمرة الثالثة والحاسمة هزم الأكراد أعداءهم البدو. وفي لحظة انتصارها طاردت القوات الحميدية العرب المتقهقرين طوال الطريق حتى رأس العين[٢].

وقد اثر هذا الانتصار الكردي الساحق على شمر بثلاث طرق:

أولا: سمح للأكراد الملين أن يستردوا جزءا كبيرا من أراضي الرعي الشمالية التي كانت شمر قد استولت عليها خلال القرن الماضي. وكان

---

(١) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٣٩.

(٢) المصدر السابق.

لإعادة الاحتلال الكردي لهذا السهل فيما بين قيران شهر ورأس العين، تطويقا أخر لديار شمر. وقد لاحظ أحد المراقبين الأوربيين انه بعد المعركة الحاسمة في عام ١٩٠١ م، نادرا ما تحركت شمر إلى الشمال من نهر الخابور.

ثانيا: بعد هذا التغيير في التفوق القبلي، عاد الفلاحون الأرمن إلى الاستيطان في الأراضي الزراعية المهجورة حول رأس العين[١].

ثالثا: سرعان ما أنهى النصر الكردي التعاون المؤقت بين شمر الشرقية والغربية. وقد انتهى هذا التقارب الظاهري بسرعة كما بدأ عندما رفضت عشائر ثابت والفداغة من شمر الغربية أن تشارك في الحملة ضد إبراهيم باشا. فعلى خلاف عشائر شمر الأخرى التي عاشت بعيدا عن نهر الخابور، واجهت هاتان القبيلتان مشكلة خاصة. فقد كانتا تعيشان غرب الخابور، فيما بين أعدائهما الأقوياء عنزة والمليين، وكان عليهما أن يتجنبا معاداتهما[٢].

ولو كانتا قد اشتركتا في هجوم شمر ضد الأكراد المليين، لكانتا قد تعرضتا لهجوم من الفدعان من عنزة وحلفاء إبراهيم باشا، التي كانت تعيش جنوب الفرات. وعلاوة على ذلك، ولو كان جيش شمر قد هزم إبراهيم باشا، لكانت الثابت والفداغة قد تعرضتا لانتقام الأكراد وعنزة بعد عودة شمر الشرقية إلى ديارها قرب الموصل ولأمد طويل بخيامهم. ونتيجة لذلك، أغضبت هاتان العشيرتان بقية شمر عندما تركا وادي

---

(١) سايكس: دار الإسلام، ص٢٨٨.

(٢) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٤٠.

الخابور وعسكرا بالقرب من موطنهما الأصلي عند قلعة الشرقاط خلال الهجوم على الأكراد المليين[١].

واجهت عشائر الثابت والفداغة مزيدا من الصعوبات بعد وفاة قائدهم الشيخ فارس عام ١٩٠١ م. ولسوء الحظ لم يترك الزعيم المتوفى ابنا كبيرا لتولي قيادة القبيلة خلال هذه الفترة الصعبة. وهكذا وبسبب ضعف القيادة، بدت الثابت والفداغة تحت رحمة شمر الشرقية الأكثر قوة، ولكنهما لم يعانيا من أية خسائر أخرى في قوتهما نتيجة لنزاعات داخلية فيما بين خصومهما. فقد ثار صراع علني حول قيادة القبيلة بين اثنين من أبناء فرحان باشا، وهما العاصي وجار الله. وفي هذا النزاع، انضمت العشرتين الغربيتين إلى جار الله وأنصاره من عبده ضد العاصي وبقية شمر الشرقية. وبعد عدة معارك شديدة ساد السلام شمر الشرقية في النهاية. وفي هذا الجو المضطرب عادت عشائر الثابت والفداغة إلى نهر الخابور حيث عاشا تحت حماية المليين[٢].

احتفظ إبراهيم باشا الملي بمركزه القوي في شمال بلاد الرافدين حتى قام شباب تركيا الفتاة بعزل السلطان عبد الحميد في نيسان ١٩٠٩ م. ومساندة لولي نعمته المعزول، احتل إبراهيم باشا، بقوة تضم ١٥٠٠ كردي، دمشق باسم السلطان. ورغم ذلك، فقد أجبر بعد ذلك بقليل على الانسحاب. ولدى عودته إلى قيران شهر، قام متعاطفون مع حركة شباب تركيا الفتاة بمطاردة القائد الكردي القوي. وبعد مطاردته هنا وهناك في

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

شمال بلاد الرافدين، لقي إبراهيم باشا حتفه بالقرب من صفية(*). ومن الظواهر المتناقضة أن شمر الغربية التي كان قد هزمها قبل أقل من عقد من الزمان هي التي قتلته(١).

وقد ترك موت إبراهيم باشا الملي عشائر الثابت والفداغة بدون المساندة المعتادة من ولي نعمتها الكردي. وبالتالي اتجها إلى الفدعان للحماية. وكانت استجابة مجحم بن مهيد، زعيم الفدعان الأولية حذره، وذلك بسبب رغبته في الحفاظ على علاقات صداقة بين الفدعان وبقية قبيلة شمر. ورغم ذلك فعندما بدأتا الثابت والفداغة في الإغارة على أخوانهما في القبيلة، سرعان ما تورطت الفدعان في النزاع بين العشيرتين المنبوذتين وبقية شمر. ولكن في عام ١٩١٤م كانت عشائر الثابت والفداغة قد انضمتا مرة أخرى إلى الجزء الرئيسي من شمر الغربية(٢).

العلاقات بين شمر الشرقية والعثمانيين

١٨٩٠- ١٩١٤م

بينما أقام الشيخ فارس وشمر الغربية بعيدا عن النفوذ المباشر للحكومة المركزية تعاونت شمر الشرقية بنشاط مع حكام بغداد والموصل

(*) قرية تقع شمال غرب الموصل على الحدود العراقية السورية، ضمن الأراضي العراقية. (المقدم).

(١) عن نهاية إبراهيم باشا الملي الذي كان قويا، انظر بيير روندو: «القبائل الجبلية في أسيا الداخلية»، في مجلة الدراسات الشرقية، المجلد السادس، ١٩٣٦م)، ص٣٧. بانز: حول سكك حديد، ص٨٥. الفنستون: «القضية الكردية»، في الشؤون الدولية، المجلد ٢٢ (١٩٤٦م)، زكريا: عشائر الشام، ص٣٢٦-٣٢٧.

(٢) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٤٠.

العثمانيين[١]. وقد ساهمت هذه العلاقة الوثيقة في التقلص الملحوظ في قوتها البدوية التقليدية. وعلاوة على ذلك، يمكن إرجاع التغيير إلى عاملين محددين، احدهما داخلي والأخر خارجي. وقد لخص ستيفن لونكريك المشكلة الداخلية عندما قال: «أن شمر التي مزقتها المنافسات الداخلية... قدمت صورة كاملة لحياة الصحراء غير المستقرة»[٢]. وكانت السيطرة العثمانية الإدارية المتزايدة مقرونة بوجود عسكري قوى في ديار شمر الشرقية تمثل في القوة الخارجية التي قللت من تفوق قبيلة شمر في الجزيرة.

لقد كانت المنافسات بين العشائر موجودة دائما، ومع ذلك، فبعد موت عبد الكريم اتخذت هذه الصعوبات مغزى أكبر في تاريخ شمر. وقبل العام ١٨٧١ م، تركزت المنافسة في القبيلة حول مسألة أي قائد يمكن أن يحصل على اكبر تأييد يستند إلى كرمه وشجاعته وبسالته القتالية وذكائه وأيضا اعتراف الحكومة به كزعيم أكبر. إضافة إلى هذه العوامل، فان

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ١٢٤٣، الموصل، راسل إلى نيكسون، ٥/ ٤/ ١٨٧٩ م.
وزارة الخارجية ١٩٥ / ١٣٠٩، الموصل، من راسل إلى مايلز، ٥/ ٦/ ١٨٨٠ م.
وزارة الخارجية ١٩٥ / ١٤٤٥، الموصل، ريشاردز إلى بلودين، رقم ٢، ١٣/ ١١/ ١٨٨٣م.
وزارة الخارجية ١٩٥ / ١٤٧٨، الموصل، ريتشاردز إلى بلودين، رقم ٢٢، ٤/ ٣/ ١٨٨٤م.
وزارة الخارجية ١٩٥/ ١٦٤٧، بغداد، من القنصل العام إلى وايت، رقم ٨٦، ٢١/ ٥/ ١٨٨٩م.
وزارة الخارجية ١٩٥ / ١٦٤٧، بغداد، تويدي إلى وايت، رقم ٣٣٥، ٢٦/ ٦/ ١٨٩٠ م.

(٢) ستيفن هـ. لونكريك: العراق ١٩٠٠-١٩٥٠ م: التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي، (اكسفورد ١٩٥٣م)، ص٥٤.

العشائر كثيرا ما ساندت القائد الذي كان بإمكانه توفير أوفر الغنائم والذي كان يتحدى بنجاح السلطة الحكومية.

وطالما كانت شمر تؤمن بقدرتها على هزيمة أو مراوغة الجيش العثماني، فان قدرة الحكومة في التأثير على شؤون شمر ظلت محدودة نسبيا. ومع ذلك، فبعد أن أثبت الجيش تفوقه العسكري على شمر، زاد النفوذ الحكومي على الحياة القبلية كثيرا. وبعد فشل محاولة عبد الكريم الجريئة في مقاومة التجاوزات العثمانية المتزايدة في عام ١٨٧١ م، لم يعد مستقبل شيوخ شمر في تولي القيادة يعتمد على امتلاكهم لتفوق عسكري يتحدى الحكومة وبالتالي، أصبحت الحكومة تدريجيا الحكم الأخير في أمور القبيلة. ومنذ عام ١٨٧٥ م فصاعدا، أدركت شمر عامة، والجزء الشرقي منها خاصة، أن أعمالها تخضع لتدخل حكومي فعال[1].

وطوال الثمانينات، احتفظ فرحان باشا بعلاقات وثيقة مع حكام بغداد والموصل. وبعد حصوله على لقب باشا، تولى فرحان مسؤولية وقف غارات شمر وجمع الخاوة من القبائل الضعيفة والقرى في شمال الجزيرة. ولقاء خدماته كان يتسلم راتبا شهريا يبلغ حوالي ٢٥٠ ليرة تركية. وفي الواقع لم يستطع فرحان تطبيق هذه القواعد الصارمة ضد عمليات الإغارة. ورغم ذلك تظاهر بالتعاون في استكمال مهمته المنوطة به. وكما قال قنصل بريطاني، كلما حدثت غارة من شمر، كان فرحان دائما ما يبعث برسالة يلقي فيها بالمسؤولية على عشيرة متمردة أو على منافسه الشيخ

---

(١) على سبيل المثال، تدخل الحكومة في عام ١٨٨٩ م، وزارة الخارجية ١٩٥ / ١٦٤٧، بغداد، القنصل العام إلى وايت، رقم ٨٦، ٢١/ ٢/ ١٨٨٩ م.

فارس. وفي محاولة أخرى لإرضاء الرسميين في بغداد والموصل، كثيرا ما طلب قوات حكومية للمساعدة في السيطرة على العشائر المنشقة[١].

وفيما قبل الحرب العالمية الأولى، زاد العثمانيون من أضعاف شمر الشرقية أما بخلق تنافس بين زعمائها العديدين أو بزيادة تفاقم المنافسات القائمة. فمثلا، حدث تحد رئيسي لقيادة فرحان في ربيع عام ١٨٨٤م عندما سعى أخوه معجون بن صفوق إلى اعتراف العثمانيين به كزعيم اكبر حكومي. وقد ناصر معجون عدد من رجال قبيلة فرحان باشا، وعرض أن يدفع للحكومة ضريبة سنوية من الغنم تبلغ قيمتها ١٠ آلاف ليرة تركية وان يتخلى عن الراتب الشهري المعتاد لو انه اعترف به كزعيم شمر في سنجق الموصل[٢].

ورغم أن راتب فرحان الشهري الكبير كان ٢٥ ألف قرش إلا انه نفر منه الكثير من أتباعه بسبب بخله. وبالنسبة للعرض الذي تقدم به معجون، اقترح حاكم الموصل أن يسمح له بجمع الضرائب السنوية لاختبار قدرته على أداء عمله. ومع ذلك، وقبل أن تبدأ التجربة، تم إلغاؤها بأمر من حاكم بغداد. وهكذا، صد فرحان وبشكل فعال التحدي الفاشل لأخيه الأصغر واحتفظ بمنصب الزعيم الأكبر حتى وفاته في عام ١٨٩٠م[٣].

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ١٦٨٢، بغداد، تويدي إلى وايت، رقم ٣٥٥، ٢٦/ ٤/ ١٨٩٠ م.

(٢) وزارة الخارجية ١٩٥ / ١٤٧٨، الموصل، ريتشاردز إلى بلودين رقم ٢٢، ٤/ ٣/ ١٨٨٤م.

(٣) وزارة الخارجية ١٩٥/ ١٤٧٨، بغداد، بلودين إلى الايرل دافريو، رقم ٣٦٢، ٢١/ ٥/ ١٨٨٤م.

بعد وفاة فرحان باشا برزت مشكلة اختبار خليفة له الفوضى مرة أخرى بوحدة القبيلة كما حدث من قبل منذ حوالي أربعين عاما بعد وفاة الشيخ صفوق. وقد ترك فرحان باشا ستة عشر ابنا، على وجه التحديد، وكان لجميعهم حق شرعي في قيادة القبيلة. وكان من بينهم مطلق وشلال وعبد العزيز وفيصل والعاصي ومجول وزيد وبدر وميزر[(١)]. ومن بين هذه المجموعة الكبيرة، خلف العاصي أولا والده كزعيم أكبر. وفي السنين العشر التالية، تتابع على مشيخة شمر الشرقية شلال والعاصي ومجول وجارالله[(٢)].

وتقدم الرواية التالية عدة أمثلة على اضطراب أحوال شمر الشرقية بين الأعوام ١٨٩٠ و ١٩١٤ م. فقد اندلع القتال فيما بين القبيلة في أيار من عام ١٨٩٧م عندما ثارت عشيرة الصايح ضد تعيين العاصي كزعيم اكبر حكومي. فسافر العاصي إلى الموصل وحصل على مساندة الحاكم له بعد أن أعطاه فرسين ممتازتين تقدر قيمتهما بما يزيد على ٢٠٠ ليرة تركية. وفي مقابل ذلك، أرسل الحاكم فورا بعدد من قوات الفرسان لمساعدة العاصي في إنهاء التمرد[(٣)]. ومرة أخرى تحدى شلال، بعد سنتين أي في عام ١٨٩٩ م، العاصي، وذلك بعد أن رشا حميد بك القائم بعمل حاكم الموصل. وفيما بعد، وفي نفس السنة، يبدو أن الشيخ مجول بن فرحان عمل أيضا كزعيم

---

(١) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص ١٥٤.

(٢) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد الثامن، ص١٠٨.

(٣) وزارة الخارجية ١٩٥ / ١٩٧٨، الموصل، القنصل إلى قنصل العام ببغداد، رقم ١٣، ٦/ ٤/ ١٨٩٧ م.

اكبر لشمر[١]. وقد ثارت المزيد من الصعوبات في عام ١٩٠٢ م عندما سار جار الله بمساعدة عشيرته عبده وكتيبة من الفرسان الأتراك ضد الشيخ العاصي[٢].

وقد ازدادت بشكل كبير حدة الصراع على قيادة شمر الشرقية عام ١٩٠٥ م عندما بدأت عشائر عبده واسلم حربا صريحة. فقد انفجر الموقف القبلي الذي كان متوترا بالفعل عندما اتهم الشيخ جار الله العاصي بتصرف خال من الشرف بتهجمه على شرفه الشخصي. وأملا في إذلال العاصي وأتباعه، تحرك جار الله وعبده من معسكرهم في البادية بين دجلة والفرات لمهاجمة العاصي ومحاربته على نهر دجلة. وفي المعركة التي نشبت قتل قائدا العشيرتين: الهادي بن العاصي وجارالله[*] وظلت عشيرة اسلم بلا قائد بعد أن فقدت الشيخ الهادي ودخول العاصي السجن. وفي نفس الوقت تولى غضيب بن قعود، وهو عم الهادي قيادة العشيرة، وفي النهاية هزم اسلم في معركة تاليه[٣].

---

(١) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٠٥٥، الموصل، القنصل إلى القنصل العام ببغداد، رقم ٥، ١٦/ ٢/ ١٨٩٩ م.

(٢) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢١٣٨، الموصل، رسام إلى القنصل العام ببغداد، ٢٤/ ١٢/ ١٩٠٢ م.

(*) لم يقتل في هذه المعركة سوى الشيخ الهادي، وبقي الشيخ جارالله حيا إلى أواخر الأربعينات من القرن العشرين. (المقدم).

(٣) موسيل: العادات، ص٥٦٦-٥٦٩.

وبعد ذلك القتال الضاري بين القبيلة، شغلت شمر الشرقية نفسها بسرقة التجار والرعاة والمسافرين على طريق حلب-الموصل[١]. وكما كانت الحال منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر، لم ترسل الحكومة بقوة عسكرية ضد شمر بعد كل حادثة صغيرة. ولكنها انتظرت نظمت حملة كبيرة. وبعد سبع سنوات من السرقات المزعجة وابتزاز خاوة كبيرة تعامل العثمانيون في النهاية مع القبيلة بطريقة حازمة[٢].

وفي الثاني من كانون الثاني عام ١٩١١ م، سار حوالي الفان من القوات العثمانية وقوات قبلية إضافية تحت قيادة الكولونيل رضا بك، رئيس هيئة الأركان، من بغداد ضد شمر الشرقية. وفي البداية سار عمل القوة ببطء بسبب الطقس الشديد البرودة، وأخيرا جمعت القوة ٤ آلاف من رجال شمر تحت قيادة الشيوخ مجول والعاصي وشلال عند الحضر، شرقي قلعة الشرقاط، وحصلت منهم على وعد بدفع ضرائب متأخرة تصل إلى ٧ آلاف ليرة تركية[٣] إضافة إلى مصادرة العديد من الجمال والأغنام، عزل القائد التركي الشيخ مجول كزعيم اكبر، ومنح المنصب إلى الشيخ حاجم بن العاصي، مما أثار حزن الشيخ حميدي الذي ساند الحملة التركية منذ بدايتها[٤].

---

(١) وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٢١٧٤، الموصل، نائب القنصل إلى لوثار، ١/ ٢/ ١٩١٠م.

(٢) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٣٦٧، الموصل، نائب القنصل إلى فيزون، ٢٠/ ٢/ ١٩١١ م.

(٣) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٣٦٧، الموصل، نائب القنصل إلى لوثر، رقم ١١، ١٥/ ٣/ ١٩١١ م.

(٤) وزارة الخارجية ١٩٥ / ٢٣٦٨، موجز أحداث العراق التركي، آذار، ١٩١٣ م.

وفيما بين الأعوام ١٩١١ واندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، اتبعت العلاقات العثمانية مع شمر الشرقية النمط المألوف في الغارات القبلية والسرقات الصغيرة واستمرار تلاعب الحكومة بالزعامة الكبرى للقبيلة[1]. وباختصار، يلاحظ المرء انه خلال ما يزيد عن أربعين سنة، منذ موت عبد الكريم عام ١٨٧١ م حتى مذلة ١٩١١ م، تغيرت مكانة شمر جربا في الجزيرة إلى حد كبير فلم تعد القبيلة قادرة على تحدي الجيش العثماني كما فعلت عامي ١٨٧٠-١٨٧١ م. وأيضا لم يعد العثمانيون مضطرين إلى الاعتماد كثيرا على شمر كقوات إضافية لإدارة الإقليم كما فعلوا في وقت سابق[2]. كما وإن وحدة القبيلة النسبية عام ١٨٧١ م تمزقت خلال الأربعين عاما الماضية. وأخيرا فان المزايا العسكرية التقليدية لشمر البدوية، مثل سرعة الحركة والمباغتة والتنظيم، قد تحدتها التكنولوجيا الحديثة، وإلى حد ما بنجاح.

شمر والحرب العالمية الأولى:

١٩١٤-١٩١٨ م

عندما أعلنت أوربا التعبئة للحرب في تموز عام ١٩١٤ م، استمر بدو الجزيرة في أسلوب حياتهم القديم. ولم تكن أغلب القبائل قد سمعت بإمبراطورية هابسبورغ، ولم تكن لتبدي أي اهتمام بالأحداث التي وقعت في ٢٨ حزيران ١٩١٤م. ومع ذلك، وفي ٥ تشرين ثاني ١٩١٤ م، عندما

---

(١) ل / ب و س / ١٠، المجلد الثاني، موجز أحداث العراق التركي، أيلول ١٩١٢- كانون الثاني ١٩١٣ م.

(٢) عن استخدام رجال شمر كقوات إضافية انظر ج. بارلو، المعجم الجغرافي لبغداد، اعادة طبع (سيملا ١٩١٥)، ص١٢٦.

تحالفت الإمبراطورية العثمانية مع قوات المحور، تشابكت مصائر شمر جربا ومعها مصائر الأقاليم ضمن الإمبراطورية مع سلسلة من الأحداث نتج عنها في النهاية تغييرا جذريا في حياتهم[١].

وعلى خلاف القبائل البدوية في الحجاز التي انضمت إلى الكولونيل ت. أ. لورنس والشريف حسين أمير مكة لتحرير الأقاليم العربية من الإمبراطورية العثمانية، لعبت الأقسام الشرقية والغربية من شمر دورا ثانويا وغير بطولي تماما في الحرب العالمية الأولى[٢]. وساهمت بقدر ضئيل في الجهود الحربية سواء للحلفاء أو لقوات المحور. علاوة على ذلك، خاف العثمانيون من القبيلة ذات المحاربين العديدين كطابور خامس محتمل، وسعوا إلى أن يسترضوا شمر خلال فترة الحرب[٣].

احتفظ الأتراك بولاء القبيلة بدفع مرتبات شهرية لزعماء مختارين وعرض وظائف عسكرية ثانوية ولكنها مربحة عليهم. وكمثال على هذا كانت تجربة مشل بن فارس الزعيم الأكبر لشمر الغربية الذي عين برتبة مقدم وتلقى مخصصات شهرية كبيرة كي يحرس خط حلب-الموصل الحديدي ضد المخربين[٤]. ومع ذلك، استخدم الأتراك شمر جربا كقوات إضافية ضد القوات البريطانية في معركة واحدة مسجلة. فقد اشتركت فرقة من رجال شمر في هجوم تركي ضد الدفاعات البريطانية في الشعيبة بالقرب من البصرة في ١٢ نيسان ١٩١٥ م. وبعد ثلاثة أيام من القتال

---

(١) لونكريك: العراق ١٩٠٠-١٩٥٠، ص٧٥.

(٢) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٤١.

(٣) إ. رابث: تطور سوريا السياسي تحت الانتداب، (باريس ١٩٢٨م)، ص٢٤١-٢٤٢.

(٤) (غير موجودة في الأصل).

العنيف، تقهقر الجيش التركي الذي حلت به خسائر كبيرة، بعد أن فشل في الاستيلاء على الشعيبة[١].

وقد لحقت بالإستراتيجية البريطانية نكسة رئيسية عندما عادت القوات التركية فاستولت على الكوت في ٢٩ نيسان ١٩١٦ م بعد حصار طويل وفي كانون الأول من نفس العام، بدأ الجيش البريطاني تحت قيادة الجنرال مود مرة أخرى مسيرته إلى بغداد وطبقا لخطة تفصيلية استهدفت تجنب مشاكل التموين السابقة، دخلت القوات البريطانية أخيرا المدينة الأسطورية في ١١ آذار ١٩١٧م[٢].

ورغم أن الجيش البريطاني استولى على العاصمة السياسية للعراق إلا انه ظل في موقف استراتيجي يتعذر الدفاع عنه. فالموقف السليم تطلب السيطرة على المنطقة التي تقع شمال وغرب بغداد. وخلال السنة والنصف التاليتين، تقهقرت القوات التركية في اتجاه الشمال بامتداد دجلة أمام تقدم القوات البريطانية المستمر. وعندما وصلت أخبار الهدنة إلى بغداد في ٢ تشرين ثاني ١٩١٨ م، كانت القوات البريطانية قد تقدمت شمالا حتى القيارة، حوالي أربعين ميلا جنوب الموصل. وفي البداية رفض علي إحسان باشا القائد التركي في الموصل أن يسلم المدينة إلى البريطانيين[٣].

ورغم ذلك، فبعد تبادل للمذكرات وعقد مؤتمر في ٧ تشرين ثاني مع القائد العام البريطاني وليم مارشال، استسلم علي إحسان باشا في النهاية

---

(١) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٤١، عن تفاصيل المعركة أنظر ارنولد ولسون: الولاءات في بلاد الرافدين: ١٩١٤-١٩١٧ م، المجلد الأول، (لندن ١٩٣٠م)، ص٣٤-٣٥، العزاوي: تاريخ العراق، المجلد الثامن، ص٢٧٨-٢٧٩.

(٢) ولسون: ولاءات، المجلد الأول، ص٢٣٢-٢٣٤.

(٣) لونكريك: العراق ١٩٠٠-١٩٥٠ م، ص٩١-٩٢.

ووافق على إخلاء ولاية الموصل خلال عشرة أيام [١]. وهكذا سيطرت القوات البريطانية أسميا، في تشرين ثاني ١٩١٨ م، على ديار شمر الشرقية. وعلى الجانب الأخر من الجزيرة، شاهدت شمر الغربية عملية إخلاء القوات التركية لديرتها في اتجاه الشمال نحو ماردين ونصيبين. وملأ ضابط بريطاني عسكري الفراغ السياسي على الجانب السوري من الجزيرة عندما دخل دير الزور في كانون الأول ١٩١٨م [٢].

في خريف عام ١٩١٧ م، التقى البريطانيون لأول مرة بشيخ شمر الشاب الصاعد عجيل الياور وأبيه عبد العزيز بن فرحان أثناء هجرتهم جنوبا من شمال الجزيرة، التي كانت حينذاك أرضا تركية، إلى أرض مخيمهم الشتوي بين الحلة والبغيلة [٣]. وكان في صحبتهما حوالي ١٠٠٠ خيمة، أساسا من عشيرة عبده. في بداية الحرب، كانت عبده تتبع الشيخ حميدي بن فرحان الذي كان لا يزال مقيما في المنطقة التركية. ومع ذلك، ولسبب غير واضح، تحلت العشيرة عنه وانضمت إلى عجيل وعبد العزيز [٤].

ومنذ عام ١٩١٧ م فصاعدا تعلقت الشؤون السياسية فيما بين شمر بمسألة أي شيخ من شيوخ القبيلة العديدين سيعترف به البريطانيون رسميا كزعيم اكبر. وكما كان الحال قبل الحرب، أن العدد الهائل من نسل فرحان

---

(١) ارنولد ولسون: ولاءات في بلاد الرافدين: ١٩١٧-١٩٢٠ م، المجلد الثاني، (لندن ١٩٣٦م)، ص ٢٠-٢١.

(٢) لونكريك: العراق ١٩٠٠-١٩٥٠ م، ص١٠٦.

(٣) ل/ ب اند س/ ١٠/ ٦٨٥، المجلة العربية، رقم ٧٠، ص ٤٦٠، ١٩١٨/١١/٢١ م، تعرف مدينة بغيلة الآن بالنعمانية.

(٤) وزارة الخارجية ٣٧١/ ٣٣٩٧/ رقم ٢١٤٢١، التقرير نصف الشهري لولاية بغداد: أخبار القبائل، ١٩١٧/١١/١٥ م.

باشا الذكور جعل من الصعب جدا أن يبسط شيخ واحد سيطرته على شمر الشرقية. وكان الشيخ فيصل بن فرحان يتمتع بهالة لزيارته الشريف مكة القائد الضمني لحركة الاستقلال العربية، وكان أول زعيم شمري يقابل البريطانيين، فجعله ذلك يأمل في أن يعترف به زعيما اكبر للقبيلة[١].

ولكن آماله في مساندة الحكومة له واجهت تحديا عندما دخل عجيل الياور وعبد العزيز ابن فرحان المنطقة التي يحتلها البريطانيون في تشرين ثاني ١٩١٧م[٢]. وفي نيسان ١٩١٨ م، كان أتباع الشيخ فيصل قد تناقصوا إلى حوالي ٤٠ خيمة. على نقيض العدد الكبير من أتباع عجيل الياور، فان المساندة المحدودة لفيصل أنهت أية أوهام بريطانية خاصة بمطالبته بقيادة شمر[٣]. وبمصاحبة أتباعهما من عبده، هاجر عجيل وعبد العزيز إلى الشمال في آذار ١٩١٨ م نحو مراعيهم الصيفية. وفي أيلول من نفس العام قامت قبيلة عنزة، بعد أن حذرتها المخابرات البريطانية من غارة شمرية وشيكة الوقوع، بمفاجأة مجموعة إغارة تتكون من ٤٠٠ رجل بقيادة عجيل الياور في جنوب عانة[٤] وقد أثبتت هذه الغارة الفاشلة بأنها كانت أخر عمل في المخطط البريطاني-الشمري المحدود خلال الحرب العالمية الأولى.

---

(١) ل/ ب اند س، ١٠/ ٦٨٥، المجلة العربية ن رقم ٧٨، ص٣٤، ١١/ ٢/ ١٩١٨م.

(٢) وزارة الخارجية ٣٧١/ ٣٣٩٧/ رقم ٢١٤٢١، التقرير نصف الشهري لولاية بغداد: أخبار القبائل، ١٥/ ١١/ ١٩١٧ م.

(٣) ل/ ب و س/ ٧٣٢، التقرير نصف الشهري لولاية بغداد، رقم ١٢، ١/ ٦/ ١٩١٨ م.

(٤) المصدر السابق.

الفصل الخامس

مشيخة عجيل الياور

١٩١٨-١٩٤٠م

عندما انتهت الحرب في تشرين الثاني عام ١٩١٨ م، وجدت الأقاليم العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية، نفسها في موقف غير مألوف تماما. فلأول مرة منذ حوالي أربعة قرون، لم يعد الأتراك العثمانيون يسيطرون على بلادهم. وفي هذا الوقت المبكر ظل شكل السيطرة السياسية، الذي سيحل محل العثمانيين غير واضح. وفي المدن الرئيسية للعراق وسوريا انتشرت التوقعات الخاصة ببدائل متنوعة، تتراوح بين إقامة مملكة عربية وسيطرة أوربية. ووجدت أمال العرب في الاستقلال سندا لها في القادة السياسيين والمثقفين في المدن. بينما ظل سكان الريف الأقل ثقافة غير متورطين نسبيا[1].

---

(١) عن تفاصيل شؤون ما بعد الحرب أنظر: هوارد م. سكار: بزوغ الشرق الأوسط: ١٩١٤-١٩٢٤م (نيويورك ١٩٦٩م)، ص٢٥٢-٢٩٠. بوشن: بريطانيا والهند، ص٢٦٩-٤٧٤. جوكا نيفاكيفي: بريطانيا وفرنسا والشرق الأوسط العربي ١٩١٤-١٩٢٠ م، (اكسفورد ١٩٦٩م)، ص١٠٤-٢٤٠. زي ن. زين: =

وعلى الرغم من محاولات المنظرين العرب القوميين في دمشق وبيروت والقدس وبغداد، إلا أن القوى العظمى هي التي حددت المصير السياسي للمنطقة. وتصور هذه النقطة المهمة والحيوية حقيقة انه عندما انتهى القتال في تشرين الثاني ١٩١٨ م، احتلت القوات البريطانية معظم العراق مما وفر لها موقعا مسيطرا أثرت من خلاله على مستقبل هذا الإقليم التركي السابق. وعلى النقيض من الموقف الواضح نسبيا في العراق، كان الموقف في سوريا غامضا تماما في نهاية الحرب. فقد استهدفت فرنسا، كنتيجة لاهتمام يمتد إلى عدة قرون بالمنطقة ولمواد محددة في اتفاقية سرية، أن تسيطر على سوريا بعد الحرب. ومع ذلك فقد أحبطت آمال فرنسا عندما تركت اتفاقية الهدنة القوات البريطانية والعربية تحت قيادة الأمير فيصل الذي احتل معظم سوريا.

وبينما استمرت مفاوضات السلام في باريس طوال العام ١٩١٩م وحتى العام ١٩٢٠م، ظل العراق تحت السيطرة البريطانية العسكرية[(١)]. ومن أيار ١٩١٨م خدم المقدم أرنولد ت ولسون كقائم بعمل المفوض المدني وأشار بإقامة إدارة مدنية عريضة. وتولى مكتب المفوض المدني كل الشؤون الاجتماعية والأمن السياسي والقبلي، وتولى خمسة سكرتاريون مسائل أخرى منها الدخل الإجمالي (دخل الأرض والتسجيل والمنازعات والزراعة والبلديات)، والمالية (الميزانيات وتدقيق الحسابات والعوائد

= النضال من اجل الاستقلال العربي: الدبلوماسية الغربية وبروز وسقوط الملك فيصل، (بيروت ١٩٦٠ م).

(١) فيليب و ايرلاند: العراق: دراسة في التطور السياسي، (نيويورك ١٩٣٨م)، ص١٣٦-٢٧٦.

والعملة)، والصحة (الصحة وشؤون الصحة العامة والسجون المدنية)، والأعمال العامة (السكك الحديدية والموانى والري)، والاتصالات. وظلت الشرطة وشؤون التعليم أيضا تتبع مكتب المفوض المدني [١].

تبنى البريطانيون في تأسيسهم للنظام في العراق التقسيمات التركية الإدارية من لواء وقضاء وناحية، وأطلقوا عليها الأسماء الانكليزية المقاطعة والمنطقة والمنطقة الأصفر. وفي كل من هذه الوحدات، ساعد الموظفون العرب، الذين حملوا ألقاب المتصرف والقائم مقام والمدير، الضباط السياسيين البريطانيين في إدارة البلاد. ومن خلال هذا التسلسل الهرمي من الموظفين، قام البريطانيون بتنفيذ سياستهم القبلية التي أثرت تأثيرا عميقا على البدو، مثل شمر، في سنوات ما بين الحربين [٢].

وجاء التخلي النهائي عن الأقاليم العربية العثمانية مع توقيع معاهدة سيفر في آب ١٩٢٠ م ومنح عصبة الأمم حقوق الانتداب في نيسان ١٩٢٠م. وفيما بين الأعوام ١٩١٨ ونيسان ١٩٢٠ م، كان الإداريون البريطانيون يعملون في جو من التيارات المتضاربة للمعارضة العراقية، ولكن مواد هذا الانتداب الجديد أنهى مؤقتا هذا الشك. وطبقا للمادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم، كانت مهمة تطوير المناطق، التي كانت غير قادرة على أن تقف وحدها على قدميها حتى تتمكن من أن تصبح مستقلة، «أمانة حضارية مقدسة» [٣] وأشارت الفقرة الرابعة من نفس المادة إلى الأقاليم العربية السابقة، دون أن تسميها مباشرة، كمناطق يطور سكانها إلى مستوى

---

(١) لونكريك: العراق: ١٩٠٠-١٩٥٠ م، ص ١٠٧-١١٤.

(٢) المصدر السابق، ص١١٢-١١٣.

(٣) ارنست مين: العراق من الانتداب إلى الاستقلال، (لندن ١٩٣٥م)، ص٦٧.

يمكن عنده الاعتراف بها، وبشكل مشروط، كأمم مستقلة «تخضع للنصيحة والمساعدة الإدارية»[١].

أخذت بريطانيا العظمى على عاتقها هذه المسؤوليات واتخذت إجراءات في إعداد العراق للاستقلال النهائي. وقد أعيد تنظيم الحكومة المؤقتة في كانون أول ١٩٢٠م، التي أحلت المتصرفين والقائم مقامين العراقيين كحكام إقليميين فاعلين، محل موظفين سياسيين بريطانيين، مع استثناءات عديدة أن هذا النظام الإداري الإقليمي وإيجاد مجلس وزراء عراقي جعل السكان يرون أن العراقيين يشاركون في حكم بلدهم[٢].

وبعد موافقة مجلس الوزراء والتأييد الشعبي من خلال استفتاء تموز ١٩٢١م، أصبح الأمير فيصل الهاشمي من مكة، وملك سوريا السابق، ملكا على العراق في ٢٣ آب ١٩٢١ م. ورغم إقامة المملكة العراقية عام ١٩٢١م إلا أن بريطانيا العظمى احتفظت بسيطرتها على الأراضي التي تحت الانتداب حتى العام ١٩٣٢ م. وقد حلت اتفاقية التحالف الانكليزية-العراقية في عام ١٩٢٢ م، والتي اشتملت على أغلب مواد الانتداب الأصلية، محل اتفاق عصبة الأمم لعام ١٩٢٠ م. ومن خلال هذه المعاهدة، حصل العراق ظاهريا على استقلال ذاتي داخلي كبير و تأثير محدود على شؤونه الخارجية. ومع ذلك، فقد استمرت السلطة الحقيقية في أيدي

---

(١) عبد اللطيف طبباوي: التاريخ الحديث لسوريا ويشمل لبنان وفلسطين، (لبنان ١٩٦٩م)، ص٣٣٨-٣٣٩.

(٢) لونكريك: العراق ١٩٠٠-١٩٥٠ م، ص١٢٩.

المندوب السامي لأن المعاهدة احتفظت لبريطانيا بالسيطرة على الشؤون الخارجية والمالية والقضائية والعسكرية[١].

وفيما بعد أصبح للعراق دستور مكتوب وهيئة تشريعية من مجلسين. وازدادت المطالبة باستقلال العراق في نهاية العشرينات، ونتيجة لذلك، أدت مفاوضات جديدة إلى المعاهدة الانكليزية-العراقية لعام ١٩٣٠ م. وتوصل الاتفاق إلى استقلال العراق مع سيطرة عراقية على الشؤون الخارجية والعسكرية. وبدأ الاستقلال عندما انضم العراق إلى عصبة الأمم في عام ١٩٣٢ م. وكما نصت المعاهدة، فقد ظل النفوذ البريطاني، موجها من مكتب السفير، كبيرا لمدة ربع قرن[٢].

أما شؤون ما بعد الحرب في سوريا فقد اتخذت مجرى يختلف تماما عن مجراها في العراق. ففي مواجهة المعاهدة الفرنسية، احتلت القوات البريطانية والعربية، تحت قيادة الأمير فيصل المكي، معظم أراضي سوريا التاريخية عندما انتهت الحرب. وبينما كان مؤتمر السلام في باريس وعصبة الأمم يحددان المصير الرسمي لسوريا، احتلت القوات الفرنسية المناطق الساحلية وأقام الأمير فيصل حكومة عربية في دمشق. وبدون أن يغضوا النظر عن هدفهم الأصلي، انتظر الفرنسيون حتى تلقوا الانتداب من عصبة الأمم قبل بدء عملياتهم العسكرية لاحتلال بقية سوريا[٣].

---

(١) دون بيريتز: الشرق الوسط في الوقت الراهن، (نيويورك ١٩٦٥م)، ص٣٧٤-٣٧٧.

(٢) هواردم. ساشار: أوربا تغادر الشرق الأوسط ١٩٣٦-١٩٥٤ م، (نيويورك ١٩٧٢م)، ص١٦-١٩.

(٣) ستيفن هـ. لونكريك: سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، (لندن ١٩٥٨م)، ص٦١-١٢٣.

وفي ٢٥ تموز ١٩٢٠ م انتهى استقلال سوريا عندما هرب الملك فيصل من دمشق من مواجهة الجيش الفرنسي الزاحف. وفي تطبيقها للانتداب على سوريا، اتبعت فرنسا سياسة فرق تسد التي أكدت على الاختلافات الدينية والعرقية والإقليمية وقد أبطأت هذه الطريقة المقسمة، و ارتباط سوريا بنظام حكم مباشر تولى فيه الموظفون الفرنسيون الرسميون عددا كبيرا من المناصب الإدارية، مما منع من تقدم سوريا نحو الاستقلال[1].

الجزيرة:

١٩١٨-١٩٢٠م

يقدم التحليل السابق لأحداث ما بعد الحرب القومية والدولية الخلفية الضرورية لدراسة تاريخ شمر جربا بين الحربين. وكما سيتضح سريعا، فان الحرب الأولى وما نتج عنها أثر على مجرى تاريخ شمر في الجزيرة أكثر من أي حدث أخر منذ عام ١٩٠٠ م. ومن بين هذه التغيرات، فان تدمير الإمبراطورية العثمانية يبدو أكثرها وضوحا.

لمدة تزيد عن قرن من الزمان منذ نزوحها إلى الجزيرة، عاشت قبيلة شمر في ظل درجات متنوعة من السيادة العثمانية. أما بعد الحرب فلم تعد أنماط شمر السلوكية، التي كانت قد تطورت خلال القرن الماضي، مناسبة. وبدلا منها كان لابد من إقامة علاقات جديدة في إطار نظم الحكم التي أقامها الانتداب البريطاني والفرنسي. وتبدد سريعا الإحساس بالأمن الذي عرفته الشعوب المختلفة للدولة العثمانية نتيجة لارتباطها الطويل مع

---

(١) طباوي: سوريا، ص٣٤١-٢٧٨.

حكامها السابقين. ونظرت الآن في شك وقلق إلى حكامها الجدد غير المألوفين لديها.

في تشرين الثاني من عام ١٩١٨ م أدركت شمر أن القوات البريطانية تحتل جزءا كبيرا من ديرتها التقليدية، وخاصة المنطقة الممتدة من بغداد في الجنوب إلى الموصل في الشمال والشرق. وعندما انسحب العثمانيون في النهاية أصبحت ولاية الموصل كلها تحت السيطرة البريطانية[١]. وإلى الغرب، كانت شمر الغربية التي تقيم في سنجق دير الزور أقل تأكدا من وضعها السياسي. وقد احتلت القوات البريطانية مؤقتا مدينة دير الزور على الفرات، وفي نفس الوقت طالبت أيضا حكومة الملك فيصل العربية بالإقليم[٢] ومهما كان الموقف في نهاية عام ١٩١٨ م وبداية عام ١٩١٩ م، فان قبيلة شمر واجهت احتمال أن تسيطر ثلاث حكومات منفصلة على ديارها. وقد أثبتت مثل هذه الحالة أنها مصدر مشاكل عديدة في المستقبل.

إن رسم حدودا جديدة كان معناها أن هجرة شمر السنوية ونشاطاتها في عمليات الإغارة قد تثير نزاعات دولية. وستزداد ضعفا وحدة القبيلة التي كانت تعاني بالفعل من خلافات دائمة حول القيادة. وعلاوة على ذلك فان الشيوخ المنشقين الذين لم يكن في إمكانهم سابقا الهرب من ذراع الحكومة بدون القيام برحلة طويلة إلى جبل شمر في شمال الجزيرة العربية استطاعوا الآن بسهولة أن يجدوا ملجأ لهم بمجرد العبور إلى بلد مجاور.

---

(١) العزاوي: تاريخ العراق، المجلد الثامن، ص٣٠٩-٣١٠.

(٢) لونكريك: العراق ١٩٠٠-١٩٥٠ م، ص١٠٦.

إضافة إلى مشاكل الحدود الظاهرة هذه، فان شمر واجهت صعوبات أخرى كامنة نتجت عن الانتداب البريطاني والفرنسي. لقد خرج العراق وسوريا بعد اتفاقية السلام كدولتين مفردتين تحت الوصاية الغربية، وأذنت هذه الحقيقة بقيام نظم إدارية إقليمية ذات كفاءة أكبر من تلك التي اعتادت شمر عليها. ومع ذلك فمن وجهة نظر شمر فان السيطرة الإدارية الإقليمية من قبل الفرنسيين والبريطانيين جاءت باحتمالات كئيبة[١].

وتم تنفيذ السياسة القبلية البريطانية من خلال نظام للحكم غير مباشر وقد استخدمت هذه السياسة، التي قام بتنفيذها أولا سير روبرت ساندمان في بلوخستان في نهاية القرن التاسع عشر التنظيم القبلي القائم لإدارة مناطق كبيرة ونائية نسبياً. وتحمل المسؤولية شيخ تعترف به الحكومة رسميا.من أجل الحفاظ على السلم والنظام في قبيلته، ومن اجل معاقبة المخطئين، ومن أجل حماية خطوط الاتصال والأملاك الحكومية. وفي مقابل ذلك، تلقى مساندة الرسمين البريطانيين والهيبة، والسلاح إذا دعت الضرورة[٢].

وإضافة إلى هذه الأعمال، كانت هناك سياسة الإعانات المالية والإعفاءات الضريبية وأصبح كل شيخ رسمي، بعد الحرب مسؤولا أمام الموظف السياسي في منطقته. أما في سوريا فقد سارت السياسة القبلية

---

(١) س. أ. بروس: «سياسة ساندمان في تطبيقها على المشاكل القبلية الراهنة»، مجلة الجمعية الملكية لوسط آسيا، المجلد ١٩ (١٩٣٢م)، ص٥٠-٥١.

(٢) اير لاند: العراق، ص٩٤.

الفرنسية بطريقة مختلفة. فبدلا من استخدام قبليين كأدوات إدارية، اعتمد الفرنسيون على موظفيهم كإداريين مباشرين لشؤون القبائل[1].

ومن ناحية الحدود الواضحة والإدارة الفعالة والولاءات الراسخة، فان الجزيرة قدمت صورة عن الفوضى التامة. وقد عانت شمر جربا أيضا من هذا النقص في الاتحاد والنظام. وبالنسبة لشمر عام ١٩١٩ م، فقد كانت فترة هيبة وقوة شمر في ظل صفوق بن فارس لا تزيد إلا قليلا عن مجرد حلم. وإذا عاد المرء إلى الوراء مجرد عشرين أو ثلاثين عاما، فانه يجد أن القبيلة كانت موحدة نسبيا تحت شيخين رئيسيين فقط وهما فارس وفرحان أبناء صفوق. ومع ذلك فقد أمزقت وحدة قيادة القبيلة منذ ذلك الوقت. وفي عام ١٩١٨ م عندما حاول البريطانيون أن يعينوا زعيما أكبر مسؤولا عن شؤون القبيلة، ثبت انه من المستحيل إيجاد قائد يمكنه أن يقوم بالمهمة[2].

إن عدم وجود زعيم قوى لشمر والتكاثر التالي لقادة ضعاف عديدين يمكن تفسيره بعدة طرق. في البداية، كانت ضرورات القيادة القبلية تستدعى وجود صفات معينة تشكل جوهر الحياة البدوية بتأكيدها على الشجاعة والكرم والحكمة وأيضا على جانب ما من الهيبة. وبالطبع لم يكن من المتوقع أن يكون لشيخ بدوي عادي، على خلاف رجل مثل صفوق الشهير، كل هذه الصفات المثالية. وهناك حقيقة هامة تتعلق بهذا

---

(١) لونكريك: سوريا، ص١٢٠ و ص١٢٧.

(٢) وزارة الخارجية ٣٧١ / ٤١٥٠ / ١٣٤٠٨٢، التقرير الشهري عن الأرض المحتلة، كانون ثاني ١٩١٩ م.

العامل وهي الانقراض التدريجي لثقافة شمر البدوية مع بداية مشروع استيطان فرحان باشا في الشرقاط عام ١٨٧٠ م.

ومع بداية عام ١٩١٨ م، كان قد تم الشروع في عدة مشاريع استيطان أخرى لشمر على تخوم الجزيرة. وشجع الشيخان حميدي بن فرحان وبدر بن فرحان الاستيطان على امتداد ترعة الفرحاتية بالقرب من بلد على دجلة إلى الشمال من بغداد. كما اشترك الشيخ عجيل الياور ومحمد الأنجيفي من الموصل في مشروع استيطان في الشورة وتقع أيضا على نهر دجلة بين قلعة الشرقاط والموصل[1].

والعامل الثاني في تقويض وحدة شمر كان تفسخ القدسية والتبجيل التي تحيط بعائلة آل محمد التي كان يختار منها شيوخ القبيلة[2]. ففي الأصل، دخلت القبيلة إلى الجزيرة تحت قيادة فرد من عائلة آل محمد، وهو الشيخ فارس الجربا. وفي الأجيال التالية، انتقلت القيادة القبلية إلى عدد متزايد من المنحدرين من العائلة، مما جعل من الصعب على رجل واحد أن يوطد زعامته على القبيلة.

ثالثا: في ارتباط مع تكاثر آل محمد، فان سياسة الحكومة العثمانية أدت إلى تقسيم القبيلة بدعمها لإدعاءات عدد من زعماء القبيلة بالمشيخة.

رابعا: أن التكنولوجيا الحديثة وتحسن الإدارة العثمانية الإقليمية في نهاية القرن التاسع عشر زادت من عدم قيام قائد قوي للقبيلة. أن هذه

---

(١) وزارة المستعمرات ٦٩٦ / ٣، التقرير السنوي ١٩٢٠ م، «لواء الموصل» ص٩ -١١.

(٢) المصدر السابق، ص٨.

التغيرات حرمت الشيخ من الحصول على نفوذ يستند إلى هزيمة قوات الحكومة، وهو عمل ساعد زعماء شمر السابقين على توحيد القبيلة[1].

وهكذا عندما سعى البريطانيون عام ١٩١٩ م إلى الاعتراف بشيخ واحد كزعيم أكبر لشمر، انتهت جهودهم بالفشل[2] ولكي يصبح نظام الإدارة غير المباشرة فعالا، كان على البريطانيين أن يعينوا أولا ثم يساندوا زعيم شمر الأكبر. وكان ممن الممكن لمثل هذا العمل أن يغير جذريا من تركيب قيادة شمر وألا تعود ضرورات القيادة تعتمد في الدرجة الأولى على عوامل قبلية: بدلا من ذلك، تصبح الحكومة المركزية الحكم النهائي في هيكل سلطة القبيلة.

وفي السابق كان شيخ القبيلة يتساوى مع الآخرين بلا سلطة أخرى غير التي يمتلكها نتيجة لهيبته الشخصية. وكان له مميزات خاصة قليلة وثروة قليلة. أما في ظل النظام البريطاني للحكم غير المباشر، فكان من الممكن أن تصبح نظرة ومصالح الزعيم الأكبر الشخصية أكثر من كونها مرتبطة بالقبيلة. وكما اتضح من تاريخ قبيلة شمر جربا خلال العشرينات وأوائل الثلاثينات من القرن العشرين، فان الزعيم الأكبر الذي خدم مصالح البريطانيين كان يختلف تماماً عن أي قائد أخر عرفته القبيلة.

---

(١) عن تفاصيل هذه الإصلاحات الإدارية والعسكرية أنظر الفصل الرابع،

(٢) لونكريك: العراق ١٩٠٠-١٩٥٠م، ص١٠٦، وزارة الخارجية ٣٧١/ ٤١٥٠/ ٣٤٠٨٢١، التقرير الشهري عن الأرض المحتلة، كانون أول، ١٩١٨م.

شؤون القبيلة:

١٩١٩-١٩٢٢م

بعد رحيل الأتراك من ولاية الموصل، ظلت الجزيرة في حالة عدم استقرار شديد، فالمستقبل كان مجهولا بالنسبة لكل من السكان المحليين، التي كانت قبيلة شمر تمثل بينهم عددا كبيرا، وأيضا بالنسبة للبريطانيين. وظل السؤال الهام عن المصير السياسي لولاية الموصل غير محسوم. أن اعتبارات عرقية وجغرافية واقتصادية مختلفة. جعلت تركيا تطالب بالسيطرة على المنطقة حتى حلت عصبة الأمم النزاع عام ١٩٢٥ م. ورغم ذلك. فان تركز القوات التركية على الحدود الشمالية أوجد إحساسا بعدم الأمان[١].

وفي الغرب، ظل الحسم النهائي لمسألة سنجق دير الزور أيضا معلقا وقد أخلت القوات البريطانية، التي كانت قد احتلت المدينة في نهاية الحرب، دير الزور في كانون أول ١٩١٩ م. واحتل المدينة ممثلون عن الشريف واحتفظوا بها لمدة ستة شهور حتى صيف ١٩٢٠ م عندما تم للقوات الفرنسية السيطرة على الإقليم الصحراوي. كما سبب عدم وجود حدود واضحة بين العراق وسوريا المزيد من الفوضى[٢].

وفي أوائل ١٩١٩ م بدأت جهود الكولونيل جي. أ. ليجمان، أول مندوب سياسي في الموصل، التي حاول من خلالها البريطانيون السيطرة

---

(١) لونكريك: العراق ١٩٠٠ - ١٩٥٠م، ص١٤٤-١٤٨ و ص١٥٢-١٥٨.

(٢) ل / ب و س / ١٠ / ٦٥٨، ملاحظات عن الشرق الأوسط: المكتب العربي، ص٧٥-٧٦، نيسان / ١٩٢٠ م وزارة المستعمرات ٦٩٣ / ٣، التقرير السنوي ١٩٢٠ م، «قسم الموصل»، ص٦.

على القبائل البدوية بتطبيق سياستهم في الحكم غير المباشر. وكما أوضحنا سابقا، تطلب التطبيق الفعال لهذه السياسة وجود زعيم قبلي قوى. وفي حالة قبيلة شمر جربا، أمضى البريطانيون ثلاث سنوات في البحث عن زعيم قادر على تنفيذ سياستهم القبلية.

وأملا في إقامة علاقات مع شمر، استدعى الكولونيل ليجمان الشيوخ المهمين، مثل حميدي العاصي وعبد العزيز بن فرحان وعجيل بن عبد العزيز، إلى الموصل. ورفض الشيخ العاصي، القائد الوحيد الذي كان بإمكانه وبدرجة ضئيلة توحيد شمر، أن يحضر الاجتماع وأرسل دهام بن الهادي بن العاصي بدلا عنه. وتلقى الشيخ حميدي بن فرحان معونة شهرية تبلغ ٢٥٠ روبية للسيطرة على عشائر عبده والصايح.

وأيضا عرض على دهام بن الهادي اعتراف الحكومة به كزعيم اكبر ومعونة شهرية في حالة إرجاعه مبلغ ٣٥٠٠ ليرة تركية كان قد سرقها على طريق نصيبين-الموصل في وقت سابق من السنة وأخيرا أهان الكولونيل ليجمان عجيل الياور بن عبد العزيز بن فرحان ونعته بأنه أمراه. شعر عجيل بالأهانة فغادر الموصل على الفور ونمت لديه كراهية شديدة للبريطانيين. ومن هذا الاجتماع أصبح واضحا أنه في ظل السياسة البريطانية القبلية ستحرم في النهاية ممارسة جمع الخاوة من المسافرين وقوافل التجار والقرويين المستوطنين. ومع ذلك وبسبب موقف الحكومة الضعيف عام ١٩١٩ م استمر جمع الخاوة في البادية ولكنها منعت بين المزارعين المتوطنين[١].

---

(١) وزارة المستعمرات ٦٩٢/ ٣، التقرير السنوي ١٩٢٠ م، «لواء الموصل»، ص٦. اليزابيث بركيون: غير ترود بل: من أوراقها الشخصية ١٩١٤-١٩٢٦ م، المجلد الثاني، (لندن ١٩٦١م)، ص٢٣٧.

أما اجتماع الموصل فقد نتج عنه تغيير ضئيل في عادات شمر التقليدية. وفي نهاية عام ١٩١٩ م، اتبعت عشائر عبده والصايح فقط تحت قيادة الشيخ حميدي، توجيهات البريطانيين واستمرت العشائر الأخرى، المقسمة بين عدة زعماء، في الإغارة وجمع الخاوة. ومع ذلك، وفي كانون الأول، دفع دهام الهادي ١٨٠٠ ليرة تركية من المبلغ الذي كان مدينا به للحكومة[١]. وقد وجد استياء شمر من البريطانيين نقطة محورية جديدة في كانون أول ١٩١٩ م بعد أن حلت القوات السورية بقيادة القائم مقام رمضان شلاش محل الحامية البريطانية في دير الزور، فقد أصبح نهر الخابور بعد الانسحاب، الحدود المؤقتة بين سوريا والعراق[٢].

علاوة على ذلك، أثبتت الدعاية الشريفية [نسبة إلى الشريف حسين] التي دعت القبائل العربية في شمال غرب العراق إلى التمرد بأنها كانت واحدة من عدة تحديات للبريطانيين في العام ١٩٢٠ م. ففي صيف هذا العام تفجرت الانقسامات الطائفية والعرقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت موجودة دائما[٣]. وكانت غارة من الفرسان

---

(١) اصدر الرسميون البريطانيون تعليماتهم إلى دهام بإرجاع ٣٥٠٠ ليرة تركية كان قد استولى عليها في عملية سرقة على طريق نصيبين في وقت سابق من السنة. وفي البداية، و بانتظار ما يمكن أن يحدث في المستقبل، ارجع دهام ١٨٠٠ ليرة تركية فقط من المبلغ الإجمالي. ومع ذلك، وفي تاريخ لاحق، دفع ٥٠٠ ليرة أخرى أملا في مساندة الحكومة له.

(٢) وزارة المستعمرات ٦٩٦ / ٣، التقرير السنوي ١٩٢٠ م، «لواء الموصل»، ص١.

(٣) أ. ل. هولدين: العصيان المسلح في بلاد الرافدين ١٩٢٠م (ادنبرة ١٩٢٣م). أمل فيلوغرادوف: «إعادة النظر في ثورة ١٩٢٠ م في العراق: دور القبائل في السياسة الوطنية»، في مجلة دراسات الشرق الأوسط الدولية، المجلد الثالث (١٩٧٢م)، ص١٢٣-١٣٩.

الشريفيين ضد عدة مواقع بريطانية في الجزيرة في أوائل حزيران بداية السلسلة من الاضطرابات امتدت إلى الأقاليم الزراعية ذات الكثافة السكانية العالية في جنوب العراق. ومن اجل إعادة النظام، جلب المندوب البريطاني المدني أ. ت. ولسون قوات هندية بينما استمرت عملية إعادة احتلال جنوب ووسط العراق طوال السنة[١].

وفي الفترة من كانون الثاني إلى أيار ١٩٢٠ م، ظلت كل عشيرة من عشائر شمر العديدة، مع زعيمها، تتخذ موقفا مختلفا من البريطانيين. فبعض الشيوخ، مثل حميدي ودهام الهادي وفيصل، احترموا ظاهريا التزاماتهم كقادة قبليين رسميين. ورغم أدعائهم بالولاء للبريطانيين الا أن أتباعهم استمروا في جمع الخاوة وشنوا الغزوات ضد أعدائهم التقليديين. وفي الغرب عسكر الشيوخ مشل الفارس وبنيان بن شلال وعجيل الياور مع أتباعهم قرب دير الزور، وكانوا يمثلون العنصر المعادي للبريطانيين من شمر[٢].

وفي البداية كانت شمر هادئة إلا أن معارضتها وصلت في أوائل حزيران. وتحت تأثير الدعاية الشريفية الموجهة ضد البريطانيين، أنضم الشيوخ حميدي وعجيل الياور ومشل الفارس وبنيان ووطبان بن فيصل إلى قوات جميل بك النينوي الصديق الحميم للملك فيصل، والذي اتخذ فيما بعد اسم جميل بك المدفعي وأصبح رئيسا للوزراء في العراق، القائد

---

(١) لونكريك: العراق ١٩٠٠-١٩٥٠ م، ص١٢٢-١٣٩.

(٢) وزارة المستعمرات ٦٩٦ / ٣، التقرير السنوي ١٩٢٠ م، «قلواء الموصل»، ص٦ وعن قائمة بأسماء شيوخ شمر الذين اشتركوا في ثورة تلعفر عام ١٩٢٠ م، أنظر قحطان التلعفري: ثورة تلعفر ١٩٢٠م (بغداد ١٩٦٩م)، ص١٧١.

الشريفي والشيخ مسلط من قبيلة الجبور. وفي الرابع من حزيران هاجمت تلك القوة الموحدة تلعفر وقتلت أربعة جنود بريطانيين واستولت على المدينة. وفي أعقاب انتصارهم، هاجمت جماعات إغارة بقيادة بنيان ووطبان وعدد من الشيوخ الأقل أهمية طريق الموصل شرقاط والعديد من القرى شرق دجلة. ورغم ان هذه الغارات سببت الذعر في الموصل والمناطق الريفية المحيطة إلا أن الهجوم فقد قوته وسرعان ما شتتته القوات البريطانية والعراقية. وفي نهاية حزيران كان الخطر قد انتهى وبسط البريطانيون مرة أخرى سيطرتهم على تلعفر. ومع ذلك فقد استمر الوضع في العراق غير مستقر بسبب انتشار الثورة الواسعة في الجنوب[(١)].

كان البريطانيون تنقصهم القوة العسكرية اللازمة لاحتلال الجزيرة كلها، فحاولوا مرة أخرى أن يسيطروا على شمر من خلال سياستهم في الحكم غير المباشر. وقد دفعت الحكومة عدة عوامل ملحة للاعتراف بدهام الهادي زعيما اكبر. وقد اضطرها إلى هذا الاختيار «حقيقة أن الجزيرة كانت في فوضى، وكان من الضروري بشكل ملح أن يجدوا شيخا ما يحملونه، وبأية طريقة، مظاهر القانون والنظام»[(٢)]. وعلاوة على ذلك، فان دهام الهادي لم يشترك في الغارة الشريفية على تلعفر. وبعد أن ناقش دهام الموضوع مع الموظفين البريطانيين في الموصل، قبل بمسؤولية حماية مصالح الحكومة وأمن الطرق ومحاولة استعادة الممتلكات المسروقة. وفي مقابل هذه

---

(١) المصدر السابق، ص٢-٤.

(٢) المصدر السابق، ص٦.

الخدمات، منح معونة مالية شهرية وإذن له بجمع الخاوة على طريق دير الزور-الموصل[1].

وقد حدثت مشاكل أخرى بين شمر والبريطانيين في آب عندما أخذت عشائر الصايح وعبده البريطانيين على حين غرة وحاولتا الهجرة إلى الجنوب سرا. وقد نجحت خطتهم بشكل عام، باستثناء محاولة بريطانية غير مدعومة لوقف الهجرة، والتي نتج عنها موت ضابط بريطاني من الفرسان وستة من جنوده[2](*). وأمضى دهام الهادي بقية السنة في ضواحي أحواض الملح قرب الحضر. وعندما كان في الجنوب أعطى كل اهتمامه لجمع الخاوة وبصورة كبيرة ومفرطة وللإغارة عبر الفرات[3].

وفي عدة مناسبات دافع دهام عن نفسه قائلا أن وقف مثل هذه النشاطات التقليدية سيعزله عن رجال قبيلته. وأكثر من ذلك فقد اشتكى من عدم قدرته على وقف غارات القبيلة بدون مساعدة من الحكومة. وردا على مناشداته، اقترح الرسميون البريطانيون أن تقوم الحكومة بتمويل كتيبة تتكون من خمسين فارس غير نظامي من شمر عند قرية نجمة لحماية طريق الشرقاط وللمساعدة في السيطرة على القبيلة. وفي تردد قبل الملا الذي كان يعمل لدى دهام بالعرض، وأرسل بثلاثين من عبيد شمر إلى الموصل لتسجيل أسمائهم واستلام بنادق من الحكومة. ومع ذلك، فقد انهارت

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، ص٧. جريدة التايمز (لندن)، ١٦ آب ١٩٢٠م، ص٩. هولدين: العصيان المسلح، ص٢٣٢.

(*) وحدثت المعركة عند تلة خميرة قرب المحلبية شمال غرب الموصل في آب ١٩٢١م. (المقدم).

(٣) وزارة المستعمرات ٦٩٦ / ٣، التقرير السنوي ١٩٢٠ م، «لواء الموصل» ص٧.

الاتفاقية عندما سجن دهام الملا الذي يعمل لديه وسحب السلاح من رجاله. وعندما صدر الأمر إلى دهام بان يعيد الأسلحة إلى الحكومة هرب إلى الصحراء[١].

وبعد هروبه، ظل دهام الهادي بعيدا عن السيطرة البريطانية حتى نيسان ١٩٢١ م، عندما أعاد في النهاية الثلاثين بندقية إلى الموصل. وربما نتج عن المراعي الفقيرة والتي أدت بالضرورة إلى شراء شمر الحنطة من الموصل وتلعفر[٢]. وقد انقلبت الأحداث على أعقابها تماما، وقام دهام بزيارة الموصل في حزيران. واعترف بعدة أخطاء وسعى إلى بداية جديدة كزعيم اكبر معين من قبل البريطانيين. وقبل مرة أخرى، في ظل اتفاقية جديدة، أن يسيطر على قبيلته ويوقف الغارات المستمرة وينظم جمع الخاوة ويعيد ما سرق. وتلقى أيضا:

١- قرية على طريق نصبين لزراعتها لمدة خمس سنوات مع حرية شرائها في نهاية الفترة.

٢- حقا مقصورا عليه بإصدار تصاريح لرجاله لشراء الحنطة من الموصل ومن أماكن أخرى في العراق.

٣- نسبة مئوية من واردات ضريبة الملح[٣].

---

(١) المصدر السابق، ص ٧-٨.

(٢) وزارة الخارجية ٣٧١/ ٦٢٥٢ / أ ٨٦٣٥، تقرير مخابرات بلاد الرافدين، رقم ١٤، ٢١/ ٦/ ١٩٢١ م.

(٣) وزارة الخارجية ٣٧١/ ٦٣٥٢ / أ ١٠١٦٢، تقرير مخابرات الرافدين، رقم ١٨، ١/ ٨/ ١٩٢١ م.

إن هذا التغير من جانب رجل وصفه تقرير بريطاني رسمي بأنه «في مطلع الشباب وجاهل جدا ومغرور جدا»[(١)]. لم ينبع بالتأكيد من قرار قبله. بل أن دهام الهادي أدرك بذكاء أن النفور بين زعماء شمر الذين شاركوا في غارة تلعفر وبين البريطانيين سيكون قصيرا. وقد أكدت أحداث تموز وآب بسرعة من شكوكه الخاصة بالولاءات المتأرجحة لشيوخ شمر. أن ظهور عجيل الياور على المسرح العراقي بعد غياب دام عاما في سوريا وتركيا سرعان ما غير العلاقات بين دهام والبريطانيين[(٢)].

وقد تزامنت عودة عجيل إلى التيار الرئيسي لشؤون القبيلة مع وصول الأمير فيصل ملك سوريا المخلوع، والمرشح الرئيسي للعرش العراقي. وفي ظل تأييد بريطاني قوى وتأييد ساحق من «استفتاء» قومي، تم تعيين الملك فيصل في ٢٣ أب ١٩٢١ م. وأمل الملك الجديد في خلق قاعدة لسلطته، فحاول أن يكسب ود وتأييد زعماء القبائل الأقوياء. وقد احتفظ الملك فيصل، طوال فترة حكمه، بالصداقة التي أقامها مع عجيل الياور في سوريا. إن زعيما قويا وقادرا مثل عجيل، الذي لم يكن ولاء خاصا للبريطانيين، كان ذا قيمة كبيرة للملك الجديد[(٣)(*)].

---

(١) وزارة المستعمرات ٦٩٦/ ٣، التقرير السنوي ١٩٢٠ م، لواء الموصل، ص٣.

(٢) وزارة الخارجية ٣٧١/ ٦٣٥٣، تقرير مخابرات الرافدين، رقم ٢٢، ١/ ١٠/ ١٩٢١م.

(٣) لونكريك: العراق ١٩٠٠-١٩٥٠ م، ص١٢٦-١٣٣.

(*) ليس هالك ثمة إشارة تاريخية تبين أن الملك فيصل كان قد التقى بالشيخ عجيل في سوريا، بل من الثابت أن الملك لم يلتقي بالشيخ عجيل إلا في العراق، وان عمه الشيخ غفيصل هو الذي بين للملك حال عجيل وشخصيته فبعث إليه.(المقدم).

أرسل الملك فيصل، بموافقة البريطانيين، تحسين علي، مبعوثه الخاص، لزيارة عجيل الياور في مخيمه بالقرب من ماردين في تركيا[١]. وقد شجع الشيخ المتمرد على أن يلتقي بالملك، فغادر تركيا ووصل إلى بغداد في منتصف آب ١٩٢١م[٢]. وخلال الأسبوعين التاليين ناضل دهام الهادي وعجيل الياور، معا كل منهما في تقديم ولاءه للملك، فيصل من أجل كسب الرضاء الملكي والسيطرة على شمر العراقية. ورغم سجل دهام في التعاون مع البريطانيين ومساندة جده ذا النفوذ، إلا انه خاض معركة خاسرة ضد مكانة عجيل الياور المفضلة لدى الملك وجاذبيته الشخصية كشيخ بدوي حكيم وكيس[٣].

كان وجهاء بغداد وزعماء القبائل المتنفذين يهرعون إلى مجلس عجيل حيث بهرتهم شخصيته الجذابة وقصصه المسلية. وعلى النقيض من ذلك، كان دهام موصوفا بالجهل وصغر السن، وسرعان ما وجد مكانته كزعيم أكبر تنهار أمام تزايد نجاح عجيل. شعر دهام الضعيف بالمرارة تجاه الملك فيصل وبالازدراء تجاه عجيل الذي كان يغتصب مكانته العائلية فغادر بغداد واتجه سريعا نحو نهر الخابور[٤].

---

(١) وزارة الخارجية ٣٧١ / ٦٣٥٢ / إ ١٠١٦٢، تقرير مخابرات الرافدين، رقم ١٨، ١/٨/١٩٢١م.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وزارة الخارجية ٣٧١ / ٦٣٥٢، تقرير مخابرات الرافدين، رقم ٢٢، ١/١٠/١٩٢١م.

(٤) وزارة الخارجية ٣٧١ / ٦٣٥٢ / إ ١٠٥٣٢، تقرير مخابرات الرافدين، رقم ١٥، ١٥/٨/١٩٢١م.

تطورت الأحداث بسرعة خلال عام ١٩٢٢ م عندما سعى عجيل الياور إلى تدعيم مكانته الجديدة كزعيم اكبر لشمر. ونتيجة لتسلمه المسؤولية المربحة وذات الاعتبار بدأ في تكوين فيلق من راكبي الجمال لحراسة البادية الغربية فجاهد عبثا ليترك أثرا طيبا في نفوس أولياء نعمته. واجه عجيل مقاومة بين رجال قبيلته، الذين كانوا يتعاطفون مع دهام الهادي، ففشل في تجنيد عدد كاف لفيلق الجمال. وفي نفس الوقت، ومن موقع خلف الحدود العراقية السورية عاد الشاب الغاضب دهام إلى جمع الخاوة على طريق الموصل-دير الزور ومن خلالها حاول دهام أن يستعيد مكانته كزعيم اكبر لشمر في العراق[(١)].

وبعد تبادل للرسائل بين الملك فيصل ودهام، وصل الأخير في زيارة لبغداد في أب ١٩٢٢ م. ومع نهاية الاجتماع أصبح واضحا أن عجيل الياور سيستمر كزعيم اكبر لشمر. ومع ذلك حاول الملك في تهدئة الزعيم الأكبر السابق فعرض عليه معونة مالية ورتبة زعيم قبلي والحق في توقيع تصاريح الدخول إلى المدن. لم يكن دهام الهادي مستعدا لقبول مثل هذا التقليل من مكانته، فشعر بالمرارة وعاد مرة أخرى إلى الحدود السورية، وبدأ في التفاوض مع الفرنسيين[(٢)]. بعد أن فقد امتيازه في العراق، أعطاه الفرنسيون الحق في جمع الخاوة على طريق-دير الزور من السيارات والقطعان التي لا

---

(١) وزارة الخارجية ٣٧١ / ٧٧٧١ / إ ٥٣١١، تقرير مخابرات الرافدين، رقم ٩، ١/ ٥/ ١٩٢٢ م.
وزارة الخارجية ٣٧١ / ٧٧٧١ / إ ٥٩٣٧، تقرير مخابرات الرافدين، رقم ١٠٩، ١٥/ ٥/ ١٩٢٢ م.

(٢) وزارة الخارجية ٣٧١ / ٧٧٧١ / إ ٨٧١٥، تقرير مخابرات الرافدين، رقم ١٥، ١/ ٨/ ١٩٢٢ م.

مرافق لها-انتهى الأمر بالزعيم الأكبر السابق، وفي نهاية السنة، بان أصبح خارجا على القانون ومطلوبا القبض عليه[١].

الصراع بين دهام الهادي وعجيل الياور:

١٩٢٢ - ١٩٣٢م

ومثل الكثير من زعماء شمر السابقين الذين خاضوا المعارك، أسرع دهام نحو نهر الخابور لكي يعد للانتقام. ومع ذلك، وعلى خلاف فارس ابن صفوق الذي وجد ملجأ له في المناطق النائية قرب الخابور قبل نصف قرن، خاض الشيخ المخلوع صراعا فاشلا لنحو عشر سنوات كي يحل محل من انتزع الزعامة منه. إن تحليل هذا الصراع الطويل يقدم رواية شيقة عن السياسة الداخلية لشمر، بل وأكثر من ذلك يوفر فرصة ممتازة لتقييم التغير الذي حدث في الحياة البدوية والتي تسببت فيه التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية خلال سنوات ما بين الحربين.

لجأ دهام الهادي إلى عشيرة الخرصة التي كانت ديارها تقع على جانبي الحدود السورية-العراقية[٢] ولمدة عشر سنوات تقريبا، ادعى أن طبقا للتقاليد القبلية يجب أن يكون هو، وليس عجيل الياور، زعيم شمر الأكبر. ورغم انه لم ينجح أبدا في إقناع الحكومة العراقية أو مستشاريها البريطانيين،

---

(١) تقرير مخابرات الطيران ؟ ٢٣ / ٢٥٧ / الجزء الثاني / الملف ١٣، من كوكس إلى تشرشك، ١٨/ ٨/ ١٩٢٢ م.

(٢) وزارة الخارجية ٣٧١/ ٩٠٠٩ / إ٤٧٤٣، تقرير المخابرات العراقية، رقم ٨، ١٥/ ٤/ ١٩٢٣ م.

استمر دهام يتمتع بشعبية كبيرة بين رجال قبيلة شمر بسبب المساندة المستمرة له من قبل جده الشيخ العاصي[١].

بعد تحالف دهام مع الخرصة في عام ١٩٢٣ م، ظل الوضع الجغرافي لشمر ثابتا نوعا ما خلال السنوات القليلة التالية. فقد كان هناك قائد لكل من المجموعات القبلية الرئيسية الأربع. وضمت أصغر هذه المجموعات رجال القبيلة الذين أقاموا في تركيا تحت قيادة الشيخ المبجل العاصي. كان الشيخ العجوز الذي بلغ الثمانين من عمره يشعر بالازدراء تجاه البريطانيين والفرنسيين، فاختار أن يقضي أيامه الأخيرة في ظل حكامه السابقين: الأتراك. وحتى وفاته عام ١٩٢٥ م، ظل العديد من أبنائه الكثيرين وأتباع شيخ ثانوي أخر، هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم، مع العاصي. وكان تأثيره على شؤون شمر يميل لأن يكون أخلاقيا أكثر منه سياسيا[٢].

ضمت المجموعة القبلية الثانية شمر الغربية أو السورية تحت قيادة الشيخ مشل بن فارس. وكان هذا القسم من القبيلة ينحدر شيخه من سلالة عمشة زوجة الشيخ صفوق، وعاش جنوب دير الزور وبامتداد نهر الخابور منذ نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر. وفي الصراع بين عجيل ودهام، ظل مشل الفارس على الهامش عموما، وكرس جهوده لعمله كزعيم اكبر لشمر الغربية المعين من قبل الفرنسيين[٣].

---

(١) وزارة الخارجية ٣٧١/ ٩٠٠٩/ إ٤١٨٨، تقرير المخابرات العراقية، رقم ٧، ١/ ٤/ ١٩٢٣ م.

(٢) تقرير مخابرات الطيران ٢٣/ ٢٥٩/ الجزء الرابع، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١٢٥١، ٤/ ٩/ ١٩٢٣ م.

(٣) زكريا: عشائر الشام، ص٢٨١-٢٨٢.

وكانت شمر العراقية أو شمر الشرقية، التي ضمت أساسا عشيرة عبده، أكبر المجموعات الأربع، وكزعيم اكبر حكومي، كان يفترض أن عجيل الياور يسيطر على كل شمر في العراق[١]. وعاشت المجموعة الرابعة والأخيرة من شمر، وهي عشيرة الخرصة، بقيادة دهام الهادي، على كلا الجانبين من الحدود السورية-العراقية. عاش دهام بين سوريا والعراق بالتناوب، ولكنه لم يحقق لنفسه أبدا قاعدة متينة، كما فعل عجيل الياور ومشل الفارس[٢].

عندما سعى دهام إلى استعادة مكانته كزعيم اكبر عراقي على شمر في بداية عام ١٩٢٣ م، كانت الجزيرة عموما، والقسم الفرنسي خصوصا، في حالة عدم استقرار. كان الشك وعدم الثقة سائدين بين البريطانيين والفرنسيين والأتراك بخصوص طموحاتهم الإقليمية ضد بعضهم البعض. وكان قد أقيم في العراق الوجود الإداري البريطاني، على شكل قوة عسكرية محدودة وخطوط عريضة لسياسة قبلية فعالة. أما في الجانب السوري من الجزيرة فلم تكن قد اكتملت عملية التهدئة العسكرية الفرنسية، وتكونت السياسة القبيلة أساسا من تدخل عسكري مباشر ضد القبائل المتمردة بشكل خاص[٣]. وإلى الشمال، استخدمت تركيا قبائل عربية وكردية مختلفة لاستعادة الأرض المفقودة في العراق وسوريا[١].

---

(١) وزارة الهند، ب و س / المكتبة، التقرير العسكري عن بلاد الرافدين، المجلد الأول، شمال الجزيرة (١٩٢٢م)، ص١٠٦-١١١.

(٢) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٥١.

(٣) تقرير مخابرات الطيران ٢٣/٢٥٨ / الجزء الثالث، من السكرتير الخاص للمندوب السامي إلى طيران بغداد، ١٧/١١/١٩٢٣ م. وزارة الخارجية =

وجد دهام مثل هذه الظروف مثالية كي يضايق عجيل الياور باستمرار أملا في أن يضعف من الثقة بمنافسه. ووقعت حركة المرور على طريق دير الزور-الموصل ضحية لابتزازات عديدة للخاوة من شمر خلال النصف الأول من السنة. ونتج مزيد من الفوضى من الممارسة القديمة للغزو بين القبائل. وشهد الربيع هجوم قبيلة الدليم على العكيدات، وكذلك الصراع المعتاد بين عنزة وشمر. وأملا في وضع نهاية لهذه الفوضى، اجتمع ممثلون عن البريطانيين والفرنسيين في دير الزور لمناقشة المشاكل القبلية الراهنة[٢].

ونتج عن هذا المؤتمر وقف الحرب بين الدليم والعكيدات، ولكنه فشل في أن يقلل من كثرة غارات دهام وأتباعه الذين كانون لا يزالون يعملون على طريق دير الزور-الموصل في نهاية الخريف[٣]. وفي كانون

= ٣٧١/ ٩٠٠٩/ إ٤١٨٨، تقرير المخابرات العراقية، رقم ٧، ١/ ٤/ ١٩٢٣ م، إ٤٧٤٣، تقرير المخابرات العراقية، رقم ٨، ١٥/ ٤/ ١٩٢٣ م.

(١) تقرير مخابرات الطيران ٢٣/ ٢٥٨/ الجزء الثالث، ضابط الخدمات الخاصة. بغداد إلى مخابرات الطيران رقم ٢٩م، ١٤/ ٥/ ١٩٢٣ م.

(٢) وزارة الخارجية ٣٧١/ ٩٠٠٩/ إ٢٣٤١، تقرير المخابرات العراقية، رقم ٣، ١/ ٢/ ١٩٢٣، إ١٩٤٨ م، المخابرات العراقية، رقم ٢، ١٥/ ١/ ١٩٢٣ م، القائد العسكري ٧٣٦/ ٣٨، بغداد، من دويز إلى ديكيه، رقم ٥٠ / ٣٧٢، ١/ ٣/ ١٩٢٣م.

(٣) وزارة الخارجية ٣٧١/ ٩٠٠٩/ إ٩٨٤٧، تقرير المخابرات العراقية، رقم ١٧، ٦/ ٩/ ١٩٢٣م. الطيران ٢٣/ ٢٥٩/ الجزء الرابع، ضابط الخدمات الخاصة، من بغداد إلى مخابرات الطيران، رقم ١٦٨، ٢٧/ ٩/ ١٩٢٣ م. الطيران ٢٣/ ٢٥٩/ الجزء الرابع، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١٢٨٢، ١٩/ ١١/ ١٩٢٣ م.

الأول، عين الفرنسيون مشل الفارس زعيما اكبر لـشمر عمـشة(الغربيـة)، وجعلوه مسؤولا عن المنطقة بين دير الزور والحسكة في الشمال. وأيضا قبل دهام الهادي اعتراف الفرنسيين به ومعونة مالية شهرية كزعيم لأتباعـه مـن عشيرة الخرصة. وفي مقابل ذلك، وافق على حمايـة طريـق الموصـل ووقـف جمع الخاوة من السيارات والتجار المارين. أما في شمر العراقيـة فقـد واجـه عجيل الياور ضغطا بريطانيا مستمرا لوقف غارات شمر[(١)].

وفي عـام ١٩٢٤ م، بـدأت تـأثيرات الـسياسة الإداريـة البريطانيـة والفرنسية في الاصطدام أكثر فأكثر بامتيازات القبائل التقليدية. وعـلى كـلا الجانبين من الحدود، وجدت القبيلة نفسها في مواجهة سياسـة تعمـل عـلى إقرار السلام والنظام في الجزيرة. وخشى كل الشيوخ، عجيل ودهام ومشل الفارس، من هذه السياسة التي طرحت تهديدا خطيرا لأسلوب حياة شمر التقليدي[(٢)].

بدأ دهام الهادي هذه السنة كزعيم اكبر للخرصـة في سـوريا واسـتمر في جهوده لزعزعة الثقة بعجيل الياور من خلال السبل التقليدية في الإغارة والتآمر. وبسبب مواصلته للغارات ضد قبائل عنزة وطي والـدليم وأيـضا عشيرة عبده، كـسب عـداء الفرنـسيين بتجاهلـه التزامـه بوقـف الغـارات القبلية[(٣)]. وفي نفس الوقت، واجه عجيل مشكلة معاكسة تماما في العـراق.

---

(١) الطيران ٢٣/ ٢٥٩/ الجزء الرابع، رسـالة مـن مـشل الفـارس إلى عجيـل اليـاور، ١٢/ ١١/ ١٩٢٣م.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الطيران ٢٣/ ٢٥٩/ الجزء الرابـع، ضـابط الخـدمات الخاصـة، مـن الموصـل إلى مخـــابرات الطـــيران، رقـــم ١٣٣١، ٢١/ ١/ ١٩٢٤م. وزارة الخارجيـــة ٣٧١/ ١٠٠٩٧/ إ١٦١٦١، المخابرات العراقية، رقم ٣، ٧/ ٢/ ١٩٢٤ م، =

فقد أدرك أن مكانته كزعيم اكبر تعتمد بشكل كبير على علاقة الصداقة مع الملك فيصل ومساندة البريطانيين له فحاول أن يسيطر على غارات شمر[١].

أغضبت جهوده، لكبح جماح رجال قبيلته واستعادة الماشية المسروقة الكثيرين من شمر العراقية. وأملا منه في أن تدرك القبيلة خطورة خرق أمر الحكومة ضد الغارات بين القبائل، قبض عجيل على شيخ كبير من عبده، وهو بنيان بن شلال بن فرحان[٢]، وحاول أن يجعله يسجن في الموصل. وفي مواجهة غرامة شديدة واحتمال حكم بالسجن، هرب بنيان ولجأ إلى دهام في سوريا[٣]. وقبل فترة طويلة هجر أولاد شلال عجيل ولحقوا ببنيان في سوريا. وفي مواجهة المشكلة المركبة من غارات دهام وأولاد شلال، حاول عجيل طوال عام ١٩٢٤ م أن يحسن علاقاته مع بنيان الغاضب[٤].

وفي ارتباط مع شمر العراقية، زادت الغارات التي يشنها دهام الهادي كثافة ونطاقا، ومثل هذا التحدي الوقح للسلطة الفرنسية نتج عنه بالتالي عزله كزعيم اكبر وطرده في النهاية من الأراضي السورية بعد تهديد

= الطيران ٢٣/ ٨٥/ الجزء الأول، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ج، ٢٥/ ١١/ ١٩٢٤ م.

(١) الطيران ٢٣/ ٢٦٠/ ١٣، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١٤٣٠، ٢/ ٥/ ١٩٢٤ م.

(٢) الشيخ بنيان هو ابن عم الشيخ عجيل، فهو أبن شلال بن فرحان باشا الجربا وليس من عبدة.(المقدم).

(٣) الطيران ٢٣/ ٢٦٠/ الجزء الخامس، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١٣٨١، ١٢/ ٣/ ١٩٢٤ م.

(٤) الطيران ٢٣/ ٢٦٠/ ١/ ١٣، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١٤١٧، ٥/ ٥/ ١٩٢٤ م. الطيران ٢٣/ ٢٦١/ الجزء السادس، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، ١٤/ ١٠/ ١٩٢٤ م.

الفرنسيين له بهجمات جوية[١]. وبعد أن خسر ملجأه في سوريا، كتب دهام على الفور إلى الملك فيصل معلنا ولاءه الشخصي له، ومدعيا أن ابن عمه عجيل فقط هو الذي يمنعه من العيش بسلام في العراق. وبينما كان على الحدود العراقية، استمر بالتفاوض مع الملك فيصل للفترة من تشرين الأول إلى كانون الأول، الذي حدد موعدا للالتقاء به في الموصل. ورغم ذلك تخلف دهام عن الموعد وقضى على أية فرصة للمصالحة[٢].

وفي نفس الوقت قدم عجيل عروضا للسلام مستمرة لكل من دهام وبنيان من تشرين أول عام ١٩٢٤ م إلى نيسان ١٩٢٥ م. وردا على عدة عروض متكررة، رفض دهام حتى مقابلة عجيل[٣]. ولكي يثبت عدم رضاه بشكل اكبر، شن شيخ الخرصة عدة غارات شديدة ضد رجال قبيلة الشيخ عجيل. وفي خارج نطاق عدم كسبه لدهام وبنيان الشلال والعاصي الذي أنضم إلى حفيده المفضل في سوريا، تمتع عجيل بعلاقات صداقة مع كل شمر العراقية[٤]. وجاءت شعبيته المؤقتة من كرمه في تعويض خسائر

---

(١) الطيران ٢٣/ ٨٥/ الجزء الأول، ضابط الخدمات الخاصة، الموصل، التقرير الأسبوعي، رقم ج/ ١٢٥، ٢٥/ ١١/ ١٩٢٤ م.

(٢) الطيران ٢٣:٨٥/ الجزء الأول، ضابط الخدمات الخاصة، الرمادي، التقرير الأسبوعي، رقم ١ أ/١٠، ١٦، ٥/ ١٢/ ١٩٢٤ م، الطيران ٢٣/ ١٤٣/ الجزء السادس، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١ أ/ ١٠، ٢٢، ٢٥/ ١٢/ ١٩٢٤ م.

(٣) الطيران ٢٣/ ١٤٣/ الجزء السادس، فرع الضابط الصغير، ٢٩/ ١١/ ١٩٢٤ م، الطيران ٢٣/ ١٤٣/ الجزء السادس، ضابط الخدمات الخاصة، من الرمادي إلى مخابرات الطيران، رقم ١٦٩٣، ٦/ ٤/ ١٩٢٥ م.

(٤) وزارة الخارجية ٣٧١/ ١٠٨٣٣، أ ١٠ / ٧، تقرير المخابرات العراقية، رقم ١، ٨/ ١/ ١٩٢٥ م.

القبيلة خلال شتاء قارص معين[١]. ورغم ذلك فقد اختفت هذه الشعبية المفاجئة في حزيران عندما ضغط البريطانيون مرة أخرى على عجيل لوقف كل غارات شمر عمليا[٢].

وخشية أن يعزل نفسه عن رجال قبيلته، حاول عجيل أن يقنع سلطات الموصل أن شمر كانت تغير على أعدائها التقليدين من رولة والسبعة والفدعان في سوريا، وليست على قبائل عراقية[٣]. ورغم جهود عجيل في الاحتفاظ بمكانته إلا أن شعبيته تلقت لطمتين أخريتين في عام ١٩٢٥ م، عندما أعاد الفرنسيون تعيين دهام زعيما أكبر للخرصة، وهدد الرسميون البريطانيون بقطع الإعانة المالية الشهرية التي بلغت ١٢ ألف روبية التي كانوا يدفعونها إلعجيل[٤] وأملا في أن يوقف خروج جماعي من عبده إلى خرصة السورية، عقد عجيل هدنة لمدة شهرين مع دهام في نهاية آب[٥].

---

(١) الطيران ٢٣/ ١٤٣/ ١/١٠/ ١، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١٦٩٣، ٦/ ٤/ ١٩٢٥ م.

(٢) الطيران ٢٣/ ١٤٤ / الجزء الثاني، من وزير الداخلية إلى متصرف الموصل، رقم ٧٣٧٩، ١٧/ ٦/ ١٩٢٥.

(٣) الطيران ٢٣/ ١٤٤/ الجزء الثاني، من متصرف الموصل إلى وزير الداخلية، برقية رقم ٤٧٦، ٢١ / ٦ / ١٩٢٥ م.

(٤) الطيران ٢٣/ ١٤٤ / الجزء الثاني، من وزير الداخلية إلى متصرف الموصل، برقية رقم ٧٨٧٦، ٢٧/ ٦/ ١٩٢٥ م، وزارة الخارجية ٣٧١/ ١٠٩٣٣/ إ ٤٦٤٦، تقرير المخابرات العراقية، رقم ١٥، ٢٣/ ٧/ ١٩٢٥ م.

(٥) الطيران ٢٣/ ١٤٥/ الجزء الثالث، من مفتش الموصل الإداري إلى وزير الداخلية، رقم س ٣١٨١، ١٧/ ٩/ ١٩٢٥ م.

وتحاشى عجيل ببراعة أية خسارة في نفوذه بان استفاد من حادثتين غير متوقعتين في خريف عام ١٩٢٥ م:

أولا: رفعت الحكومة العراقية الحجر على غارات عنزة-شمر. فبعد حوالي سنة، فشلت تجربة وقف الغارات فيما بين القبائل واتفق الشيخان عجيل الياور وابن هذال على استئناف غارات القبائل في مؤتمر رتبت له الحكومة. وعندما وافقت وزارة الداخلية على مضض بالسماح للغارات بين القبائل، تمكن أتباع عجيل الياور من استئناف الغارات دون مضايقات حكومية [١].

ثانيا: ازدادت أيضا هيبة عجيل كقائد في تشرين الثاني ١٩٢٥ م عندما توفي الشيخ الموقر العاصي [٢].

قبل عام ١٩٢٦ م فشل تدخل الحكومة في التقليل من كثرة وكثافة الغارات القبلية. ومع ذلك، فقد عالجت الحكومة العراقية المشكلة بعزم متجدد خلال العام ١٩٢٦ م. وفي عناد أصرت على أن عجيل، كزعيم اكبر لشمر، يتحمل مسؤولية أعمال القبيلة. وإذا لم يتمكن من وقف غارات شمر فسوف تخفض معونته المالية بشكل كبير وستتولى مجموعة من

---

(١) وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٠٨٣٣ / إ٦٢٩٨، تقرير مخابرات العراق، رقم ٢٠/ ١٠/ ١٩٢٥ م.

(٢) الطيران ٢٣/ ١٤٦/ الجزء الرابع، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ٢٠٣٠، ٣٠/ ١١/ ١٩٢٥ م. ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ٢٠٥٣، ١٥/ ١١/ ١٩٢٥م.

العربات المسلحة حماية امن الحدود. وإذا تعاون عجيل في محاولة وقف الغارات، فسوف يتلقى مساعدة بريطانية كاملة: عسكريا وسياسيا[1].

أصبح القتال بين الفريقين المتنافسين خطيرا بشكل متزايد منذ تشرين أول عام ١٩٢٥ م عندما بدأ دهام يسعى إلى الحصول على مساندة رجال القبائل اليزيدية في إقليم سنجار. استفاد دهام من استياء اليزيدية من شمر العراقية بسبب غارات مكلفة عديدة قام بها رجال تابعين لعجيل، وعمل على إقامة تحالف رئيسي ضد ابن عمه[2]. وبعد ثلاثة اشهر من الغارات الصغيرة المتبادلة، اختار دهام أن يواجه عجيل في معركة رئيسية عند البديع على الحدود السورية-العراقية وبمساندة الفين من رجال قبيلة الجبور السورية، سعى إلى التغلب على القوة العراقية الأصغر عددا والتي كان يقودها عجيل الياور. وسرعان ما تبخرت هذه الآمال الكبيرة في صباح ٢ نيسان ١٩٢٦ م عندما اكتشف دهام، بعد أن بدأ بالهجوم، أن السيارات المسلحة البريطانية لسوء حظه، قد انضمت إلى عجيل أثناء الليل. وانتهت كل آمال دهام في الانتصار عندما انقض فجأة سرب من طائرات القوة الجوية الملكية على شمر السورية[3].

وفي دقائق قصيرة معدودة تركت حقائق التكنولوجيا الحديثة أثرا لا ينمحي في أذهان محاربي شمر أن ممارسات البدو الحربية القديمة واجهت

---

(١) الطيران ٢٣/ ١٤٩/ الجزء الثامن، من برسكوت إلى وزير الداخلية، رقم س/ ١٧٤، ١٩٢٦/٥/٢٥ م.

(٢) الطيران ٢٣/ ١٤٩/ الجزء السابع، تقرير عن معركة دهام-عجيل عند البديع، ص٥٠، ١٩٢٦/٦ م.

(٣) المصدر السابق، ص٥٠ هـ.

أخيرا نظيرها. ولم تسمح الظروف المباشرة بوقت طويل للتفكير، فقد هرب دهام وأتباعه. وطاردتهم شمر العراقية مطاردة شديدة ودفعت بدهام ورجاله إلى أعماق الأراضي السورية. وقتل عدد كبير من رجال الجبور والخرصة عند البديع[1].

سعى دهام، في أعقاب كارثة نيسان، إلى ثأر سريع، أن إعادة تعيين الفرنسيين له كزعيم للخرصة ساعد جهوده في تجنيد قوة تابعة له قوية[2]. وفي نفس الوقت، واجه الشيخ عجيل في العراق إصرارا بريطانيا متزايدا لوقف كل الغارات القبلية. وفي تموز أنهى أمر رسمي كل الغارات القبلية وحدد نظاما صارما لتنفيذ الأمر الجديد وكان رد الفعل لدى رجال شمر هو الرحيل إلى سوريا حيث ظلت عمليات الإغارة قانونية وفي ظل تهديد الحكومة انقسمت مجموعات الإغارة الكبيرة سابقا إلى مجموعات صغيرة حتى تتجنب أن تنكشف[3].

أدرك الرسميون البريطانيون أن توقف أعمال الإغارة عبر الحدود يحتاج إلى تعاون دولي، وسعوا إلى الاتفاق مع الفرنسيين للدعوة إلى مؤتمر

(١) المصدر السابق، ص٥٠ ج.

(٢) الطيران ٢٣/ ١٤٩/ الجزء السابع، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١٠/أ/ ٣٠٦، ١٦/٦/١٩٢٦ م.

(٣) الطيران ٢٣/ ١/ ١٠ / ١، من مستشار وزير الداخلية إلى مفتش الموصل الإداري، برقية رقم س/ ١٨٤٠، ١٣/ ٧/ ١٩٢٦ م، الطيران ٢٣/ ٢٧٥/ ١/ ٢١، من وزير الداخلية إلى سكرتير المندوب السامي، رقم س/ ١٩٧٣، ٢٧/ ٧/ ١٩٢٦ م. الطيران ٢٣/ ١٥٠/ الجزء الثامن، من رئاسة الطيران إلى المندوب السامي، ٢٢/ ٩/ ١٩٢٦ م.

قبائلي لحسم كل المزاعم البدوية الكبيرة وإنهاء كل الغارات[١]. أما بخصوص السيطرة على شمر في داخل العراق، فقد أثيرت فكرة وقف هجرتهم الخريفية إلى الجنوب بسد الطرق المعتادة باستخدام سيارات مسلحة والطائرات الجيدة، ومع أن هذه العملية كانت ممكنة من الناحية التكنلوجية فإنها لم تحدث عام ١٩٢٦م لأن المراعي الخصبة سمحت للقبيلة بان تمضي الشتاء في شمال الجزيرة[٢].

وقد أدت هذه الجهود البريطانية المنسقة إلى انخفاض ملحوظ في غارات القبائل العراقية في نهاية عام ١٩٢٦ م. ومع ذلك فقد ظلت عمليات الإغارة مشكلة خطيرة بسبب الغارات العديدة التي شنتها القبائل السورية على العشائر العراقية. وطوال شهور تشرين ثاني وكانون أول وكانون الثاني ١٩٢٧م، اعتدى أتباع دهام الهادي وبنيان الشلال مرارا على الحدود العراقية. وأغضبت هذه الغارات الرسميين البريطانيين الذين اتهموا الفرنسيين بعدم اتخاذهم إجراءات فعالة للسيطرة على البدو السوريين[٣].

---

(١) وزارة الخارجية ١١٥٠٨/٣٧١، من دوبز إلى المندوب السامي في سوريا، رقم ١٢٦٤٩، ١٩/ ١٩٢٦/١٠ م.

(٢) الطيران ٢٣/ ١٥٠/ الجزء الثامن، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، برقية ١/ ٤٠٩، ٢٩/ ٩/ ١٩٢٦ م. الطيران ٢٣/ ١٥١/ الجزء التاسع، من مفتش الموصل الإداري إلى وزارة الداخلية، رقم الرئاسة / ١١٤٩، ٢/ ١٠/ ١٩٢٦ م. وزارة الخارجية ٣٧١/ ١٢٣٠٤، من ساتو إلى يونسو، ٣/ ١/ ١٩٢٧ م.

(٣) الطيران ٢٣/ ١٥٢ / الجزء العاشر، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مستشار وزارة الداخلية، رقم ١م/ ٦٩٢، ٣٠/ ١١/ ١٩٢٦ م، وزارة الخارجية ٣٧١/ ١١٤٦٨ / إ ٧٠٩٠، تقرير المخابرات العراقية، رقم ٢٤، ٨/ ١٢/ ١٩٢٦ م. =

وبعد اتهامات متبادلة عديدة اجتمع المندوبون البريطانيون والفرنسيون في البديع في شباط ١٩٢٧ م لمناقشة خطط لمؤتمر قبائلي مقترح[١]. وقد تغيرت السياسة الفرنسية نحو دهام تغييرا جذريا في الفترة بين الاجتماع الأول في البديع والمؤتمر الفعلي الذي تم في عانة في ٢ نيسان. فقد استدعي دهام، خلال آذار، إلى دير الزور ووجهت إليه تعليمات واضحة بوقف الغارات عبر الحدود. وفيما بعد قام ضابط فرنسي بزيارته في مخيمه وكرر عليه أوامر التحريم[٢].

عقد المؤتمر القبائلي السوري-العراقي الذي طال انتظاره في نيسان في مدينة عانة على نهر الفرات. وحضر الاجتماع ممثلون عن كل القبائل الرئيسية وأيضا مسؤولون من الحكومات السورية والعراقية ومستشاريهم الأوربيون. وقد قدمت ونوقشت بتفصيل كبير المطالب الرئيسية للقبائل. ونتيجة لذلك، اتفقت القبائل المختلفة أن تتخلى عن مطالبها الرئيسية وتنهي عداءاتها. وتم عقد اتفاقات السلام بين القبائل التالية:

١- العكيدات والبكارة السورية وشمر وعنزة والدليم العراقية.

٢- عنزة العراقية وأقسام سنجارة وعمود من شمر السورية.

٣- شمر العراقية وأقسام السبعة من عنزة السورية.

= وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٢٢٦٤ / إ ١٢١ ، تقرير المخابرات العراقية، رقم ٢٦، ٢٢ / ١٢ / ١٩٢٦ .

(١) وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٣٧٦٠ / إ ١٣٢٩، المخابرات العراقية، رقم ٥، ٢٢ / ٢ / ١٩٢٧ م.

(٢) الطيران ٢٣ / ١٥٤ / الجزء الثاني عشر، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١ م / ٣. أ، ٧ / ٣ / ١٩٢٧ م، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١م / ٣. أ، ١٥ / ٣ / ١٩٢٧ م.

٤- العمارات من عنزة العراقية وشمر.

٥- الفدعان السورية والدليم العراقية.

٦- شمر العراقية وكل عنزة السورية.

أما بخصوص شؤون شمر الداخلية فقد تعانق الشيخان المتحاربان عجيل الياور ودهام الهادي واتفقا على أن يعيشا في سلام. وطالبت فقرة من قرارات المؤتمر القبائل بالتعاون مع حكوماتهم لجمع ضريبة الماشية (الودي)[١].

وطوال عام ١٩٢٧ م والسنوات القليلة التالية، كان تطوير نظام عادل وكفوء لجمع ضريبة الماشية يشغل مركز الأحداث في شؤون شمر. فقد حدثت مشاكل عديدة خلال المحاولة العراقية الأولية لجمع الضريبة. وهرب كثيرون من شمر إلى سوريا حتى يتجنبوا تدخل الحكومة في شؤون القبيلة، ولكن فعلتهم أثبتت، في النهاية، عدم جدواها حيث أنهم عادوا في النهاية إلى العراق[٢].

وشكلت عشيرة الخرصة، التي كانت تعيش على جانبي الحدود، مشكلة أكثر تعقيدا أما بتحملها عبء الضريبة مرتين آو بتهربها منها. وقد نشأت الصعوبة الأولى لأنه بدون المستندات المناسبة فان القبيلة التي دفعت

---

(١) وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٢٢٦٤ / إ ٢٣٢٥، تقرير المخابرات العراقية، رقم ١٠، ١/ ٥/ ١٩٢٦ م. بريطانيا العظمى، وزارة المستعمرات، ١٩٢٧ م، تقرير من حكومة جلالة الملك إلى مجلس عصبة الأمم حول الانتداب العراقي.

(٢) وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٢٣٠٥، بغداد، من بورديون إلى يونسوه، رقم س ٢٣٨٠، ١٠/ ١٢/ ١٩٢٧ م. الطيران ٢٣/ ١٥٥/ الجزء الثالث عشر من مفتش الموصل الإداري إلى مستشار وزارة الداخلية، برقية رقم ٢٥٠٦، ١٨/ ١٠/ ١٩٢٧م.

الضريبة على احد جانبي الحدود كان من الممكن أن تضطر إلى دفعها مرة أخرى عند عبورها إلى البلد الأخر[١]. وحدثت المشكلة الثانية في خريف عام ١٩٢٧ م عندما نجح شيوخ أذكياء في التهرب من دفع الضريبة بان عبروا الحدود عندما بدأ جمع الضريبة في بلدهم. وبرزت أمثلة عديدة من بين شيوخ الخرصة الثانويين حيث عبروا إلى العراق أثناء جمع الضريبة في سوريا. وتفجر مرة أخرى الصراع بين دهام وعجيل، الذي كان قد سوي الأمر في مؤتمر عانة، حول مشكلة جمع ضريبة الماشية، واندلعت المتاعب عندما تعقب دهام عددا من رجال الخرصة إلى العراق وزعم أنهم مدينون بالضريبة الحكومة السورية[٢].

وكان رد فعل الرسميين الفرنسيين بطيئا بالنسبة للشكاوي البريطانية الخاصة بتوغل دهام في العراق لجمع ضريبة الماشية من رجاله. ويبدو أن هذا التردد في وقف الغارات عبر الحدود نتج عن حقيقة أن دهام، بعد مؤتمر عانة، ذهب إلى بيروت حيث عين زعيم شمر الأكبر في سوريا كلها، ووعدوه بقوة من الهجانة من ٣٠٠ رجل ومعونة مالية شهرية[٣]. علاوة على ذلك فان جمع دهام لضريبة الماشية جعل الحكومة السورية تحصل على عائدات كبيرة.

---

(١) وزارة الخارجية ٣٧١/ ١٢٣٠٥، بغداد، من بورديون إلى يونسوه، رقم س ٢٨٣٠، ١٠/ ١٢/ ١٩٢٧ م.

(٢) وزارة الخارجية ٣٧١/ ١٢٣٠٥، من ياردين إلى ديليك ادجوان في دير الزور، رقم س ف س ٣٦٨، ٢٥/ ١٠/ ١٩٢٧ م. وزارة الخارجية ٣٧١/ ١٢٢٦٥/ إ٤٧٦٥، تقرير المخابرات العراقية، رقم ٢٢، ٢٧/ ١٠/ ١٩٢٧ م.

(٣) الطيران ٢٣/ ١٥٤/ الجزء الثاني عشر، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١ م/ ٣. أ، ١٧/ ٥/ ١٩٢٧ م.

أما في خارج نطاق مشكلة ضريبة الماشية، فان تأثير مؤتمر عانة القبائلي كان تهدئة للغارات عبر الحدود في عام ١٩٢٨ م. وطوال تلك السنة تعاون الرسميون البريطانيون والفرنسيون لتحسين عملية جمع الضريبة بهدف المزيد من التخفيض من حوادث شمر الحدودية. وفي نهاية السنة وافق كلا الجانبين بشكل تجريبي على جمع الضريبة في نفس الوقت والتنازل عن المطالبة بالضريبة من قبيلة دفعتها بالفعل في البلد الأخر[١]. وأكثر من ذلك فقد تم التقليل من احتمالات الغارات القبلية عندما أمر البريطانيون عجيل الياور بالبقاء بعيدا عن الحدود السورية في شباط، و نصح الرسميون الفرنسيون دهام الهادي، في تموز، بان يكبح جماح أتباعه[٢].

بالإضافة إلى نزاع دهام-عجيل، كان هناك جانبان آخران لسياسات شمر القبلية في عام ١٩٢٨ م. كان الجانب الأول يتعلق بشيخ عبده المتمرد بنيان بن شلال الذي غادر العراق في عام ١٩٢٤ م وأمضى عدة سنوات في سوريا مع دهام، مغيرا على أتباع عجيل. وقد وجد بنيان، وهو رجل ذو روح متمردة، أن شروط اتفاقية عانة لعام ١٩٢٧ م مقيدة له. وأملا في الاستمرار بثأره من عجيل، عبر الحدود إلى تركيا. واستمرت نشاطاته في

---

(١) وزارة الخارجية ٣٧١/ ١٢٠٥، من ياردين إلى ديليك ارجون في دير الزور، رقم س ف س ٣٦٧، ٢٤/ ١٠/ ١٩٢٧ م.

(٢) وزارة الخارجية ٣٧١/ ١٣٧٠٢، بيروت من يونسوه إلى دوبز، رقم ٦٤/ك د، ١٨/ ١/ ١٩٢٨ م، الطيران ٢٣/ ١٥٥ / الجزء الثاني عشر، من وزير الداخلية إلى المندوب السامي، رقم س ٨،٥٤٧/ ٢/ ١٩٢٨ م. وزارة الخارجية ٣٧١/ ١٣٠٧٣، بيروت من هويان إلى اليسون، ٢١/ ٧/ ١٩٢٨ م، وزارة الخارجية ٣٧١/ ١٣٠٧٣، بغداد، من دوبز إلى يونسوه، رقم ٤٠٤٢، ٣١/ ٣/ ١٩٢٨ م.

الإغارة خلال العام ١٩٢٨ م حتى استدعاه الرسميون الأتراك إلى ديار بكر. وفي اجتماع تم في أيلول، أمر بنيان بان يوقف غاراته في العراق وسوريا وعرضت عليه عدة قرى كتعويض له[١].

وفي خريف عام ١٩٢٨ م وقعت حادثة ثانية تبين الموقف المتغير للقبيلة تجاه الحكومة العراقية ففي السنوات الماضية كثيرا ما أدت هجرة شمر السنوية إلى الجنوب إلى غارات عديدة. ومع ذلك، ففي عام ١٩٢٨ م فرضت الحكومة قوانين صارمة حدت بشدة من هجرة شمر لأول مرة وبالتحديد كان على الحركة أن تستكمل خلال تواريخ محددة وتنفذ من خلال طريق معد سابقا. وأيضا لم يكن بإمكان القبيلة أن تعبر الفرات أو تقوم بغارات في شمال الجزيرة العربية وقبل ثمان سنوات فقط لم يكن من الممكن السيطرة على هجرة شمر، ولكن الابتكارات التكنولوجية، مثل الطائرات والعربات المسلحة واللاسلكي والتليفونات ساعدت على القيام بسياسة قبلية متشددة، سمحت للحكومة العراقية ومستشاريها البريطانيون أن تملي شروطها على القبيلة[٢].

التقى الرسميون البريطانيون والفرنسيون مرة أخرى في الحسكة خلال شباط من عام ١٩٢٩م، وادخلوا المزيد من تطوير عملية جمع

---

(١) الطيران ٢٣/١٥٦ / الجزء الرابع عشر، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١ م ٩، ٧/٦/١٩٢٨ م. وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٣٠٧٣، تقرير المخابرات العراقية، رقم ١١، ٢٠/٦/١٩٢٨ م، الطيران ٢٣/١٥٦ / الجزء الرابع عشر، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، ١٣/٩/١٩٢٨ م.

(٢) الطيران ٢٣/١٥٦/ الجزء الرابع عشر من وزير الداخلية إلى متصرف الدليم، الحلة، الخ.، رقم ١٣٥٦٣، ٣/٩/١٩٢٨ م.

الضرائب بعبور الحدود، وذلك بإخلاء جميع القبائل من منطقة تبلغ ١٥ كيلومترا على الحدود قبل البدء في جمع الضريبة بأسبوعين. وتقرر أن تقوم سيارات الجيش المسلحة بالعملية من اجل تحقيق أقصى كفاءة[١]. وكان لهذا الأسلوب المحسن في جمع الضريبة تأثيرا كبيرا ملحوظا في سوريا. ولم يكن هناك رد فعل لهذه العملية بين شمر السورية حتى استبدل الفرنسيون ضريبة الماشية المعتدلة بضريبة الكودا[*] الأكبر كثيرا وعندما تم ذلك ظهرت احتجاجات شديدة[٢].

وفي مواجهة المعارضة الشديدة للضرائب المرتفعة اعتمد الفرنسيون كثيرا على الشيخ دهام الهادي لجمع الضريبة الجديدة. وقد أغضبت الضريبة الجديدة عشيرة الفداغة التي قامت بالاعتداء على جامعي الضريبة الحكوميون. ونتيجة لمقاومة شمر الغربية، استبدل مثل الفارس مؤقتا كزعيم أكبر بالشيخ عبد المحسن بن عبد الكريم الذي وعد بجمع ضريبة الكودا الكبيرة[٣]. وأصبح استياء القبيلة من الضريبة الجديدة شديدا حتى أن أعدادا كبيرة من شمر السورية هددت بان تنتقل إلى العراق[٤]. وأملا في وقف هجرة دهام الهادي، التي أشيع عنها، أهداه الفرنسيون منزلا في جل أغا حيث استقر فيه في آب ١٩٢٩ م. وأيضا أدى الخوف من رحيل عشيرة

---

(١) الطيران ٢٣/ ١٥٦/ ١/ ١: ١٠، تقرير عن مؤتمر الحسكة، ١٧/ ٢/ ١٩٢٨م.

(*) ضريبة الماشية في سوريا، (المقدم).

(٢) الطيران ٢٣/ ١٥٧/ ١/ ١٠/ ١، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١م/ ٣٧، ٤/ ٧/ ١٩٢٩ م.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

الفداغة إلى العراق تم إطلاق سراح مشل الفارس وإعادة تعيينه زعيما اكبر لشمر الغربية ودفع رواتبه كاملة بأثر رجعي[١].

وخلال سنوات ١٩٣٠ و ١٩٣١ م أصبح العداء الطويل بين دهام الهادي وعجيل الياور اقل مرارة عندما توقفت عمليا الغارات القبلية عبر الحدود. وقد حلت مؤتمرات قبائلية سورية وعرافيه في الأعوام ١٩٢٨و١٩٢٩م الكثير من المشاكل البارزة بين هذين الزعيمين لشمر والخاصة بالغارات وجمع ضريبة الماشية[٢]. وهكذا، وبعد أن أقامت الحكومتان السورية والعراقية إجراءات موحدة لجمع العائدات، حول زعماء شمر انتباههم إلى مسؤوليتهم الثقيلة في جمع ضريبة الماشية من قبائلهم.

إن استمرار الضرائب الثقيلة في سوريا خلال عام ١٩٢٩م دفع مشل الفارس ودهام الهادي إلى التفكير في الرحيل بقبائلهما إلى العراق. وفي مواجهة أخرى من الضرائب المعجزة عبر مشل الفارس و ١٥٠٠ من عوائل شمر الحدود إلى العراق سرا في أيار ١٩٣٠م[٣]. وقام مشل بزيارة الملك فيصل بعد أن خيم رجاله في جنوب جبل سنجار. وبعد مناقشة ودية

---

(١) الطيران ٢٣/ ١٥٧/ الجزء الخامس عشر، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، ٢٠/٨/ ١٩٢٩ م.

(٢) الطيران ٢٣/ ١٥٨ / الجزء السادس عشر، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١ م/ ١٠، ٣٠/ ٧/ ١٩٣٠ م.

(٣) الطيران ٢٣/ ١٥٨/ الجزء السادس عشر، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١/ ١١/ ١، ١٢/ ٢/ ١٩٣٠ م، الطيران٢٣/ ١٥٨/ الجزء السادس عشر، التقرير الإداري للواء الموصل، الشهر الأول ١٩٣١ م.

قام الملك بتوجيه شيخ الفداغة إلى وزارة الداخلية حيث سرعان ما علم بالشروط الصارمة التي ستفرض عليه في حالة بقائه في العراق.

أولا: سيصبح تحت قيادة عجيل الياور.

ثانيا: أن عليه الاستمرار في دفع الضرائب إلى الفرنسيين في سوريا.

ولان كلا الشرطين لم يكونا مقبولين بتاتا، عاد مشل الفارس إلى سوريا في كانون الثاني عام ١٩٣١م[١].

وقد واجه الرسميون السوريون متاعب أخرى عندما بدأ أيضا أن دهام الهادي يستعد للعودة إلى العراق مع عشيرة الخرصة. وعلى الرغم من انه بدأ في مراسله الملك فيصل بخصوص عودته إلا أن خططه سرعان ما واجهت بمعارضة شديدة من قبل عجيل الياور الذي خشي من وجود دهام في العراق[٢]. وقبل أن تتطور الأمور أكثر هدأت الصعوبات الفرنسية الشمرية بشكل ملحوظ مع خفض نسبة ضريبة الماشية إلى ربع ما كانت عليه في عام ١٩٢٩ م[٣]. أن فشل دهام الهادي ومشل الفارس في أن يجدا مأوى لهما في العراق في عام ١٩٣١ م يبين بوضوح التغير الذي طرأ على حياة شمر البدوية خلال العقد الأخير. إذ لم يكن عام ١٩٣٢ م نهاية فقط

(١) الطيران ٢٣/ ١٥٨/ ١/ ١٠/ ١، من رئاسة الطيران إلى مخابرات هيئة الطيران، ١/ ١٣د/ ٣٣، ٨/ ٥/ ١٩٣٠ م. الطيران ٢٣/ ١٥٨/ الجزء السادس عشر، التقرير الإداري للواء الموصل، الشهر الأول ١٩٣٠ م.

(٢) الطيران ٢٣/ ١٥٨/ ١/ ١٠/ ١، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١م/ ١٠، ٢٣/ ٨/ ١٩٣٠ م.

(٣) الطيران ٢٣/ ١٥٨/ الجزء السادس عشر، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، ١م/ ١٠، ٢٣/ ٨/ ١٩٣٠ م.

للانتداب البريطاني وبداية لاستقلال العراق، ولكن يمكن أيضا أن تؤخذ كنهاية مناسبة لفترة مهمة في تاريخ شمر. في خلال مائة وثلاثون سنة من وجودها في الجزيرة لم تتعرض القبيلة لمثل هذا التغيير العميق كالذي حدث لها خلال السنوات من ١٩٢٢ إلى ١٩٣٢ م.

وفي خلال النصف قرن الأخير من الحكم العثماني، كان تأثير الإدارة المركزية الأكثر كفاءة وتحسن التكنولوجيا العسكرية أديا إلى إنهاء تفوق شمر العسكري والحد من مجال غاراتها ومع ذلك وحتى عقد العشرينات من القرن العشرين لم تكن شمر والقبائل البدوية الأخرى في الجزيرة قد شعرت بالتأثير الكامل للعالم الحديث. فقد بدأ هذا التغير مع تقسيم ديار شمر بين ثلاث دول حديثة بعد الحرب العالمية الأولى. وان الحدود السياسية الجديدة لم تقيد فقط حرية حركة شمر التقليدية بل ووفرت أيضا مزيدا من المركزية الإدارية.

واصطدمت فورا الممارسات البدوية التقليدية، مثل الإغارة فيما بين القبائل وجمع الخاوة والضغائن داخل القبيلة مع رغبة سلطات الانتداب في استتباب النظام والهدوء الإقليمي. أن التكنولوجيا العسكرية المتفوقة على شكل طائرات وسيارات مسلحة ورشاشات ووسائل الاتصال الحديثة، مثل التليفونات واللاسلكي، ساعدت الفرنسيين والبريطانيين على تحريم الغارات وتنظيم جمع الخاوة. وقد ضمنت أيضا هذه السيادة العسكرية المطلقة للحكومة المركزية السيطرة على السياسة القبائلية، وذلك بتعيين زعيم اكبر تعتمد سلطته بالدرجة الأولى على مساندة الحكومة له. فقدت شمر تماما قدرتها على تحدي الحكومة، ولم يعد في إمكانها الاعتماد على استخدام القوة المعتادة أو حماية الصحراء لها كي تؤثر في الأحداث كما

كانت تفعل في القرن التاسع عشر[١]. وخلال سنوات ما بين الحربين، انتقل تأثير شمر على الأحداث السياسية إلى شيوخ أقوياء التمست بقوة الحكومتان السورية والعراقية ولأوهم ومساندتهم وأيضا فان المتطلبات البدوية التقليدية للقيادة القبلية، مثل الشجاعة والبلاغة والحكمة والكرم والتي كان التركيز فيها على الزعيم كقائد محارب، تراجعت أمام الطلب على الفطنة السياسية المتزايدة في السياسة الوطنية والدبلوماسية ومهارات العمل الذكية. وتبين فترة عجيل الياور الطبيعة المتغيرة للقيادة القبلية.

أنماط متغيرة في قيادة شمر فترة عجيل الياور:
١٩٢٢-١٩٤٠م

عندما قبل عجيل الياور دعوة الملك فيصل كي يصبح شيخ مشايخ شمر عام ١٩٢٢ م، لم يعد لهذا المنصب الاحترام الذي كان له في ظل شخص مثل صفوق بن فارس قبل خمس وسبعين سنة[٢]. ومنذ وفاة فرحان باشا عام ١٨٩٠ م، استمر العثمانيون في إضعاف شمر الشرقية باستغلال منصب الزعيم الأكبر الحكومي لبذر الانشقاق بين أبناء فرحان باشا الستة عشر. وهكذا عندما تولى عجيل المنصب، لم يكن لهذه المكانة سلطة أو احترام. ومع ذلك، فخلال ولايته كشيخ حكومي لمدة ثمانية عشر عاما، أصبح عجيل الياور واحدا من أغنى الرجال وأكثرهم نفوذا في العراق. أن كيفية تحقيقه لهذه المكانة الجديدة يكشف عن التغير الذي طرأ في قبيلة شمر خلال سنوات ما بين الحربين[٣].

---

(١) شتاين: شمر جربا، ص١٠٢-١٠٥.

(٢) وزارة الخارجية ٣٧١/ ٧٧٧١/ إ ٥٣١١، تقرير مخابرات الرافدين، رقم ٩، ١/ ٥/ ١٩٢٢م.

(٣) وزارة الخارجية ٣٧١/ ٢٣٢٩، ٢٣٢٩، شخصيات عراقية، «عجيل الياور»، ١٩٤٠ م.

من بين خلفاء فرحان باشا الذي كان أخر زعيم اكبر لشمر الشرقية قويا نسبيا، لم يكن لعجيل الياور أن يتمتع بأي حق وراثي خاص يجعله قائدا للقبيلة. فقد كان لشيوخ آخرون، مثل فيصل بن فرحان ودهام الهادي والعاصي بن فرحان وعبد العزيز بن فرحان، حقوق أقوى في قيادة القبيلة على أساس النسب. ومع ذلك فقد فاز عجيل الياور بالسلطة بسبب عاملين مهمين:

١- صفاته الشخصية كقائد بدوي.

٢- صداقته مع الملك فيصل [١].

ومن حيث المظهر فقط، كان شكل عجيل مهيبا فقد كان طوله يبلغ ستة أقدام وست بوصات، ويزيد وزنه عن مائتين رطل بلا شحم [٢]. وإضافة إلى مظهره المدهش، كان عجيل يمتلك صفات القيادة البدوية التقليدية. واجتذبت شخصيته الجذابة وقدرته على قص الحكايات أعدادا كبيرة من وجهاء المدينة وشيوخ البادية إلى مجلسه في بغداد [٣].

وعلى الرغم من مؤهلاته الجذابة كقائد لشمر إلا أن الرسميين البريطانيين كانوا يعتبرونه في عام ١٩٢١ م خارجا على القانون بسبب مشاركته في الغارة على تلعفر في عام ١٩٢٠م [٤]. ومع ذلك، عندما اعتلى

---

(١) وزارة الخارجية ٣٧١/ ٦٣٤٩/ إ ١١٨.٢، شخصيات من الموصل واربيل وبغداد، ١٩٢١ م، الجميل البدو، ص٣-٤: بيرجيون: غير ترودبل، المجلد الثاني، ص٣٢١-٣٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص٢٣٧.

(٣) وزارة الخارجية ٣٧١/ ٦٣٥٣/ إ ١٠٥٣ / تقرير مخابرات الرافدين، رقم ١٩، ١٩٢١/٨/٥ م.

(٤) المصدر السابق.

الملك فيصل العرش في آب ١٩٢١م، تم حل هذه المشكلة بسرعة وعين عجيل الياور زعيما حكوميا أكبر على شمر العراقية. وطوال فترة توليه لمنصبه، أدرك عجيل بذكاء أن مكانته تعتمد على مساندة الحكومة، وليست مساندة القبيلة له وذلك لأن تأييد شمر الشرقية لدهام الهادي في الصراع على القيادة دليل على أن عجيلا فشل في أن يتمتع بولاء شمر كلها له. وطوال العشرينات احتفظ عجيل بمساندة الحكومة بعد أن فرض الأمر غير المحبوب بوقف كل الغارات القبلية[(١)].

وازداد كثيرا نفوذ عجيل في شؤون القبيلة بين الأعوام ١٩٢٣ و ١٩٢٧ م. وكشيخ حكومي، كان يتلقى معونة مالية شهرية تبلغ ١٢ الف روبية. وكانت المعونات المالية، قبل عام ١٩٢٢ م، توزع على المشايخ كأفراد. ومع ذلك وعندما أصبح عجيل زعيما أكبر كان يتسلم معونة مالية كبيرة وكان هو شخصيا يقوم بتقسيمها على الشيوخ الآخرين. وبسيطرته على توزيع أموال الحكومة، أصبح لعجيل نفوذ كبير على الكثيرين من منافسيه المحتملين[(٢)]. وأيضا، فان قيادته لفيلق من راكبي الجمال المسلحين الذي مولته الحكومة، الذي تم تشكيله لحراسة الحدود ظاهريا، أمد عجسل بسلاح أخر للتأثير على شؤون القبيلة. إلى جانب هذه الأساليب في السيطرة، جمع عجيل ثروة وسلطة شخصية كبيرة، وذلك نتيجة لحقه في جمع الضرائب الحكومية وإصداره لتصريحات دخول إلى أسواق مدن مختلفة[(٣)].

---

(١) (الهامش غير موجود في الأصل).

(٢) الطيران ٢٣/ ١٤٤/ الجزء الثاني، من وزير الداخلية إلى متصرف الموصل، برقية رقم ٧٨٧٦، ٢٧/ ٦/ ١٩٢٥ م.

(٣) الطيران ٢٣/ ٢٦٠/ ١/ ١٣، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١٤٤٦، ١٦/ ٦/ ١٩٢٤ م، الطيران ٢٣/ ١٥٥/ ١/ ١٠ الجزء =

وكجزء من سياستهم القبلية، كان البريطانيون يطالبون أي بدوي يدخل إلى مدن العراق أن يكون معه تصريح قانوني من شيخه الأكبر. واثبت هذا الشرط انه مهم جدا بالنسبة للبدو مثل شمر الذين كانوا يحتاجون إلى الحبوب والتمور لوجباتهم اليومية. وبدون هذه الأشياء كان من الممكن للقبيلة أن تموت جوعا. وبفرضه رسوما على تصاريح الدخول، لم يجمع عجيل الأموال فقط، ولكنه أيضا دعم من سيطرته على القبيلة بشكل اكبر. وكان جمعه لضريبة الماشية من رجاله مصدرا أخر للدخل. وفي عام ١٩٢٨ م، سمح له بان يحتفظ بـ ٢٥بالمئة من الضرائب التي تجمع من شمر[1].

في نهاية العشرينات، أحدثت قوى سياسية واجتماعية واقتصادية تغييرا في الثقافة البدوية التقليدية. وبشكل محدد، حدت الإدارة الحكومية الأكثر كفاءة والتكنولوجيا العسكرية الحديثة من قدرة البدو في الحصول على دخل عن طريق ممارساتهم القديمة في الغزو وجمع الخاوة[2]. وأيضا، فان استخدام السيارات والشاحنات قلل من الطلب على الجمال كوسيلة مواصلات. وفي عام ١٩٢٣ م تم إنشاء شركة نيرن لنقل وحمل البضائع والمسافرين بين بغداد ودمشق طبقا لجدول منتظم، وكان ذلك مثالا

= الثالث عشر، ضابط الخدمات الخاصة، من الموصل إلى مخابرات الطيران، رقم ١م / ب ٥،٨/ ١١/ ١٩٢٧ م.

(١) المصدر السابق.

(٢) شتاين: شمر جربا، ص١٠٢-١٠٥. غلوب: «البدو»، من مجلة الجمعية الملكية لوسط آسيا، المجلد ٢٢ (١٩٣٥م)، ص٢٩.

واضحا على التغيير. ومع سد الكثير من وسائلها التقليدية في كسب عيشها، اضطرت شمر اللجوء إلى طرق أخرى لكسب عيشها[١].

وبدءا من عام ١٩٢٦ م كان هناك اقتراح بمشروع لتطوير الأراضي بين الملك فيصل وعجيل الياور الذي اشترى مساحات واسعة من الأراضي في شمال الجزيرة[٢]. وفي نهاية الثلاثينات أصبح يمتلك أراضٍ في قلعة الشرقاط وتكريت وتلعفر وبالقرب من جبل سنجار[٣]. وخلال الأعوام ١٩٣٦ و ١٩٣٧ م، سببت محاولته في الحصول على أراض إضافية في المنطقة اليزيدية قلقا شديدا في وزارة الداخلية[٤] وقام أفراد من قبائل مختلفة تابعة لشمر، مثل الجبور، بزراعة الأراضي التي تعود إلى الشيخ عجيل. ومن أجل تحسين الإنتاج. حفر زعيم شمر ذو الذهن المتفتح عددا من الآبار واستخدم مضخات حديثة لتوفير المياه اللازمة[٥]. ولم تقتصر مثل هذه المشاريع على الزراعة فقط.بل وعمل كوسيط، من اجل توفير

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الطيران ٢٣/١٤٦/الجزء الرابع، من كونواليس إلى سكرتير المندوب السامي، رقم س ٢١٦ / ٢٦٣، ٢٨/ ١/ ١٩٢٦ م.

(٣) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص ١٥٠.

(٤) وزارة الخارجية ٣٧١ / ٢١٧١ / إ١٤٧، القوة الجوية الملكية، ملخص تقرير المخابرات الشهري، العراق، ث٩٨، الشهر الثاني / ١٩٣٦ م. وزارة الخارجية ٣٧١ / ٢١٧١ / إ١٤٧، من رندل إلى كير، ٣٠/ ٤/ ١٩٣٦ م. وزارة الخارجية ٣٧١/ ٢٠٠٢، من وزير الداخلية إلى السفير، رقم ٣٤٢/ ب.أ. ٤، ١٩/ ٥/ ١٩٣٦ م. س.ج. إدموندز ؛ الحج إلى لاليش، (لندن ١٩٦٧ م)، ص٦٤-٦٥.

(٥) مارغريت بوفري: المئذنة وخط الأنابيب: بين الأمس واليوم في الشرق الأدنى، ترجمته عن الألمانية لزيزام: سيفكنك، (لندن ١٩٣٩م)، ص٣٦٨.

عمال من القبيلة لتوسيع الطريق وسكة الحديد بين بيجي و الموصل، ووفر أيضا الأمن لشركة تنمية النفط البريطانية. ووفرت مثل هذه المشاريع دخلا شخصيا كبيرا لزعيم شمر الأكبر[١].

وطوال فترته، أبدى عجيل اهتماما شديدا بالشؤون السياسية واشترك فيها بنشاط. وبدءا هذا النشاط من عام ١٩٢٤ م، عندما أصبح ممثل شمر في المجلس التأسيسي[٢]. وكمرافق وثيق الصلة بالملك فيصل، وكان له نفوذ كبير في الشؤون الوطنية. وربما كان أفضل مثال على أهميته كشخصية سياسية وطنية هو التكريم الذي أحظته به الحكومة البريطانية عام ١٩٣٧ م. فلقد تمت دعوته في تلك السنة كمواطن عادي لحضور تتويج الملك[٣].

علاوة على ذلك، زار عجيل بريطانيا العظمى مرة أخرى عام ١٩٣٩ م. وفي الرسائل الرسمية التي مهدت لزيارته، كان يشار إلى عجيل كقائد قبلي عراقي قوى ومهم. وأملا في ضمان ولاء شمر لهم في حالة اندلاع حربا مع ألمانيا، بذل البريطانيون اهتماما كبيرا لكسب رضاء عجيل. وبينما كان في لندن، حضر مناورات عسكرية وبحرية وقابل خبراء زراعيين بهدف تحسين غنمه وإنتاج الحبوب واستشار احد أخصائيي القلب[٤].

---

(١) برنارد فيرنييه: العراق اليوم، (باريس ١٩٦٣م)، ص٨٥.

(٢) وزارة الداخلية، مذكرة المجلس التأسيسي العراقي، المجلد الأول (بغداد ١٩٢٥م)، ص١٣٣٨.

(٣) وزارة الداخلية، ٣٧٢/ ١٢٣٩ / ت ٧٤١١، من ماترزهيد إلى غانز، ١٩٣٧/٥/٤ م.

(٤) وزارة الخارجية ٣٧١/ ٢٣٢١٧، من نيوتن إلى باستر، ١٩٣٩/٧/٧.

وبينما ازدادت سلطته وثراؤه خلال الثلاثينات، استمر عجيل في الاحتفاظ بعلاقات وثيقة مع رجال قبيلته شمر. ورغم أنه كان لديه ممتلكاته في بغداد والموصل وأيضا بيوت في قلعة الشرقاط وتلعفر إلا أن زعيم القبيلة كان يقضي وقتا طويلا مع قبيلته في البادية[1]. وبعد أن حسم خلافه مع دهام الهادي عام ١٩٣٣م، لم تعكر أية منازعات رئيسية في القبيلة شؤون شمر. ودارت الأحداث الرئيسية في تاريخ شمر السياسي من عام ١٩٣٢ إلى ١٩٤٠ م وبالدرجة الأولى حول المنافسات التقليدية فيما بين القبائل. وقد حدثت أحدى الصراعات الرئيسية بين القبيلة وجيرانها في اب ١٩٣٣م[2]، عندما اشتركت شمر في هجوم للجيش على المسيحيين اللاثوريين في شمال العراق[*]. واندلع صراع أخر فيما بين القبائل في عام ١٩٣٨ م بين شمر وقبيلة العكيدات السورية، وفي شباط ١٩٣٩ م بين شمر وقبيلة العبيد العراقية[*]. ولكن الاجتماعات، التي أشرفت عليها الحكومة بين القبائل المتحاربة وضعت نهاية سريعة لهذه الصراعات[3].

---

(١) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٥.

(٢) وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٦٨٠٧ / إ٤٨٧٣، من اوكيلفي-فورب إلى وزارة الخارجية، رقم ٢٩٤، ٢١/٨/١٩٣٣ م، لونكريك: العراق ١٩٠٠-١٩٥٠م، ص٢٣٤.

(*) وذلك بطلب من الحكومة العراقية لإنهاء هذا التمرد. (المقدم).

(*) على اثر مقتل الشيخ فيصل بن فرحان باشا، عم الشيخ عجيل على يد احد أشقياء بغداد، بأمر من احد شيوخ العبيد الذي كان يريد قتل الشيخ حميدي بن فرحان باشا لثأر قديم، فتوهم القاتل بالشيخ فيصل وضنه الشيخ حميدي. (المقدم).

(٣) وزارة الخارجية ٣٧١ / ٢٣٢٩، شخصيات عراقية، «عجيل الياور»، ص٧٢، ١٩٤٠ م، لونكريك: العراق ١٩٠٠-١٩٥٠ م، ص١٨٤.

وفي بداية تشرين الثاني ١٩٤٠ م، أصيب عجيل الياور بنوبة قلبية أدت إلى وفاته بينما كان يقود سيارته موديل فورد بالقرب من الشرقاط[١]. وقد خلفه ابنه صفوق، وهو خريج الجامعة الأمريكية في بيروت، كزعيم شمر الأكبر[٢]. وخلال مشيخة عجيل الياور من عام ١٩٢٢ إلى ١٩٤٠ م، مرت قبيلة شمر جربا بسلسلة من التغيرات العميقة، التي غيرت عمليا كل جوانب الحياة التقليدية لشمر البدوية. وتعرضت القيادة القبلية، كما يتضح من حياة عجيل الياور، بأكبر تغير ملحوظ.

---

(١) س. ج. ادموندز، مقابلة شخصية، كانون الأول ١٩٧١ م.

(٢) لونكريك: العراق ١٩٠٠-١٩٥٠ م، ص٢٨٢، وزارة الخارجية ٣٧١/ ٢٣٢٩، شخصيات عراقية، «عجيل الياور»، ص٢٢، ١٩٤٠ م.

الفصل السادس

شمر جربا

١٩٤٠-١٩٥٨م

مع وفاة عجيل الياور في نهاية عام ١٩٤٠ م، انتقل منصب الزعيم الأكبر إلى ابنه صفوق، الذي تنازل بدوره عن الزعامة لأخيه احمد في منتصف الأربعينات. وخلال الفترة من الحرب العالمية الثانية إلى ثورة العراق في عام ١٩٥٨ م، كانت الاتجاهات التي بدأت ما بين الحربين تشكل جوهر تاريخ شمر القبلي، وقد زاد احمد بن عجيل الياور من القوة الاقتصادية والسياسية التي ورثها عن أبيه. واستبدل عدد أكبر من رجال القبيلة حياة الرعي بالزراعة المستقرة. وأيضا استمرت عمليات الغزو وفرض الخاوة في التناقص. ورغم هذه التغيرات إلا أن شمر احتفظت بمكانتها كقبيلة عربية مهيمنة في الجزيرة وتبين هذه النقطة بوضوح الاشتراك العسكري القبلي لشمر في انتفاضة الموصل في آذار ١٩٥٩ م.

وخلال الحرب العالمية الثانية تعاونت شمر العراقية بشكل واسع مع البريطانيين، وحصلت على فوائد مربحة لقاء خدماتها كقوات عسكرية إضافية، واستفادت من بيع الحبوب التي اشتدت إليها الحاجة[1]. وعلى

(١) ن.، . كساب: استقرار البدو في الجزيرة العراقية (بادن-ورتميرغ، ١٩٦٦م)، ص٥٥.

النقيض من المكانة المفضلة لعائلة الياور، كان البريطانيون يشكون من الطبيعة المتمردة للشيخ دهام الهادي وأبعدوه إلى جزيرة قمران قرب ساحل اليمن في البحر الأحمر(١). وفي عام ١٩٤٤ م عندما كان الطلب على الحبوب على أشده بسبب الاقتصاد في توزيع المواد خلال فترة الحرب، بدأ شيوخ شمر الأغنياء مثل أحمد الياور في زراعة أراضيهم الواسعة بكثافة.ولم تكن هذه الأراضي قد استغلت بشكل كامل قبل النقص الحاد في الحبوب(٢).

وبالأرباح التي جناها خلال الحرب، قام احمد الياور بتطوير عمليات زراعة واسعة خلال العقد التالي. وعلى خلاف كثير من الشيوخ غير المتنورين في شمال العراق، ادخل ابتكارات تكنولوجية عديدة مثل التراكتورات ونظم ري حديثة وماكينات للحصد والدرس وموتورات مياه كهربائية، كي يزيد من الإنتاج(٣). وقام رجال من شمر وأيضا من تلك القبائل التابعة لها بزراعة ممتلكات احمد الياور كفلاحين معدمين. وفي ظل هذا النظام الإقطاعي، اعتمد رجال القبائل المعدمين أكثر فأكثر على زعمائهم القبلية. وفي عام ١٩٥٢ م، وصلت الفروق بين ممتلكات قادة شمر الأغنياء وتلك الخاصة برجالهم المعدمين نسباً غريبة غير مألوفة، فقد امتلك اثنان وخمسون من أفراد عائلة الجربا ما يزيد على ٥٠٠ الف أكر(٤). ومن

---

(١) زكريا: عشائر الشام، ص٢٨٢.

(٢) شتاين: شمر جربا، ص١٠٥.

(٣) دورين وورنغر: الإصلاح الزراعي والتنمية في الشرق الأوسط: دراسة عن مصر وسوريا والعراق، (لندن ١٩٥٧م)، ص١٣٨-١٣٩. يوجين ويرث: «التغيرات الزراعية الحديثة في شمال شرق سوريا والفرات السوري»، المجلة الجغرافية في هايدلبرغ، مناقشات وأخبار مؤتمر.

(٤) يبلغ الأكر حوالي أربعة آلاف متر مربع.

بين هؤلاء الملاك، امتلك أبناء عجيل الياور ما يقرب من ١٥٠ ألف اكر. ومع ذلك كان أكبر مالك للأراضي هو الشيخ مشعان بن فيصل الذي سيطر على ما يزيد عن ١٠٠ ألف أكر[1].

ودفع الطلب المتزايد على العمالة بحوالي ٢٠ بالمئة من شمر جربا إلى التخلي عن حياتهم البدوية والاستيطان في قرى صغيرة عديدة في شمال الجزيرة. وكان المختار يوجه النشاطات الاقتصادية والسياسية في كل قرية. ورغم ذلك، استمرت الغالبية العظمي من القبيلة تتابع حياتها البدوية التقليدية[2]. ومع ذلك فقد شقت عملية التحديث طريقها بين بدو شمر، كما يتضح من الاستخدام المتزايد للزي الغربي واستخدام السيارات من قبل القادة القبليين[3]. علاوة على ذلك، تعرف شباب شمر على الثقافة الحديثة من خلال عملهم كحراس حدود أو كقوات عسكرية إضافية[4].

وبينما غيرت قوى التحديث من جوانب معينة في ثقافة شمر البدوية، فقد احتفظت القبيلة بنفوذها كقوة قوية في الشؤون السياسية الوطنية. استفادت شمر من المهارات العسكرية التي تجمعت لديها في ظروف الصحراء العدائية وبسطت نفوذها القوى تقليديا على القبائل المجاورة. وهناك حادثتان خاصتان عن العداءات بين القبائل ميزتا الثمان عشرة سنة في الفترة من موت عجيل الياور إلى الثورة العراقية في عام ١٩٥٨م[5].

---

(١) شتاين: شمر جربا، ص١٠٦-١٠٨.

(٢) المصدر السابق، ص١٠٥ و ص١١٥-١١٨.

(٣) المصدر السابق، ص١١٨-١٢٣. مونتين: حضارة الصحراء، ص ٢١٥-٢١٦.

(٤) شتاين: شمر جربا، ص١٢٣-١٢٤.

(٥) النيويورك تايمز، ١٨ آذار ١٩٥٩ م، ص٤.

وعلى وجه التحديد اندلع قتال ضار بين شمر العراقية وقبائل البو امتيوت والجحيش في أب ١٩٤٦ م. وقد ثارت الصعوبات عندما رفضت قبائل البو امتيوت والجحيش أن تدفع إيجار القمح المتفق عليه سابقا عن الأرض الخاصة بأبناء عجيل الياور. وأملا في حل المشكلة، قدمت القبيلة مطالبها إلى الحكومة العراقية، ولكن بدون فائدة. وهكذا عندما حاولت شمر ثانية جمع مستحقاتها، اندلع قتال عنيف نتج عنه موت مائتين من الرجال[*]. وسارع الحلفاء القبليين في أنحاء الجزيرة لمساعدة القبائل المتحاربة، ولكن تدخل الحكومة الحاسم وضع حدا للمعارك[1].

وفي عام ١٩٥٢ م اندلع قتال رئيسي أخر من الحرب بين القبائل اشتركت فيه شمر جربا. وفي هذه الحالة بالذات واجهت القبيلة متاعب من قبيلة عنزة. وقد بدأ هذا الاندلاع الجديد لعداء قديم في كانون الأول عام ١٩٥٢ م عندما شنت عشيرة الدهامشة من العمارات (عنزة) عدة غارات على قسم الجعفر من عشيرة عبده التي كانت قد عسكرت داخل الديرة التي حددتها الحكومة لعشيرة صقور عنزة. ومات ثلاثون من شمر في هذه المعركة الأولية مع أربعة من محاربي عنزة. وطبقا للعادة ثارت الجعفر بسرعة في الشهر التالي بالهجوم على الدهامشة في شمال العربية السعودية وقتلت زعيم القبيلة. وكما حدث في حالة اندلاع قتال شمر في عام ١٩٤٦م، أوقف التدخل الحكومي في النزاع بتحويلها المشاكل الرئيسية إلى التحكيم[2].

(*) من كلا الطرفين. (المقدم).

(١) زكريا، عشائر الشام، ص٢٩١.

(٢) الجميل: البدو، ص٢٩٠-٢٩١.

وفي أعقاب الثورة العراقية عام ١٩٥٨ م، حدث المثال الثالث والأكبر مغزى على القوة السياسية-العسكرية لشمر. فقد ساهمت مصادر كثيرة للسخط في الجو الذي أدي إلى السقوط العنيف للملك وانتخاب حكومة في تموز ١٩٥٨ م. ومنذ نهاية الحرب العالمية الأولى كانت هناك إثارة معادية للإنكليز وللصهيونية في كل أنحاء العراق وأيضا في بلاد أخرى. ونتج هذا السخط على الغرب من وعد بلفور ومراسلات حسين-مكماهون واتفاقية سايكس-بيكو ومعاهدة سيفر-وأدت كلها إلى تحطيم آمال عربية محددة وعبر السنين، هوجم الحكام الهاشميون في العراق والأردن، الذين حصلوا على عروشهم بمساندة قوية من الإنكليز، باعتبارهم أعوانا للإمبريالية الغربية[1].

وقد نتجت توترات أخرى عن الصراعات والانقسامات العديدة في المجتمع العراقي وكانت هناك صراعات أساسية بين المسلمين، بين السنة والشيعة، الأكراد والعرب، القوميين والشيوعيين، البدو والمتوطنين، الأغنياء والفقراء، ونتيجة لهذه الاصطدام كان المجتمع العراقي ينقصه الاستقرار اللازم لتطوير نظام ديمقراطي حكومي. وقد تسبب بروز جمال عبد الناصر كقائد عربي محبوب ووحدة مصر وسوريا في الجمهورية العربية المتحدة في توترات إضافية خطيرة. وفي مواجهة الوحدة السورية-المصرية قام الملك فيصل ورئيس الوزراء نوري السعيد بتشكيل اتحاد عربي مع

---

(١) اريل دان: العراق في ظل حكم قاسم: تاريخ سياسي ١٩٥٨-١٩٦٣ م، (نيويورك ١٩٦٩م)، ص١-١٢، بيريتز: الشرق الأوسط اليوم، ص٣٩٠-٣٩٦.

الأردن الهاشمية في كانون الثاني ١٩٥٨ م، مما اقترب بهذه التوترات من نقطة الانفجار(١).

وفي ١٤ تموز ١٩٥٨م ثارت مجموعة من ضباط الجيش الشباب بقيادة اللواء عبد الكريم قاسم ضد حكومة الملك فيصل ورئيس الوزراء نوري السعيد، معتقدين أن الجيل القديم من القادة والسياسيين العراقيين فشلوا في تطوير العراق. وبعد معارك متناثرة، سيطرت القوات الثورية على البلاد. وعلى الرغم من أن الوفيات التي حدثت خلال الانقلاب كانت قليلة نسبيا إلا أن الضحايا من بين القادة البارزين كانت كبيرة. فقد لقي الملك فيصل وعمه ولي العهد عبد الإله حتفهما على أيدي قوة من الثوار في قصر الرحاب. وفي اليوم التالي، مزق حشد من الناس في بغداد نوري السعيد اربأ عندما حاول الهرب متنكرا في ثياب امرأة(٢).

سعى اللواء قاسم، بعد توليه السلطة، إلى تغيير بنية المجتمع العراقي من خلال سلسلة من الإصلاحات للتقليل من قوة الطبقة الحاكمة الغنية وتحسين حال الفلاحين الفقراء وجماهير المدن. وكانت ملكيات الأراضي الواسعة لشيوخ مختلفين وكبار الملاك المستغيبين هدفا واضحا لإصلاحاته.

---

(١) مجيد خدوري: العراق الجمهوري: دراسة في السياسة العراقية منذ ثورة ١٩٥٨م، (لندن ١٩٦٩م)، ص٥ و ص١٢-١٤. عن التكتلات في المجتمع العراقي أنظر مجيد خدوري: العراق المستقل، ١٩٣٢-١٩٥٨م: دراسة في السياسة العراقية، الطبعة الثانية المنقحة، (لندن ١٩٦٠م)، ص٣٦٧.

(٢) دان: العراق، ص٣٠-٣١، عن تفاصيل ثورة تموز أنظر التايمز (لندن)، ١٥ تموز ١٩٥٨ م، ص٨، و ١٦ تموز ١٩٥٨ م، ص١٠. النيويورك تايمز، ١٤ تموز ١٩٥٨ م، ض١، و ١٥ تموز ١٩٥٨م، ص١، و ١٦ تموز، ١٩٥٨، ص١، و ١٧ تموز ١٩٥٨ م، ص١.

وفي خريف عام ١٩٥٨ م صدرت قوانين زراعية جديدة وصارمة لإعادة توزيع الأراضي الزراعية. وطبقا للقانون، لم يسمح للفرد بان يمتلك أكثر من حوالي ستمائة اكر من الأراضي المروية أو أكثر من ١٢٠٠ أكر من الأراضي غير المروية[١].

إن مثل هذه التحديدات الصارمة وجهت ضربة مباشرة إلى شيوخ القبائل الأغنياء مثل احمد الياور اكبر مالك للأراضي في الجزيرة. وقد أثار الاستياء أيضا ميول اللواء قاسم الشيوعية ومشاعره المعادية لناصر. وعلى وجه الأجمال، هددت أحداث عام ١٩٥٨ وأوائل عام ١٩٥٩ م، وبشكل خطير، مكانة احمد الياور كزعيم قبيلة رأسمالي غني. وفي حركة جريئة، سعى شيخ شمر المهدد أن يغير من مجرى الأحداث[٢]. وخلال الشهور الثلاثة الأولى من عام ١٩٥٩ م، تآمر احمد الياور وقادة آخرون أثرياء من الموصل مع الزعيم عبد الوهاب الشواف قائد اللواء الخامس في إقليم الموصل، وذلك لقلب نظام حكم قاسم[٣].

وبقيادة احمد الياور، لعبت شمر جزءا مكملا لثورة الشواف التي بدأت في الموصل في ٧ آذار ١٩٥٩ م. وقامت القبيلة، خلال الأسبوع الأول من آذار، بتهريب أسلحة صغيرة عبر الحدود السورية. ومع إعلان الثورة ندفق عدة آلاف من شمر إلى المدينة[٤]. ومع ذلك، فان وجودهم

(١) دان: العراق، ص٥٧-٥٩. التايمز (لندن)، ١ تشرين أول ١٩٥٨ م، ص ٧، تشرين أول ١٩٥٩ م، ص٧. النيويورك تايمز، ٢٤ أيلول ١٩٥٨م، ص ٤.

(٢) النيويورك تايمز، ١٨ آذار ١٩٥٩ م، ص٤.

(٣) ميشيل مونتسيرا، شؤون الموصل، في الشرق، المجلد الثالث، الجزء الثالث (١٩٥٩م)، ص٢٤-٢٥.

(٤) لوموند (باريس)، ١٩ آذار ١٩٥٩ م، ص٣.

أدى فقط إلى أدنى النتائج ففي خلال ثمانية وأربعين ساعة، سيطرت قوات الجيش العراقي الموالية لقاسم ورجال القبائل الكردية على الموصل مرة أخرى. وقد مات الزعيم الشواف قائد الثورة المجهضة، على يد ممرض كردي بعد أن جرح في هجوم جوي(*). ورغم أنها أبدت شجاعة شديدة ضد خصوم كثيرين إلا أنها عانت كثيرا مع انهيار الثورة. وفي محاولة أخيرة دافع رجال احمد الياور عن منزله الفخم بالموصل في قتال من باب إلى باب ضد القوات المهاجمة. وقتلت القوات الكردية غير النظامية أكثر من أربعمائة من رجال شمر(١)(*).

وبعد أن نفذت الذخيرة من السلاح أسرع أحمد الياور مع أنصاره المحاصرين نحو الحدود السورية. وعلى طريق الموصل إلى الحدود، قتل القرويون الموالون للواء قاسم عددا من رجال شمر المتقهقرين. وأيضا فإن سلاح الطيران العراقي شن عدة هجمات ضد بقايا القوة المتمردة من القبيلة(٢). ومن ملجئه في دمشق، سعى أحمد الياور إلى الاستمرار في

(*) مات العقيد عبد الوهاب الشواف منتحرا بمسدسه في مقر اللواء الخامس بعد أن أيقن بفشل انتفاضته، ولم يصبه القصف الجوي بأي أذى. (المقدم).

(١) حسن عرفة: الكرد: دراسة تاريخية وسياسية (لندن ١٩٦٦م)، ص١٣٢. عن تفاصيل ثورة الموصل أنظر التايمز (لندن)، ٩ آذار ١٩٥٩م، ص١٠، و١٠ آذار ١٩٥٩م، ص١٠، و١١ آذار ١٩٥م، ص١٠، و١٢ آذار ١٩٥٩م، ص١٢ و١٤ آذار ١٩٥٩م، ص٦. النيويورك تايمز، ٩ آذار ١٩٥٩م، ص١، و١٠ آذار ١٩٥٩م، ص١، و١١ آذار ١٩٥٩، ص١.

(*) هذا الرقم كبير جدا ومبالغ به، إذ أن مجموع ما قتل من الشيوخ وإفراد شمر في انتفاضة الموصل هو ١٨ شخص فقط. (المقدم).

(٢) مونتسرية، «الشؤون»، في الشرق، المجلد الثالث، الجزء الثالث (١٩٥٩م)، ص٢٨.

النضال ضد اللواء قاسم، ولكن جهوده كانت باءت بالفشل. فقد توفى الشيخ وطبان بن فيصل، الذي أصيب إصابة شديدة في قتال الموصل، في القامشلي بسوريا في الثاني من نيسان[(١)(*)].

وفي أعقاب التمرد الذي أجهض، صادرت حكومة قاسم الأملاك الخاصة بأحمد الياور وحاكمته غيابيا أمام محكمة الشعب في بغداد وحكمت عليه بالموت وتولى الشيخ مشعان ابن فيصل، وهو ابن عم احمد الياور، منصب الزعيم الأكبر للقبيلة[(٢)(*)]. وفي ١٢ نيسان، أي قبل مرور شهر على التمرد، اصدر اللواء قاسم عفوا عاما عن رجال شمر الذين اشتركوا في ثورة الموصل. وقد شجع العفو الذي كان تعبيرا عن إرادة ودية، المئات من رجال شمر على العودة إلى العراق[(٣)].

أكدت الهزيمة النكراء، التي حلت بالقبيلة على أيدي الجيش العراقي وسلاح الطيران في ربيع ١٩٥٩ م، عدم مقدرة شمر على تحدي القوة العسكرية للحكومة المركزية التي كانت تزداد قوة وتعقيدا. ورغم ذلك، فان مجرد حقيقة أن احمد الياور سعى إلى تحدي حكومة قاسم تبين الحيوية المستمرة لقبيلة شمر جربا على النقيض الواضح من قبائل أخرى اضطرت

---

(١) ميدل ايست ميرور، المجلد ١١، رقم ٤ (٥ نيسان ١٩٥٩م)، ص١٢. النيويورك تايمز، ١٨ آذار ١٩٥٩ م، ص٤.

(*) لم يصب الشيخ وطبان في انتفاضة الموصل، بل تمرض بشكل مفاجئ وتوفي. (المقدم).

(٢) شتاين: شمر جربا، ص٢١.

(*) لم يشير مير بصري إلى هذه الفقرة. (المقدم).

(٣) المصدر السابق: الشرق الحديث، المجلد ٣٩ (١٩٥٩م)، ص٣١٩.

إلى التخلي عن أسلوب حياتها البدوي. وهناك ثلاثة عوامل تفسر هذه القوة المستمرة.

أولا: لقد ساعد القبيلة على الاحتفاظ بقوة ثقافة شمر البدوية حقيقة أن القبيلة هاجرت إلى الجزيرة في وقت متأخر عن القبائل العربية الأخرى.

ثانيا: أنها احتفظت بعلاقات وثيقة بموطنها القبلي في نجد[١].

ثالثا: إن القبيلة احتفظت بمكانتها القوية من خلال القيادة القوية لعجيل الياور وأبنائه الذين احتفظوا بعلاقات وثيقة مع أتباعهم القبليين وتكيفوا بنجاح مع المجتمع الحديث. وعلى النقيض من الكثير من الشيوخ في جنوب العراق الذين فقدوا مكانتهم في القيادة القبلية عندما أصبحوا ملاك أراضي متغيبين فان الشيخ عجيل والشيخ احمد كانا يقضيان فترة من كل سنة مخيمين مع رجال قبيلتهما في البادية[٢].

لقد كان لعائلة الياور قدرة ملحوظة على استغلال جوانب من الثقافة الحديثة لفائدتها بينما حافظت على ولاء رجال شمر لها، ويقدم ذلك نقيضا واضحا لشيوخ قبائل العبيد والعمارات. فمثلا، استقرت عائلة الشاوي في بغداد خلال القرن التاسع عشر، وفقدت فيها بعد تأييد رجال

---

(١) روبرت مونتني: «ملاحظات حول الحياة الاجتماعية والسياسية لعرب الشمال»، مجلة استعراض الدراسات الشرقية، المجلد السادس (١٩٣٢م)، ص٦٣. «قصص بدوية شعرية»، مجلد الدراسات شرقية، المجلد الثاني (١٩٣٢م)، ص٤٠-٤١ وص٥١.

(٢) عن ملاك الأراضي المتغيبين أنظر: روبرت أ فرنيا: شيخ وأفندي: نماذج متغيرة للسلطة بين الشبانة في جنوب العراق، (كمبرج ١٩٧٠م)، ص٥٢.

قبيلة العبيد[١] . ومن جهة أخرى فشل فهد بن هذال، الزعيم الأكبر للعمارات العراقية، في آن يتكيف مع التغيرات السريعة التي حدثت خلال سنوات ما بين الحربين، وبالتالي كانت تنقصه القوة السياسية التي تمتع بها عجيل الياور في الشؤون الوطنية والإقليمية[٢] . وعندما نتأمل الأحداث الماضية، فان القوة المستمرة لقبيلة شمر جربا في منتصف القرن العشرين ترجع إلى المهارات القيادية لعجيل الياور الذي أثبت انه زعيم قبلي ذكي وذو خيال واسع.

---

(١) الجميل: البدو، ص٢٨٥-٢٨٦.

(٢) فون اوبنهايم: البدو، المجلد الأول، ص١٩٥.

الخاتمة

إن دراسة شمر جربا لم توفر فقط فرصة فريدة من اجل فهم أفضل للتاريخ الذي أهمل طويلا هذه القبيلة البدوية المهمة، بل وأضافت أيضا معرفة قيمة لجانبين آخرين لتاريخ الشرق الأدنى الحديث. وعلى خلاف الكثير من التحقيقات الحديثة التي درست التغيرات التي حدثت في عواصم مثل القاهرة واسطنبول، فقد ركز هذا العمل على مجال حيوي من التاريخ الإقليمي. وعلاوة على ذلك فقد قدمت هذه الدراسة فرصة لفحص المشكلة القديمة عن كيفية تأثر ثقافات بلاد الرافدين المتوطنة بالغزوات البدوية.

لقد شكلت شمر جزءا واحدا فقط من الهجرة البدوية التي رحلت عن الجزيرة العربية في نهاية القرن الثامن عشر بسبب التهديد العسكري والسياسي نتيجة لانتشار الحركة الدينية الوهابية المتطرفة. بعد اضطراره إلى مغادرة ديار القبيلة الواقعة حول جبل شمر في نجد، اتجه قسم من شمر بقيادة الشيخ مطلق الجربا نحو الملجأ المفترض في إقليم نهري في جنوب الرافدين. وقد بقي هذا القسم من شمر، الذي أصبح يعرف بشمر جربا ، في بلاد الرافدين بعد أن انتهى التهديد الوهابي. وعندما قتل مطلق الجربا في معركة ضد الوهابيين، تسلم الشيخ فارس الجربا مكانه كزعيم أكبر وثبت عائلة المحمد كالبيت الحاكم لشمر.

وسرعان ما قاد الزعيم الجديد رجال قبيلته عبر نهر الفرات إلى الجزيرة. وقد نتج عن هذه الهجرة إعادة توزيع في التوازن القبلي والسياسي الجغرافي في الجزيرة. وحدث صدام مباشر بين المصالح عندما تحدت شمر العبيد، القبيلة البارزة في الجزيرة، من اجل السيطرة على الإقليم. وتعاون الشيخ فارس الجربا ببراعة مع باشوات المماليك في بغداد وهزم قبيلة العبيد عسكريا، وخلال سنوات قليلة اضطرها إلى أن تغادر الجزيرة وتجد ديارا جديدة لها شرق دجلة. وفي محاولتها للسيطرة على أراضي فيما بين دجلة والفرات، أرغمت شمر أيضا قبائل طي والجبور في التخلي عن ديارهما التي امتدت إلى قرون. وإضافة إلى أنها تسببت في إعادة توزيع سياسي جغرافي أساسي، وقد أخل أسلوب الحياة البدوي النجدي لشمر أيضا بالتوازن الثقافي القائم في الجزيرة، حيث رسخت شمر نفسها كالقبيلة العربية الأقوى في النصف الشمالي لولاية بغداد، وطورت بسرعة من قدرتها العسكرية لكي تتحدى تعليمات الحكومة المركزية في بغداد والموصل. وقد زاد الشيخان فارس الجربا وصفوق بن فارس من القوة العسكرية للقبيلة لدرجة كبيرة حتى أن الباشا المملوكي في بغداد استخدم شمر جربا كقوات إضافية للجيش النظامي. وفي مناسبات عديدة فيما بين الأعوام ١٨٠٥ و١٨٣٠م، كسبت القبيلة بالفعل معارك رئيسية للباشوات المماليك. وقد حققت هذه الانتصارات للشيخان فارس وصفوق مناصب سياسية مربحة وصوتا قويا في شؤون الإقليم. وخلال فترة التدعيم هذه اتسعت ديار شمر في كل أنحاء الجزيرة وفي أعالي بلاد الرافدين.

وبدأت فترة جديدة في تاريخ شمر عام ١٨٣٠ م عندما بدأ السلطان محمود الثاني عملية امتدت قرنا لإعادة توطيد السيطرة العثمانية المباشرة على

ولاية بغداد. وقد ركز الباب العالي في البداية جهوده على أن يحل حكام رسميين عثمانيين محل الباشوات شبه المستقلين في بغداد والموصل. وبمرور الوقت، تم أيضا إخضاع زعماء القبائل العربية والكردية القوية والمستقلة ذاتيا في الجزيرة وأعالي الرافدين بعمليات عسكرية منسقة استهدفت إنهاء استقلالها. وأدت حملة رئيسية في عام ١٨٣٥ م بقيادة رشيد باشا إلى اسر الشيخ الأسطوري صفوق وبدأت بذلك محاولات استمرت قرنا من ثلاث حكومات منفصلة لوقف الغارات القبلية.

وعاد الشيخ صفوق إلى الجزيرة بعد غياب فرض عليه لمدة ثلاث سنوات في اسطنبول وسعى إلى استعاده مكانته السابقة كسلطان البر أو حاكم الأرض وبعد عقد من الزمان اغتيل الزعيم العظيم على يد أحد أتباع نجيب باشا. وبموت صفوق فقدت شمر أكثر قائد لها موهوب في القرن التاسع عشر. إن الاتجاه المتنامي نحو السيطرة العثمانية على شؤون القبائل قد أثر بشكل كبير على امتيازات البدو خلال الخمسينات والستينات من القرن التاسع عشر. وإن تحسين التنظيم العسكري والابتكارات التكنولوجية، مثل جهاز البرق، ساعدت الحكومة في التخطيط لهجمات واسعة النطاق ضد شمر.

وسعى مدحت باشا، حاكم بغداد، الذي أدخل عدة تحديثات، فيما بين الأعوام ١٨٦٨ و١٨٧١م، إلى السيطرة على أعمال السلب للقبائل من خلال سياسة ذات حدين تستهدف هزيمتها عسكريا وعرض منح أراض عليها كبدائل اقتصادية عوضا عن سلوكها القائم على السلب. لقد دمر مدحت باشا قدرة شمر على تحدي الجيش العثماني في صيف عام ١٨٧١م عندما سحقت قواته تمرد قبلي منسق تحت قيادة الشيخ عبد الكريم بن

صفوق. وعلى الرغم من أن مشروع الاستيطان وفر لفرحان باشا منحة من الأرضي الواسعة في قلعة الشرقاط مقابل مساعدته في توطين شمر إلا أن هذا المشروع فشل في تحقيق النتائج المرجوة منه. ومع ذلك فان محاولة الاستيطان الأولية هذه كانت علامة رئيسية في تغير ثقافة شمر جربا البدوية.

وخلال العقود الأربع التالية، فان الابتكارات التكنولوجية مثل نظام البرق الواسع وإدخال البنادق المتعددة الطلقات، زادت أكثر من قدرة الحكومة في الحد من غارات شمر وعمليات ابتزاز الخاوة. وكان قيام اتحاد قبلي ملي كردي قوي تحديا أخر لتفوق قبيلة شمر في الجزيرة. ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، عرفت شمر انه كان من المستحيل وبشكل واضح تحدي الأوامر العثمانية بنفس الطريقة التي كانت قد اعتادت عليها. ورغم ذلك استمرت القبيلة في النمط التقليدي لحياتها البدوية.

وقد ازدادت سرعة التغيير بدرجة كبيرة فيما بين الأعوام ١٩١٨ و١٩٣٩م، وفي النهاية سيطرت الحكومة المركزية العراقية ومستشاروها البريطانيون على شمر والقبائل العراقية الأخرى. وتسببت عدة عوامل مهمة في تغيير ميزان القوى فالتسوية السياسية، التي تلت الحرب والتي قسمت ديار القبيلة بين ثلاث حكومات منفصلة، أضعفت من وحدة شمر. وأيضا فان التكنولوجيا العسكرية التي تطورت خلال الحرب العالمية الأولى وفرت القوة وسرعة الحركة المتزايدة والمطلوبة للحد من الغارات والهجرات القبلية. وعلى وجه التحديد، فقد وفر اللاسلكي والتليفون ووسائل الاتصال السريعة الأدوات اللازمة لشن هجمات بالطائرات والسيارات المسلحة ضد جماعات الإغارة من شمر، أن هذا التقدم

التكنولوجي قضى على المزايا التي كان البدو تقليديا يتفوقون بها على الحكومة المركزية.

إن إحدى الاستنتاجات المهمة التي خرجنا بها من هذه الدراسة أن ثقافة شمر البدوية وتنظيمها القبلي قد تغيرا كثيرا خلال القرن والنصف الماضيين. فخلال هذه الفترة أظهرت شمر عن عدم قدرتها في الحفاظ على وحدتها. إن النواة القبلية المتحدة التي هاجرت إلى الجزيرة تحت قيادة شيخ واحد قوى، هو مطلق الجربا ، تكاثرت بسرعة حتى انه في عام ١٨٧٨ م كانت القبيلة قد انقسمت إلى جماعتين متمايزتين شمر الغربية في سوريا وشمر الشرقية في العراق. وأيضا فان الحشد الكبير من الورثة الذكور الذين تركهم الشيخان صفوق وفرحان، وارتباطهم بنظام للخلافة غير محدد، أدى إلى منازعات كثيرة وخطيرة حول القيادة مما أضعف من وحدة القبيلة.

لقد طرأت تغيرات كبيرة على ثقافة شمر النجدية البدوية مع ازدياد احتكاك القبيلة بالمجتمع المتوطن خلال القرن التاسع عشر فمثلا، بدأت القبيلة، خلال الأربعينات من القرن التاسع عشر عندما ازداد الطلب الأوربي على الصوف العربي، في العمل كرعاة غنم لدى تجار الموصل الأغنياء. وقد زارت شمر أيضا مدنا إقليمية مختلفة سنويا لشراء الحنطة التي كانت حيوية بالنسبة لإدامة حياتها. وكان مشروع الاستيطان القبلي الذي بدأه فرحان باشا في قلعة الشرقاط عام ١٨٧٠م مثالا أخر على كيفية نفوذ الثقافة المتوطنة على حياة شمر. ومع ذلك، فقد حدث أعمق تغير في ثقافة شمر بعد الحرب العالمية الأولى. وفيما بين الأعوام ١٩٢٠ و ١٩٤٠ م، إذ لم تبدأ مركبات المحركات فقط في أن تحل محل الجمال كأرخص وسيلة مواصلات في الصحراء، بل وأجبرت ابتكارات أخرى أقسام كاملة من قبيلة شمر في التخلي عن وجودهم الرعوي والاستيطان كمزارعين.

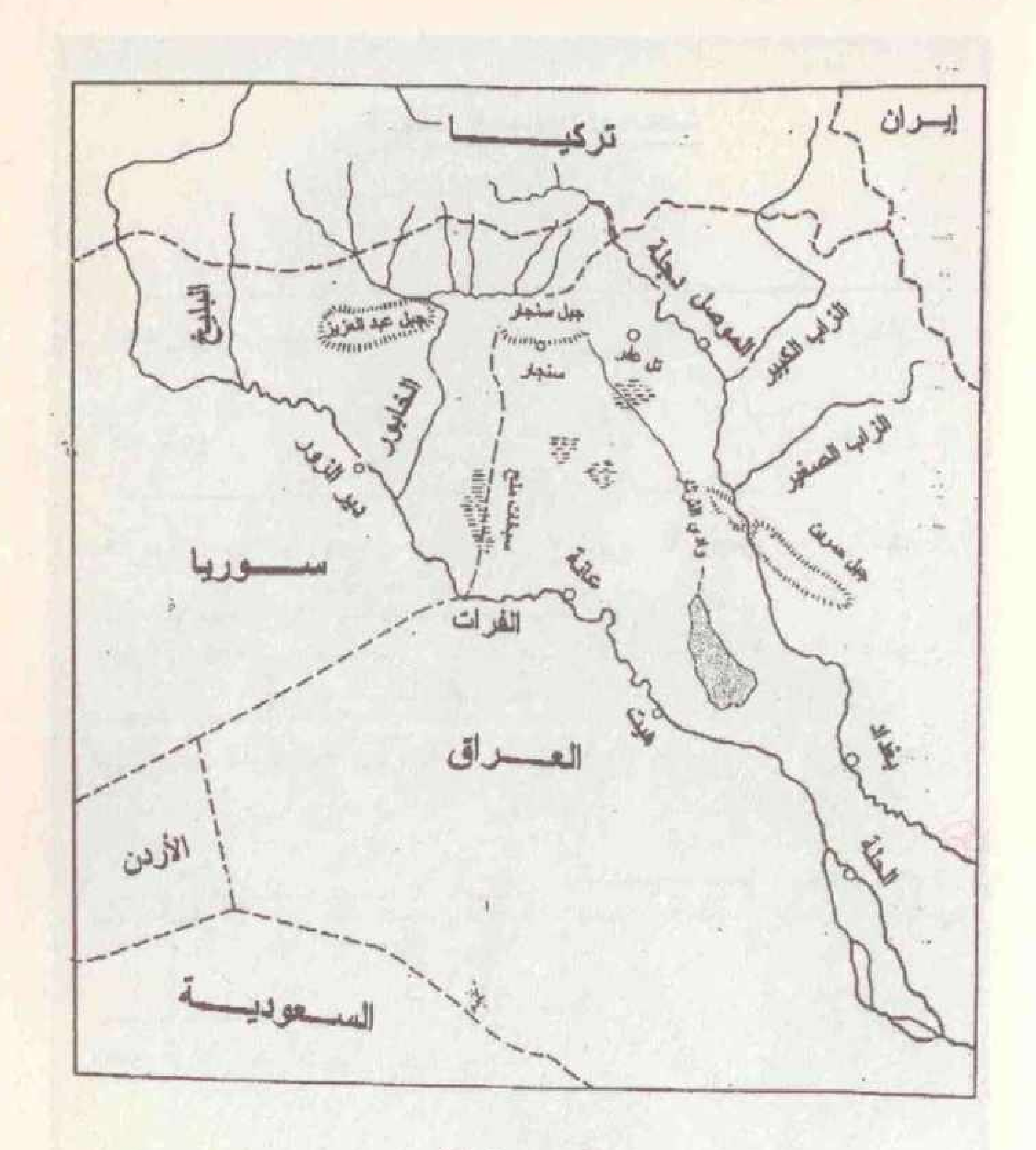
ومن بين كل جوانب ثقافة شمر، فان عمل القيادة القبلية، المتجسد في منصب الزعيم الأكبر، خضع لأعمق التغيرات. إن زعيما قبليا تقليديا، مثل الشيخ صفوق بن فارس، كان حصل على مكانته من خلال بسالته العسكرية وحكمته وبلاغته في الحديث وقدرته على تحدي الحكومة المركزية. وعلى النقيض التام من ذلك، فان الزعيم الأكبر الحديث والناجح، مثل عجيل الياور، حصل على منصبه ليس بسبب مهاراته الحربية، ولكن وبالدرجة الأولى من خلال سمعته كسياسي وطني وعلاقات الصداقة مع الحكومة المركزية وقدرته كرجل أعمال، وبالدرجة الثانية من خلال جاذبيته كقائد بدوي تقليدي.

وكما تشير نتائج هذه الدراسة وبوضوح، فقد لعبت قبيلة شمر دورا حيويا في تاريخ العراق وسوريا الحديث لم يكن قد قدر حق قدره حتى ألان. وفي مواجهة تحديات مختلفة كثيرة خلال القرن والنصف الماضيين، حافظت شمر على كرامتها وشخصيتها لتبقى قبيلة متفوقة في الجزيرة.

الملاحـــق

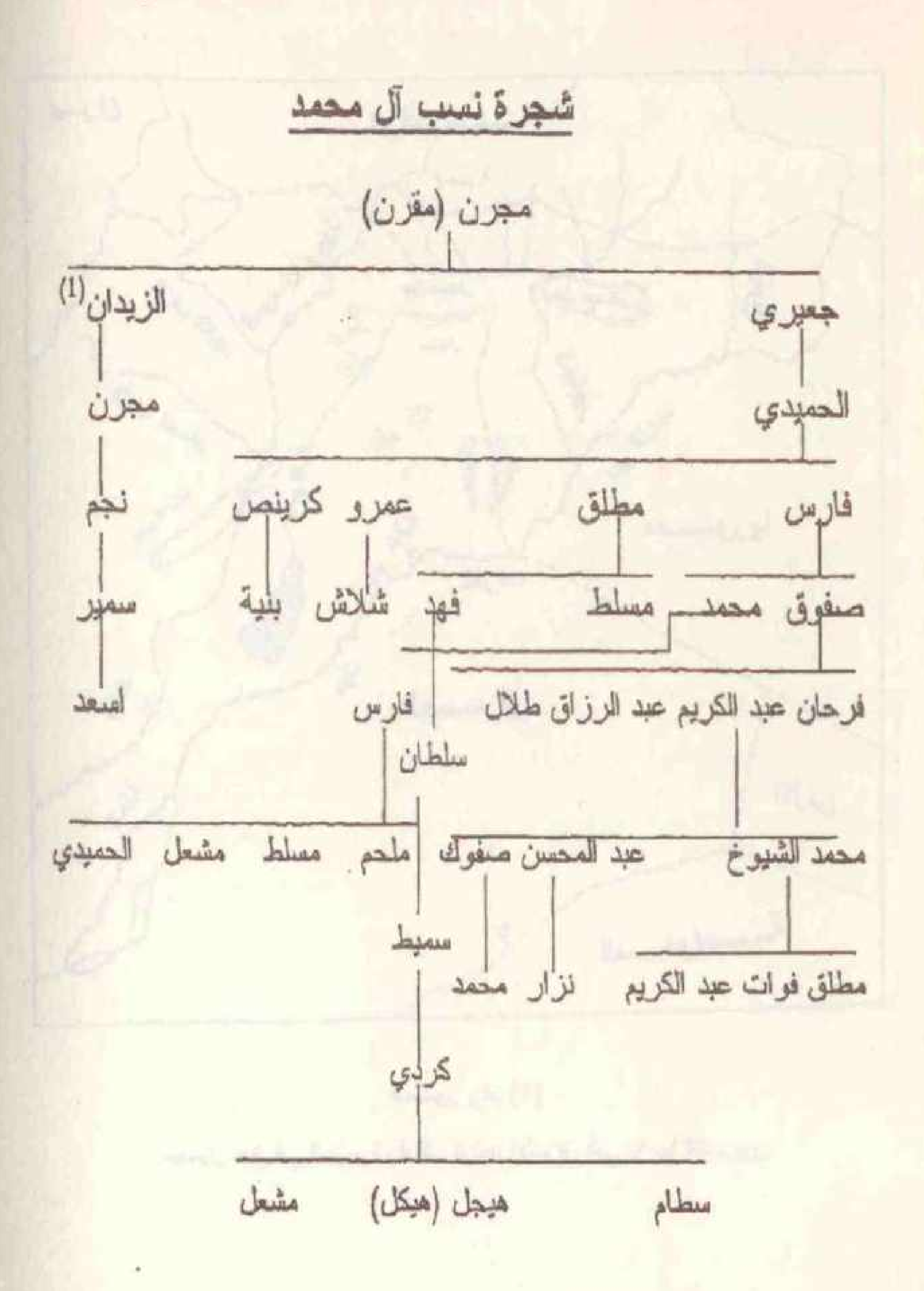
[illegible]

[illegible]

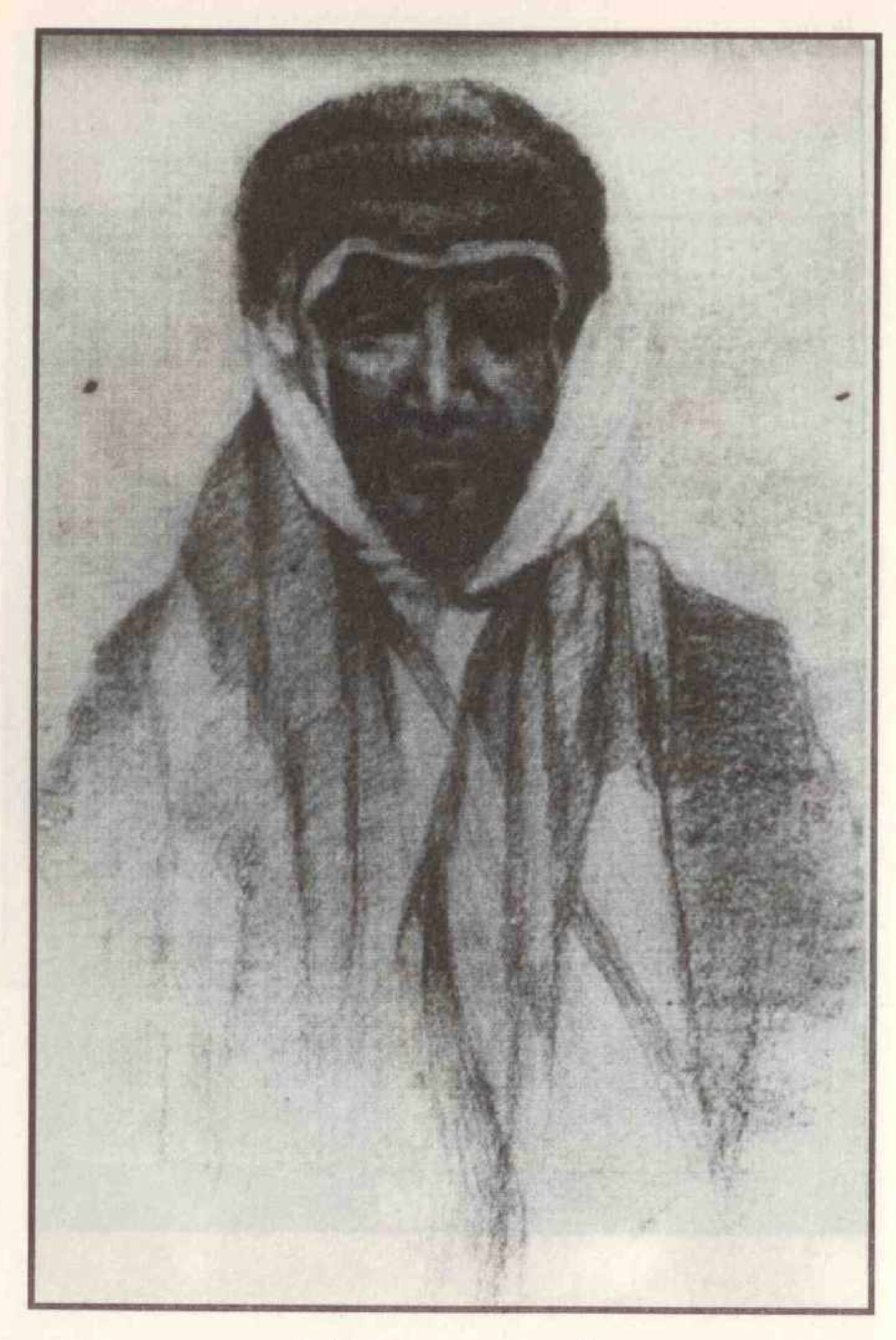


المصور رقم (١)

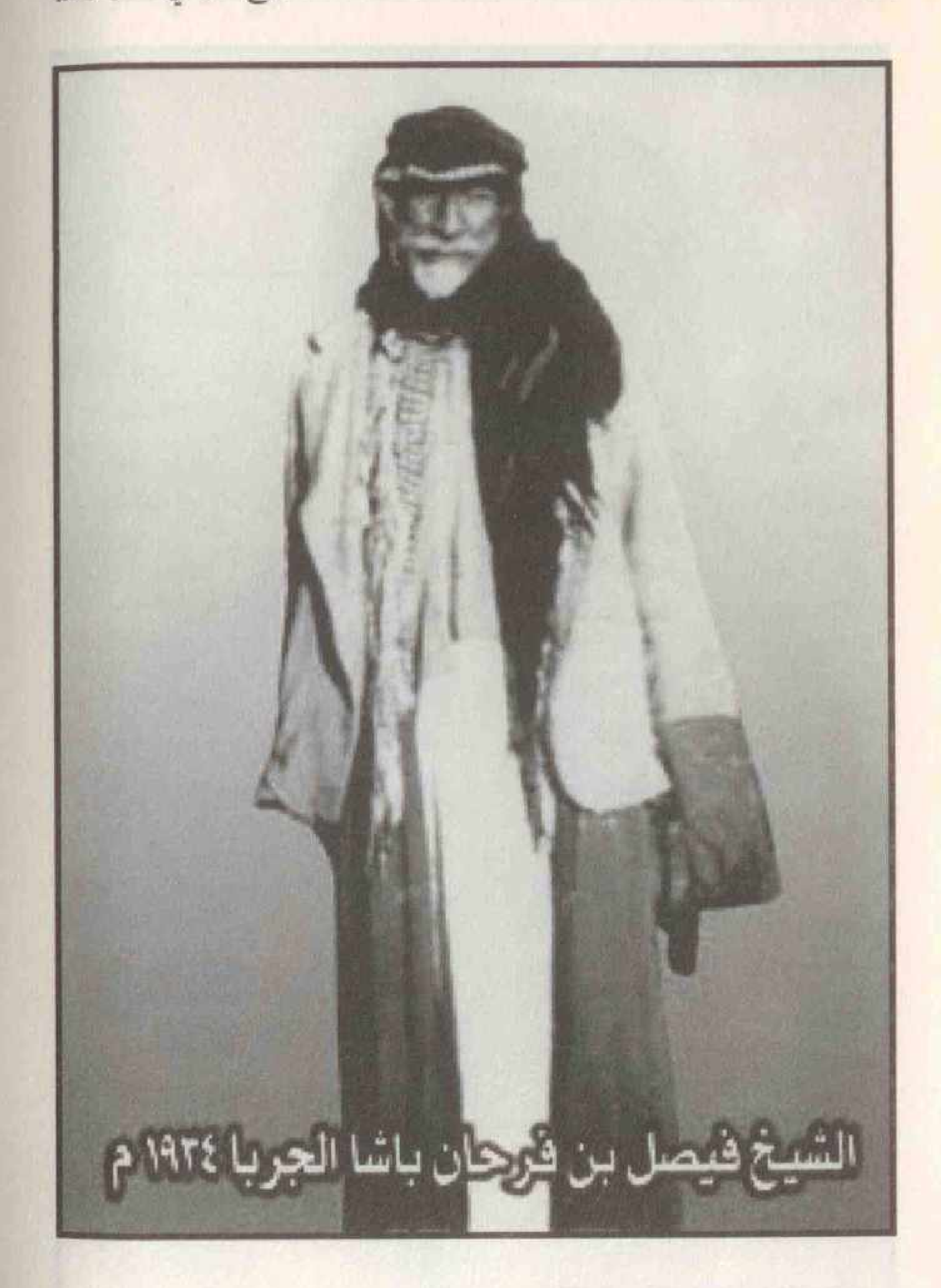
مصور جغرافي للجزيرة وأماكن تواجد الأسواق التي يؤمها الشمريون



[1] لم نتمكن من ذكر سلسلة الزيدان كاملة بتفريعاتها وانما اقتصرنا على رئيسها واتصاله بزيدان المذكور.



الشيخ فارس بن صفوك الجربا



الشيخ فيصل بن فرحان باشا الجربا ١٩٣٤ م



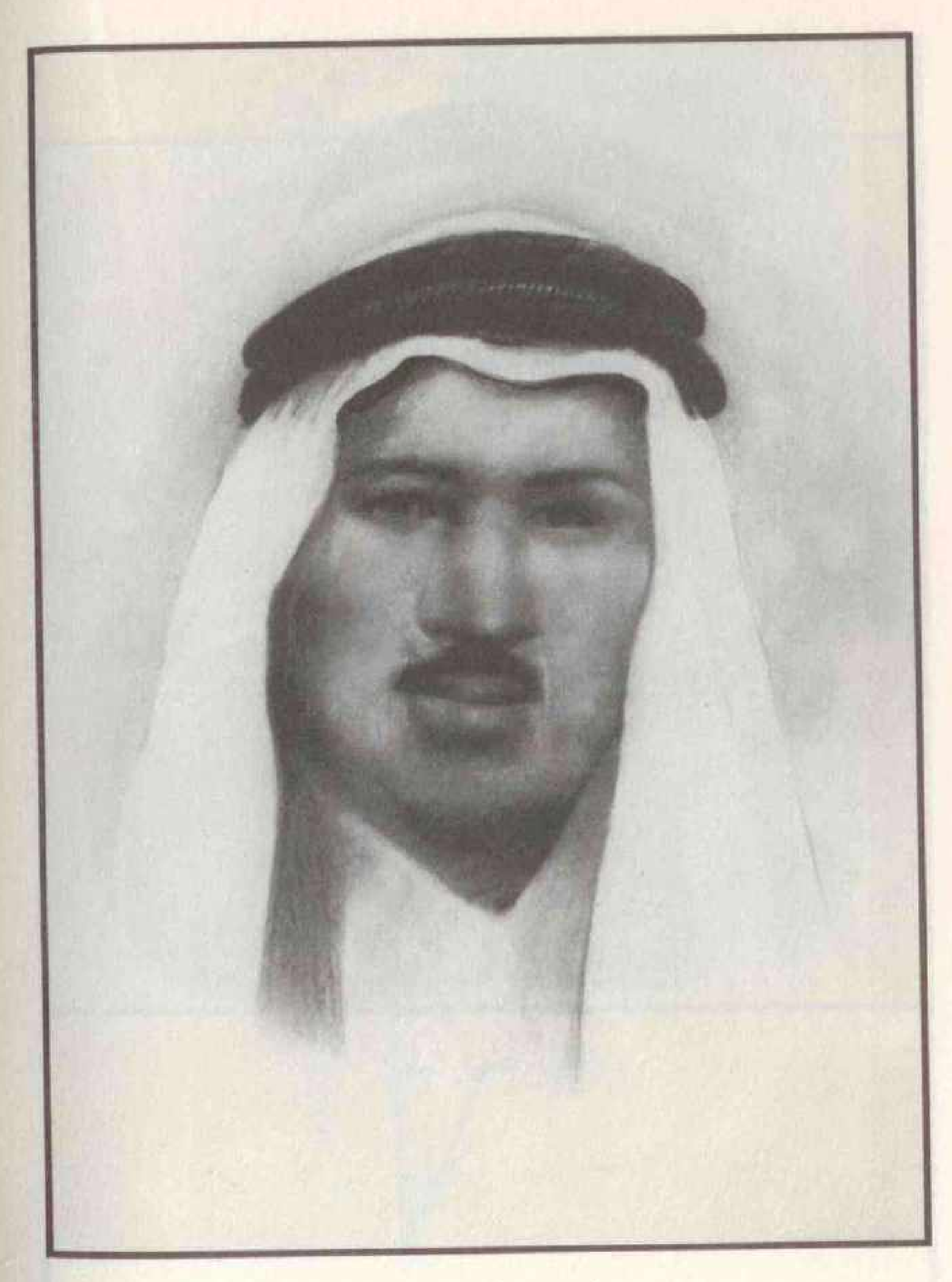
الشيخ حميدي بن فرحان باشا الجربا



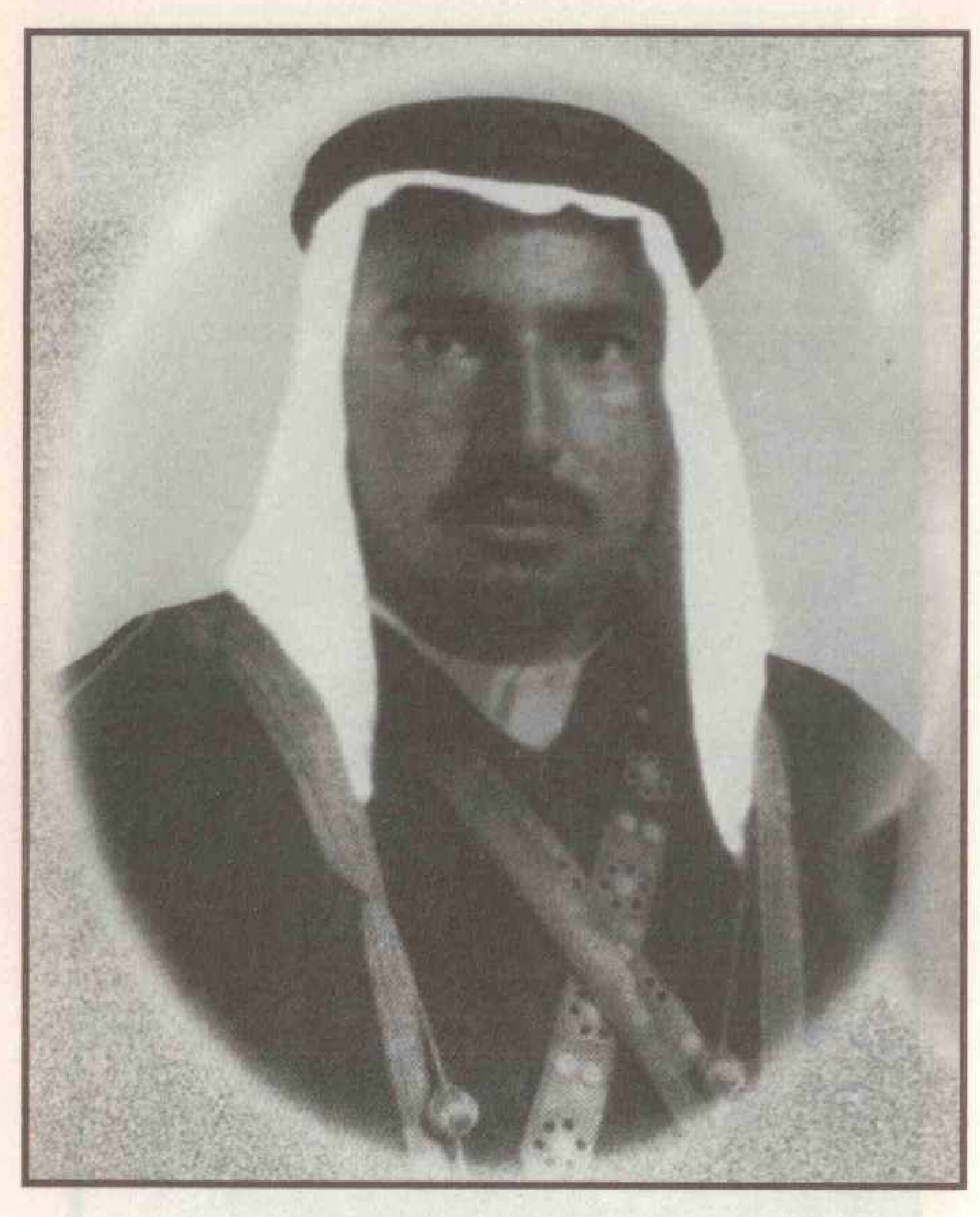
الشيخ عجيل الياور



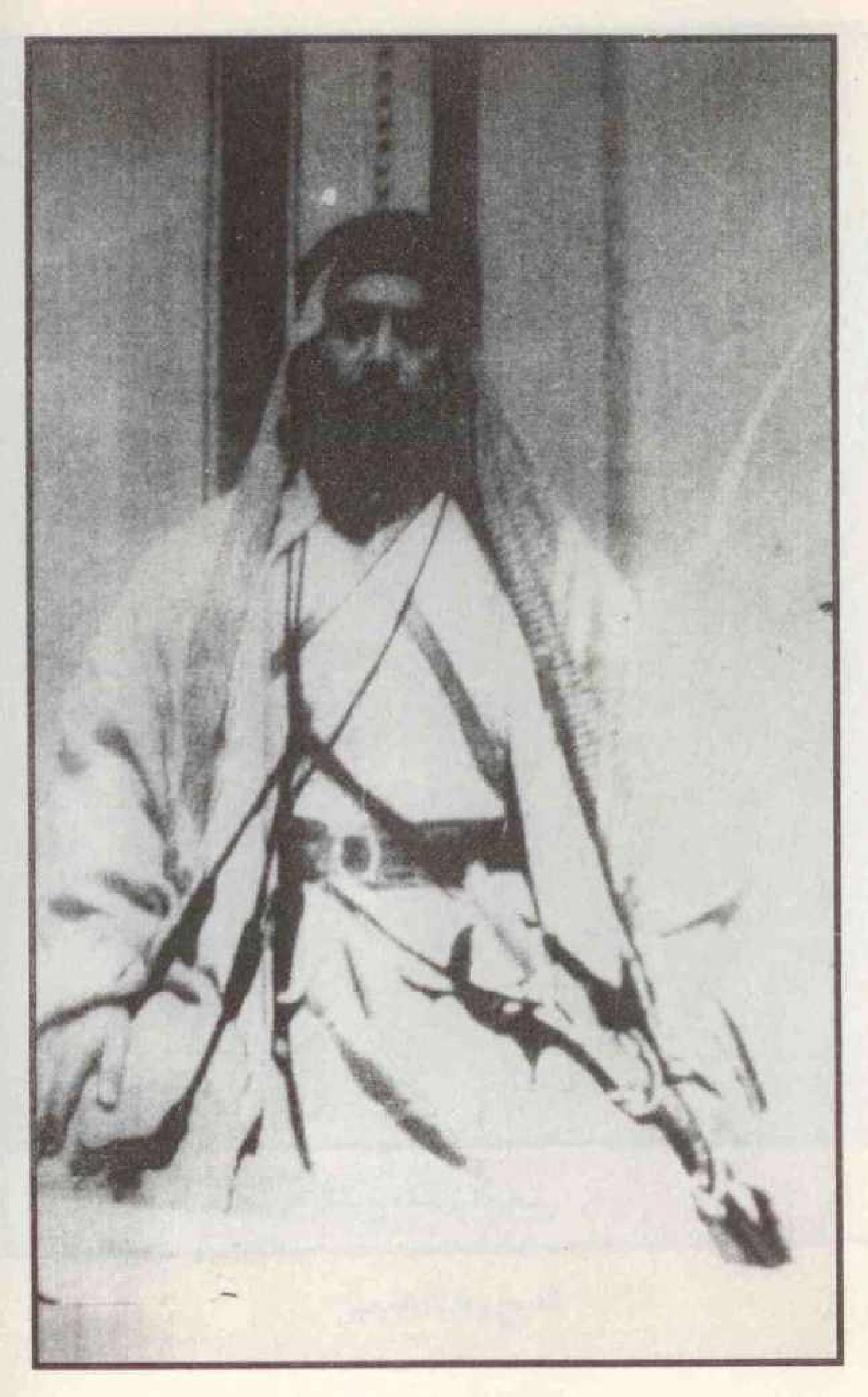
الشيخ دهام الهادي



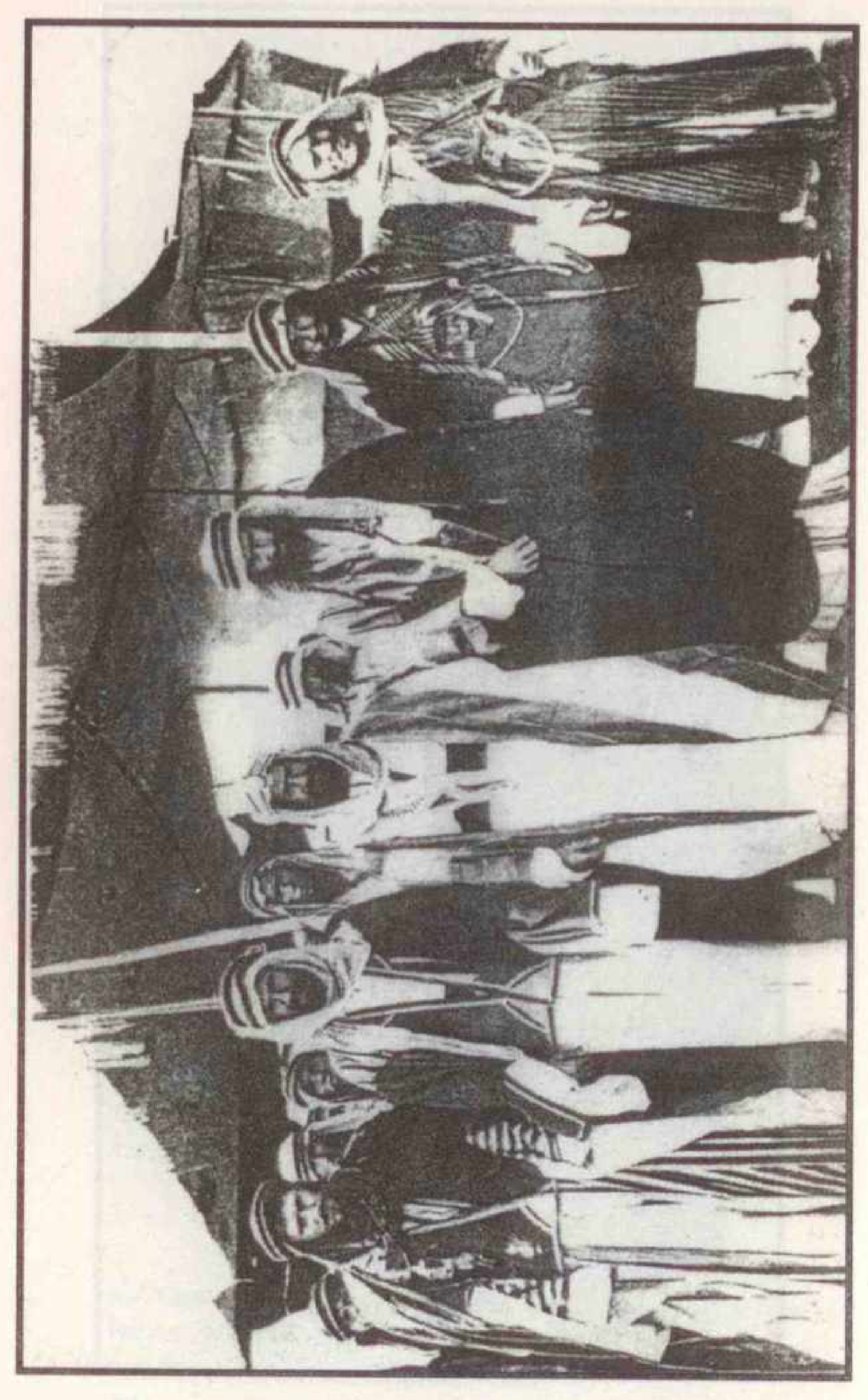
الشيخ وطبان الفيصل



الشيخ مشعان الفيصل



الشيخ مشل الفارس الجربا



هجر أبو تيد (الفداغة)



الملك فيصل الأول بن الحسين

المصــادر

المصادر الأجنبية

Great Britain

Public Record Office, London
Air Ministry files, Series 23
(Iraqi Intelligence)
Colonial Office files, Series 693, 696.
Foreign Office files, Series 195 (Turkey), 371 (post-1905), 372.

Commonwealth Relations Office: India Office Records, London.
Political and Secret Department, Letters from Persian Gulf 1830-1850.

Published Documents

Great Britain

Admiralty: Naval Intelligence Division.

Geographical Handbook Series, **Iraq and the Persian Gulf**, Oxford, 1944.

Arabic Works

al-'Azzaw,'Abbas, **Ta'rkh al-'Iraq bayna Ihtalayn,** 8 Volumes. Baghdad, 1935-1956.

'Asha'ir al-'iraq. 4 Volumes, Baghdad, 1957.

Ghannam, Husayn ibn. **Ta'rkh Najd.** Egypt, 1961.

Ibn Qutaybah,'Abd Allah ibn Muslm, **Kitab'Uyun al-Akbar.** 4 Volumes, Cairo, 1925-1930.

al-Jahiz,'Amr ibn Bahr. **al-Bayan wa al-Tabayn.** 4 Volumes, Cairo, 1968.

Kitab al-Hayawan. 8 Volumes. Egypt, 1965.

al-Jaml, Makk. **al-Badwah wa al-Badw f al-Bilad al-'Arabiya.** n.p.p., 1962.

al-Badw wa al-Qaba'il ar-Rihhalah f al-'Iraq. Baghdad, 1956.

al-Kirkukl, Rasul. **Dawha al-Wuzara'.** translated from Turkish by Musa Kazim Nurus. Beirut, 1963.

al-Madin, Amn ibn Hasan al Halaw. **Mutali'u as-Sa'ud.** Bombay, 1885.

al-Mukhtar, Salah ad-Dn. **Ta'rkh al-Mamlakah al-'Arabya as-Sa'udiyah.** 2 Volumes. Beirut, 1957.

Nawwar,'Abd al-'Azz Sulayman. **Dawud Basha Wal Baghdad.** Cairo, 1967.

Tarkh al-'Iraq al-Hadth. Cairo, 1968.

al-Qal, Abu'Al Isma'l ibn al-Qasim. **Kitab al-Amal.** 2 Volumes. Beirut, 1965.

Sa'igh, Sulayman. **Tarkh al-Mausil.** Cairo, 1923.

Wizara ad-Dakiliya. **Mudhakara, al-Majlis al-Ta'sisi al-'Iraq.** 2 Volumes. Baghdad, 1925.

Zakariya, Wasf Ahmad. **'Asha'r ash-Sham.** Damascus, 1948.

Zak, Muhammad Amn. **Khulasat Ta'rkh al-kurd wa kudistan.** Baghdad, 1961.

Ta'rkh as-Sulaymaniyah. Baghdad, 1951.

Monographs and General Works

Arfa, Hassan, **The Kurds and Historical and Political Study.** London, 1966.

Badger, George Percy. **The Nestorians and Their Rituals.** London, 1852.

Baer, Gabriel. **Population and Society in the Arab East.** Translated from the Hebrew by Hanna Szoke. London, 1964.

Belyaev, E.A. **Arabs, Islam, and the Arab Caliphate in the Early Middle Ages.** Translated from teh R4ussian by Adolphe Gourevitch. New York, 1969.

Berkes, Niyazi. **The Development of Secularism inModern Turkey.** Montreal, 1964.

Blunt, Anne. **Bedouin Tribes of the Euphrates.** New York, 1879.

Bodman, Herbert, Jr. **Political Factions in Aleppo 1760-1826.** Chapel Hill, 1963.

Boveri, Margaret. **Minaret and Pipe-Line: Yesterday and Today in the Near East.** Translated from the German by Louisa M. Sieveking. London, 1939.

Brice, William C. **South-West Asia: A Systemic Geography.** London, 1967.

Burce, C.E., "The Sanderman Policy as Apllied to Tribal Problems of To-Day", **Journal of the Royal Central Asian Society, XIX** (1932).

Budge, Ernest. **By Nile and Tigris: A Narrative of Journeys in Egypt and Mesopotamia on Behalf of the British Museum Between the Years 1886 and 1913.** 2 Volumes. London, 1920.

Burckhardt, John Lewis. **Notes on the Bedouins and the Wahabys.** London, 1831.

Burgoyne, Elizabeth. **Gertrude Bell, From Her Personal Papers. 1914-1925.** 2 Volumes. London, 1958-1961.

Buringh, P. **Soils and Soil Conitions in Iraq.** Baghdad, 1960.

Busch, Briton C. **Britain, India, and The Arabs, 1914-1921.** Berkeley, 1971.

Cressy, George Babcock. **Crossroads: Land and Life in Southwest Asia.** Chicago, 1960.

Dann, Uriel **Iraq Under Qassem: A Political History, 1958-1963.** New York, 1969.

Davidson, Roderick, **Reform in the Ottoman Empire, 1956-**

1876. Princeton, 1963.

Devereux, Robert, **The First Ottoman Constitutional Period, A Study of the Midhat Constitution and Parliament.** Baltimore, 1963.

Dickson, Harold, **the Arab of the Desert: A Glimpse into Badawin Life in Kuwait and Saudi Arabia.** London, 1949.

Field, Henry, **Anthropology in Iraq.** 2 Volumes. Chicago, 1940-1952.

Fisher, William Bayne. **The Middle East: A Physical, Social and Regional Geography.** 6th Edition. London, 1951.

Fraser, James Baillie. **Travels in Kurdistan and Mesopotamis.** 2 Volumes. London, 1840.

Gabrieli, Francesco. **Muhammad and the Conquest of Islam.** Translated from the Italian by Virginia Luling and Rosamund Linell. New York, 1968.

Grant, C.P. **The Syrian Desert: Caravans-Travel and Explorations.** New York, 1938.

Haldane, James Aylmer Lowthrop. **The Insurrection in Mesopotamis, 1920.** Edinburgh, 1922.

Hitti, Philip Khubri. **History of the Arabs: From the Earliest Times to the Present.** 9th Edition. New York, 1967.

Hourani, Albert. **A Vision of History: Near Eastern and Other Essays.** Beirut, 1961.

Huart, Clement Ibault. **Histoire de Baghdad dans les Temps Modernes.** Paris, 1901.

Ireland, Philip Ward. Iraq: A Study in Political Development. New York, 1938.

al-Kasab, Nafir Nasir. **Die Nomadenansiedlung in der Irakischen Jezirah.** Tubingen, 1966.

Khadduri, Majid, **Independent'Iraq: A Study in'Iraqi Politics from 1932-1958.** 2nd Edition. London, 1960.

Republican'Iraq: A Study in'Iraqi Politics Since the Revolution of 1958. London, 1969.

Layard, Austen Henry. **Discoveries Among the Ruins of Nineveh and Babylon.** New York, 1853.

Nineveh and Its Remains. Edited by H.W.F. Saggs. London, 1970.

LeSttange, Guy. **The Lands of the Eastern Calphate.** New York, 1965.

Lewis, Bernard. **The Emergence of Modern Turkey.** London, 1961.

Loftus, William Kennett. **Travels and Research in Chaldaea and Susiana.** London, 1857.

Longrigg, Stenba Hemsley. **Four Centuries of Modern Iraq.** Oxford, 1925.

Iraq 1900-1950: A Political, Social and Economic History. Oxford, 1953.

Syria and Lebanon Under French Mandate. London, 1958.

Main, Ernest. **Iraq: From Mandate to Independence.** London, 1935.

Ma'oz, Moshe. **Ottoman Reform in Syria and Palestine, 1840-1861; the Impact of the Tanzimat on Politics and Society.** Oxford, 1968.

Mardin, Sherif. **The Genesis of Young Ottoman Thought: A Study in the Modernization of Turkish Political Ideas.** Princeton, 1962.

Margoliouth, D.S. "Wahhabiya", **E.I.**, Vol. IV, 1086-1087.

Midhat,'Ali Haydar. **Midhat-Pacha Sa Vie-Son Oeuvre.** Paris, 1908.

Mitford, Edward Ledwich. **A Land March from England to Ceylon Forty Years Ago.** London, 1884.

Montagne, Robert. **La Civilization du Desért: Nomades d'Orient et d'Afrique.** Paris, 1947.

Musil, Alois. **The Manners and Customs of the Rwala Bedouin.** New York, 1928.

The Middle Euphrates: A Topographical Itinerary. New York, 1927.

Nevakivi, Jukke. **Britain, France and the Arab Middle East, 1913-1920.** Oxford, 1969.

Niebuhr, Carsten. **Beschreibung von Arabien.** Kopenhagen, 1772.

Oates, David. **Studies in the Ancient History of Northern Iraq.** London, 1968.

Patai, Raphael. **Golden River to Golden Road, Society, Culture and Change in the Middle East.** Philadelphia, 1962.

Peretz, Don. **The Middle East Today.** New York, 1965.

Peters, J.P. **Nippur; or, Explorations and Adventurers on the Euphrates.** 2 Volumes. New York, 1898.

Philby, Harry St. John Bridger, **Arabia.** London, 1930.

Rabbath, E. **l'Évolution Politique de la Syrie sous Mandat. Paris, 1923.**

Ramsaux, Ernest Edmondson, Jr. **The Young Turks; Prelude to the Revolution of 1908.** Princeton, 1957.

Rassam, Hormuzd. **Asshur and the Land of Nimrod.** New York, 1897.

Rich, Claudius James. **Narrative of a Residence in Koordistan.** 2 Volumes. London, 1836.

Riousseau, Jean. **Description du Pashalic de Baghdad** Paris, 1809.

Sachar, Howard Morley. **The Emergence of the Middle East.** New York, 1969.

Europe Leaves the Middle East: 1936-1954. New York, 1972.

Sachaw. E. **Reise in Syrien und Mesopotamien.** Leipzig, 1883.

Shaw, Stanford. **Between the Old and the New: The Ottoman Empire under Salim III.** Cambridge, 1971.

Shiha, Habib K. **Le Province de Baghdad, Son Passé, Son Présent, Son Avenir.** Cairo, 1908.

Stein, Lothar. **Die Sammar-Gerba: Beduinen im Urbergang von Namdismus zur Sesshaftigkeit.** Berlin, 1967.

Sykes, Mark. **The Caliph's Last Heritage; A Short History of the Turkish Empire.** London, 1915.

Dar al-Islam. A Record of a Journey Through Ten of the Asiatic Provinces of Turkey. London, 1904.

Tibawi, Abdul Latif. **A Modern History of Syria Including Lebanon and Palestine.** London, 1969.

Vaucelles, Pierre de La Vie en iraq Il Y A Un Siècle, Par Nos Consuls. Paris, 1963.

Vernier, Bernard. L'Iraq d'Aujourd'hui. Paris, 1963.

Von Oppenheim, Max Freiherr, Die Beduinen: Die Beduinenstamme in Mesopotamien und Syrien. Volume I of 4 Volumes. Leipzig, 1939-1952.

Vom Mittelmeer zum Persischen Golf durch den Hauran, die Syrische Wuste, und Mesopotamien. 2 Volumes. Berlin, 1899-1900.

Warriner, Doreen. Land Reform and Development in the Middle East: A Study of Egypt, Syria, and Iraq. London, 1957.

Wilson, Arnold Talbot. Loyalties Mesopotamia: 1914-1917. London, 1931.

Mesopotamia, 1917-1920: A Clash of Loyalties; A Personal and Historical Record. London, 1990.

Winder, R. Bayley. Saudi Arabia in the Nineteenth Century. New York, 1965.

Zeine, N. Zeine. The Struggle for Arab Independence: Western Diplomacy and the Rise and Fall of King Faisal. Beirut, 1960.

Articles

Baer, Gabriel, "Iltizam", E.I.2, Vol. III, 1154-1155.

Canard, Marius. "Djazira", E.I.2, Vol. II, 523-524.

Caskel, W. "'Amir B. Tufayl", E.I.2, Vol. I, 442.

Elphineton, W.G. "The Kurdish Question", International Affairs, XXII (1949), 91-103.

Glubb, John. "The Bedouins of Northern Iraq", Journal of the Royal Central Asian Societ, XXII, Pt. 1 (1935), 15-29.

Graf, E. "'Anaza", E.I.2, Vol. I, 482-483.

Huart, Clement. "Notice sur les Tribus Arabes de la Mesopotamie", Journal Asiatique, Series VII, XIII (1878), 215-240.

Jwaideh, Albertine. "Midhat Pasha and the Land System of

Lower Iraq", in **Middle Eastern Affairs,** No. III, Albert Hourani, Editor. **St. Antony's Papers,** No. XVI. Carbondale, nd., 106-136.

Lewis, Norman, "The Frontier of Settlement in Syria 1800-1950", **International Affairs,** XXXI (1955), 48-60.

Longrigg, Stephen Hemsley, "Baban", **E.I.2,** Vol. I, 845.

"Bahdnan", E.I.2, Vol. II, 920.

Menzel, T. "Yazd", **E.I.,** Vol. IV, 1163-1170.

Mideast Mirror, XI, No. 4 (April 5, 1959), 12.

Montagne, Robert. "Contes Poètiques Bédouins (Recueillis Chez Les Sammar de Geziré)", **Bulletin des Etudes Orientales,** V. (1935), 33-119.

"Quelque Aspects du Peuplement de la Haute Djeziré", Bulletin des Etudes Orientales, II (1932), 53-66.

Montserrat, Michel. "L'Affaire de Mossoul", **Orient,** IX (1959), 23-30. **Oriente Moderno,** XXXIX (1959), 319.

Pellat, Charles. "al-Ahnaf B. al-Kays", **E.I.2,** Vol. I, 303-304.

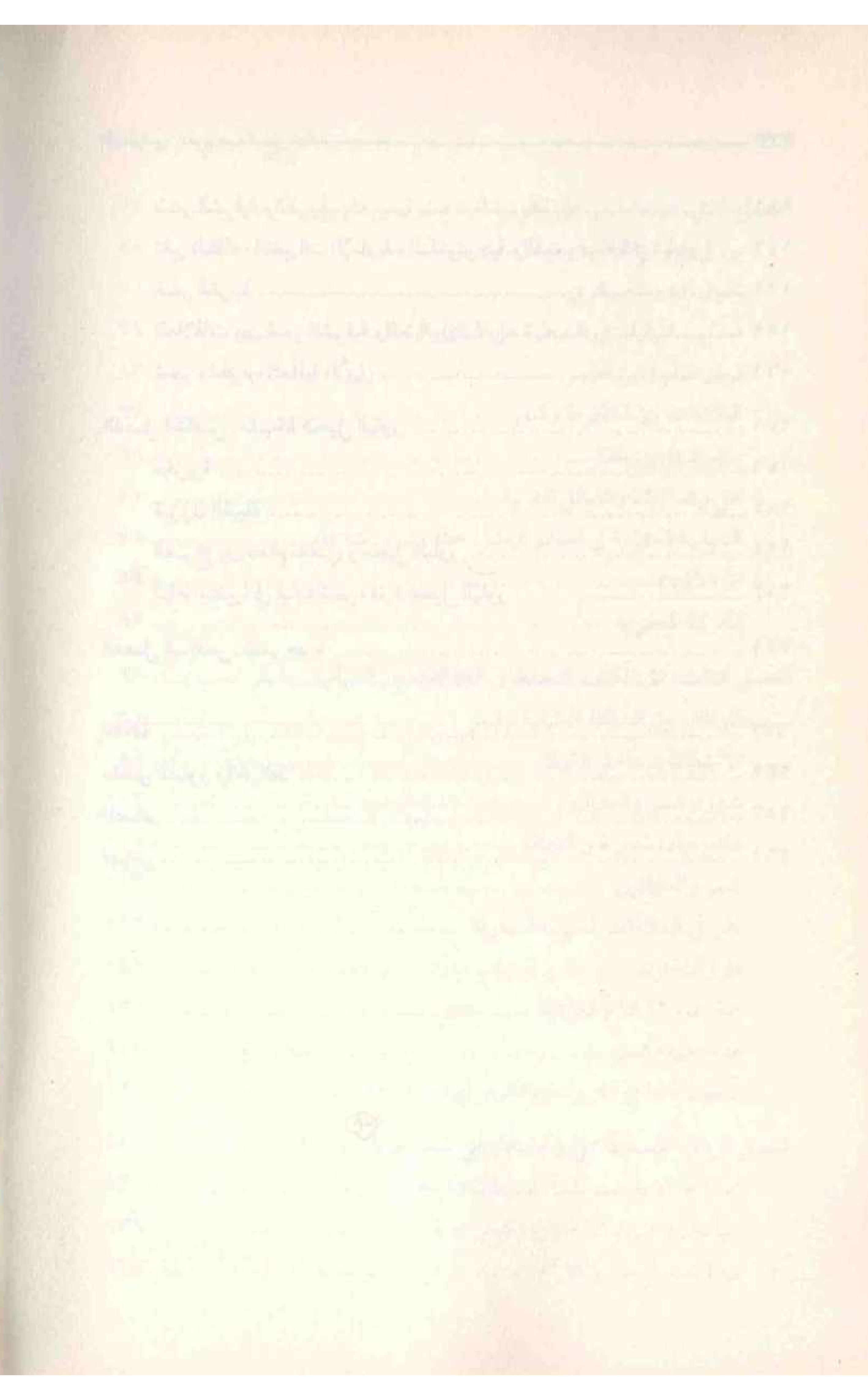
Ross, John, "Notes on Two Journeys from Baghdad to the Ruins of al-Hadr in Mesopotamia in 1836-1837", **Royal Geographical Society Journal** IX (1839), 443-467.

Rondot, Pierre. "Les Tribus Motagnardes de L'asie Anterieure", **Bulletin des Etudes Orientales,** VI (1936).

Sweet, Louise. "Camel Raiding of North Arabian Bedouin: A Mechanism of Ecological Adaptation", **American Anthropologist,** LXVII, (1965), 1132-1150.

Vinogradov, Amal. "The 1920 Revolt in Iraq Reconsidered the Role of The Tribes in National Politics", **International Journal of Middle Eastern Studies,** III (1972), 123-139.

فهرس



THE POLITICAL HISTORY OF SHAMMAR AL-JARBA TRIBE

دراسات

التاريخ السياسيّ لشمّر الجربا

قبيلة من الجزيرة (1800 - 1958)

لقد كان لي مع أطروحة الباحث الأمريكيّ توماس. فردريك وليمسون معايشة طويلة منذ أن عثرت على (مايكروفيلم) لها في المكتبة المركزيّة لجامعة الموصل وأنا في بداية البحث والكتابة عن التاريخ السياسيّ والنسبيّ للتجمّع القبليّ شمّر وأسرة القيادة فيها آل محمّد الجربا عام ١٩٨٨م . وقمت على الفور ، وبعد الحصول على نصّ ورقيّ لها ، بتقديمها إلى صديقي الدكتور جوزيف نادر بولص الأستاذ المصريّ الّذي كان يعمل في جامعة الموصل ، فقام بترجمتها ترجمة كاملة دون أيّ تغيير لنصوصها ، فأصبحت هذه الترجمة عونًا لي للقيام بتأليف كتاب عن تجمّع شمّر القبليّ وبيت المشيخة فيها (آل محمّد الجربا) ، والّذي خرج إلى القرّاء بطبعة لست راضيًا عنها ، عام ٢٠٠٢م .

بقيت ترجمة الدكتور جوزيف لأطروحة الدكتوراه في جامعة إنديانا لوليمسون ، الّتي أنجزها عام ١٩٧٤م ، في أدراج المكتبة الخاصّة بي ، مع أنّي كنت قد قدّمت النصّ الإنجليزيّ من الأطروحة إلى أحد أحفاد الشيخ عجيل الياور ...

وها آن الأوان لظهور هذه الطبعة الجديدة الّتي آمل أن تنال الرضى والإعجاب

◆ د. ثائر حامد محمّد صوفي خضر



ISBN 978-6589-07-914-5

9 786589 079149

الأهلية

الأردن : عمّان ، وسط البلد : بجوار مطعم القدس
ص . ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات العام 2010
الغلاف : ® ، هاتف 95297109 7 00962